كتاب

في بيان الحاجة

الي الطب و الاطباء و وصاياهم

تأليف:

قطب الدين محمود بن مسعود شيرازي

مشخصات کتاب :

نام کتاب : فی بیان الحاجه الی الطب و الاطباء و وصایاهم

مؤلف : قطب الدین محمود بن مسعود بن مصلح شیرازی

مصحح : محمد فؤاد الذاکری

نسخه مادر : تصویر کتاب امانت داده شده از سوی آقای رشید تفقد با تشکر فراوان از ایشان

دیباچه : دکتر محمدمهدی اصفهانی

ناشر : مؤسسه مطالعات تاریخ پزشکی، طب اسلامی و مکمل دانشگاه علوم پزشکی ایران با تشکر از همکاری های ارزنده آقای دکتر امیرمهدی طالب

تاریخ نشر : بهمن ماه ۱۳۸۷

شماره نشر : ۳۰

شماره انفرادی کتب : ۵۱

نوبت نشر : یکم

شمارگان : ۱۵۰ نسخه

بسمه تعالی

اثری دیگر از حکیم فرزانه قطب الدین محمود بن مسعود شیرازی

کتاب حاضر با عنوان «فی بیان الحاجه الی الطب و الاطباء و وصایاهم» که توسط محمد فؤاد الذاکری بر اساس ۲ نسخه خطی در دسترس محقق مذکور تصحیح و بازسازی و منتشر شده است اثری فوق العاده ارزشمند از دانشمندی گرانقدر که دسترسی محققین طب سنتی ما به آن فرصت مغتنمی است.

حجم کم کتاب و محتوای غنی آن که در سه فصل تنظیم شده این توقع را ایجاد می کند که انشاءا... هر چه زودتر شاهد ترجمه خوبی از آن به زبان فارسی یعنی زبان مادری همین حکیم عالم باشیم.

مؤلف در فصل اول به بیان ارزش دانش پزشکی و سبب نیاز به آن براساس عقل و روایات و در فصل دوم به دانش هائی که پزشک به آنها نیاز دارد و در فصل سوم به صفات و ویژگیهای اخلاقی مورد انتظار از پزشک پرداخته است.

فصل اخیر مفصل ترین و به اعتباری سودمندترین بخش این کتاب است که در آن تذکرات مفیدی دیده می شود.

محقق و مصحح کتاب نیز علاوه بر توضیحاتی که راجع به چگونگی دستیابی به نسخ مورد استفاد و نحوه تصحیح آنها داده است بحث مفصلی نیز درباره تاریخ پزشکی دارد که صرفنظر از بعضی نکاتی که متأسفانه برای عده ای از محققین عرب بصورت عادت درآمده است مجموعاً این بخش نیز قابل استفاده است.

از آنجا که پیش از این چند اثر از قطب الدین محمود شیرازی را در سلسله انتشارات مؤسسه مطالعات تاریخ پزشکی، طب اسلامی و مکمل منتشر کرده ایم و باندازه کافی در آثار ذکر شده توضیحاتی درباره حیات علمی او داده ایم بجای بازنویسی و تکرار آنها به اندکی اکتفا می کنم که او متولد ۶۳۴ و متوفی به سال ۷۱۰ هجری (یکشنبه ۱۷ رمضان المبارک) است . کتاب گرانقدر و مشهور درة التاج لغرة الدباج معروف به انموذج العلوم از اوست او افتخار تلمذ در محضر خواجه نصیر الدین طوسی را برای رفع مشکلات قانون ابن سینا دارد. قبر او در مقبره چرنداب تبریز در جوار قبر قاضی بیضاوی است. /

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

في بيان الحاجة

إلى الطب والأطباء ووصاياهم

المرجعية الطبية
في العصر الجاهلي

عمّا يخالطها، ويقرّب مزاجها من ملاءمة البدن)[١]

إنّ اتّساع الأفق في البادية وتفرّق المساكن واشتداد الحرّ في النهار ثمّ هبوط تلك الحرارة في الليل مع الجفاف البالغ، بخلاف حال المدن المكتظّة بالسكّان والمحجوبة في أكثر أجزائها من نور الشمس وتخلّل الرياح مع الرطوبة، وهكذا تكون الأمراض في البادية أقلّ عدداً وخطراً من الأمراض في بقيّة المناطق، كما يتابع ابن خلدون: (وأمّا أهويتهم فقليلة العفن لقلّة الرطوبات والعفونات، إن كانوا آهلين أو لاختلاف الأهوية إن كانوا ظواعن، ثمّ إنّ الرياضة فيهم لكثرة الحركة في ركض الخيل أو الصيد أو طلب الحاجات لمهنة أنفسهم في حاجاتهم، فيحسن بذلك كله الهضم أو يجود ويفقد إدخال الطعام على الطعام، فتكون أمزجتهم أصلح وأبعد من الأمراض، فتقلّ حاجتهم إلى الطبّ)[٢].

المداواة في العصر الجاهلي:

كان الأطباء الجاهليون يداوون بما لهم من الذكاء ومن الاختبار من غير رجوع إلى قواعد ثابتة أو علم منظّم، كما أفادوا من خبرتهم بعقاقير بلادهم، وكان أكثرها مستمدّاً من النبات، وتؤخذ شراباً، وأطلق العرب في الجاهلية على الأطبّاء لفظ (الحكماء) كونهم يجمعون بين العلم والتجربة والنفوذ.

أمّا دستور الطب في الجاهلية فنستطيع أن نتبيّنه في محاورة الطبيب المخضرم «الحارث بن كلدة الثقفي» حين وفد على ملك

---

(١) المصدر السابق - ص ٣٨٦.

(٢) المصدر السابق - ص ٣٨٦.

الفرس «كسرى انو شروان»، ومع أنّ الحارث بن كلدة قد عرف شيئاً عن علم الطب المزاجي، لأنّه كان طبيباً حضرياً، ومع أنّ هذه المحاورة يمكن أن تكون منحولة للحارث جملة أو في بعض أقسامها فقط، فإنّها معبرة عن أصول وقواعد الطب في الحضارات القديمة ولا سيّما المصرية الفرعونية بشكل خاصّ، وتتلخّص أجوبة الحارث فيما يلي:

[أصل التطبيب الأمر بالجوع والحمية (الإمساك عن الطعام أو عن بعضه) والرجوع بالأجسام إلى ما كانت قد تعوّدته في أيّام صحّتها من المأكل والمشرب والراحة والعمل، والجاهل أكثر حاجة إلى عناية الطبيب من غير الجاهل، وعلى الطبيب أن يداري المريض الجاهل حتّى يحمله على قبول المداواة، والداء الدويّ هو إدخال الطعام على الطعام، فهو الذي يفني البرية ويهلك السباع في جوف البرّيّة، والتخمة إن بقيت في الجوف قتلت وإن تحلّلت (هضمت وتفرّقت في البدن) أسقمت، وتكون الحجامة (استخراج الدم من العروق) في نقصان الهلال (في النصف الثاني من الشهر القمري) في يوم صحو لا غيم فيه، والنفس طيّبة والعروق ساكنة لسرور يفاجئك وهمّ يباعدكَ. ولا يجوز أن يدخل الرجل الحمّام وهو شبعان أو يغشى أهله (يلامس امرأته) وهو سكران، أو يقوم بالليل وهو عريان، أو يأكل وهو غضبان][1].

وقال الحارث: [ارفق بنفسك يكن أرخى لبالك، وقلّل من طعامكَ يكن أهنأ لمنامك. وأمّا الدواء، فما لزمتك الصحّة فاجتنبه،

(١) ابن أبي أصيبعة ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء ـ منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ ١٩٦٥، ص ١٦٢ ـ ١٦٣.

فإن هاج بك داء فاحسمه بما يودعه قبل استحكامه، ولا تشرب الشراب (الخمر) صرفاً، فيورثك صداعاً، ويثير عليك من الداء أنواعاً. وأفضل اللحمان لحم الضأن الفتيّ، والقديد (اللحم المجفف) المالح مهلك لآكله. وكل الفواكه في إقبالها وحين أوانها، واتركها إذا أدبرت وولّت وانقضى زمانها. وخير الفواكه الرمّان والأترج، وأفضل البقول الهندباء والخسّ، والماء حياة البدن وأفضله ما كان من الأنهار العظيمة بارداً زلالاً لا طعم له ولا لون، فيجب أن يشرب منه بقدر، وشربه بعد النوم ضرر.

وإذا زاد الدم في الجسم وجب إخراجه، وإذا سخن وجب أن تطفأ حرارته بالأشياء الباردة، والحقنة تنقّي الجوف وتكسح الأمراض.

وإنّ الجهل كلّ الجهل أن يأكل الإنسان ما قد عرف مضرّته مؤثراً لشهوته على راحة بدنه، والحمية هي الاقتصاد (الاعتدال) في كلّ شيء، وكثرة غشيان النساء رديء][1].

ومن أقوال الحارث: [مَنْ أراد البقاء، ولا بقاء للإنسان، فليجوّد الغذاء، وليأكل على نقاء، وليشرب على ظمأ، وليقلّل من شرب الماء، ويتمدّد بعد الغداء ويتمشّى بعد العشاء، ويعجّل العشاء ويباكر الغداء، وليخفّف الرداء، وليقلّل غشيان النساء، ولا يبيت حتّى يعرض نفسه على الخلاء][2].

نلاحظ أنّ أصل الطب والمبدأ الأساسي في المعالجة هو

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(الأزم) أي ضبط الشفتين والرفق باليدين، أو بتعبير آخر لحديث «الحارث بن كلدة» الشهير:

[المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء. وأصل كلّ داء البردة]، حيث شرحه «ابن خلدون» بقوله: (فأمّا قوله «المعدة بيت الداء» فهو ظاهر، وأمّا قوله «الحمية رأس الدواء»، فالحمية الجوع، وهو الاحتماء عن الطعام، والمعنى أنّ الجوع هو الدواء العظيم الذي هو أصل الأدوية، وأمّا قوله: «أصل كلّ داء البردة»، فمعنى البردة إدخال الطعام على الطعام في المعدة قبل أن يتمّ هضم الأوّل)(١).

لذلك يمتدح «ابن خلدون» أهل البادية بقوله: (هؤلاء الفاقدين للحبوب والأدم من أهل القفار أحسن حالاً في جسومهم وأخلاقهم من أهل التلول المنغمسين في العيش، فألوانهم أصفى، وأبدانهم أنقى، وأخلاقهم أبعد من الانحراف، وأذهانهم أثقب في المعارف والإدراكات، وهذا أمر تشهد له التجربة في كلّ جيل منهم)(٢).

وخطّة المعالجة تقوم على النهج التالي: التركيز على الحمية، وتناول بعض الأطعمة الخفيفة الموافقة، والاستمرار على هذا النهج حتّى يزول الداء، أي الاعتماد على (الغذاء الدوائي)، فهو بذلك يؤخّر تناول الدواء طالما أنّ البدن يحتمل الداء، لأنّه يعتقد أنّ الدواء مهما كان فلا بدّ أن يترك آثاراً سلبية ومضاعفات على الجسم الإنساني، ويقول في ذلك:

(دافع بالدواء ما وجدت مدفعاً، ولا تشربه إلاّ من ضرورة،

---

(١) ابن خلدون ـ المقدمة ـ ص ٣٨٤.

(٢) المصدر السابق.

فإنّه لا يصلح شيئاً إلاّ أفسده)[١].

ولا بدّ من التنويه بأنّ نظرية المرض: مردّه إلى البردة (إدخال الطعام) وأنّ جماع الأمراض وأصلها من الأغذية الزائدة عن حاجة الإنسان، مغايرة تماماً لمبدأ نظرية الأخلاط أو الأمزجة اليونانية الفلسفية المنشأ، والتي تعتبر أنّ عدم توازن (البلغم والصفراء والسوداء والدم) وهي أخلاط الجسم المفترضة هو سبب المرض، والعلاج يكون بإعادة التوازن والتناسب بين الأخلاط المذكورة.

وهناك نهج علاجي آخر نلمسه عند «الحارث بن كلدة» ألا وهو (التجربة)، ويتجلّى ذلك في طريقة علاجه لأحدهم، الذي بدأت تظهر عليه أعراض المرض بعد أن عشق زوجة أخيه الغائب [يفهم من سياق أحداث الحكاية أنّه لم يشاهدها قطّ من قبل، وحينما وقعت عيناه عليها لأوّل مرّة ولمحها هام بها حبّاً] وقد وجد المريض نفسه في موقف حرج، والواقع أنّ الأطبّاء العرب اعتبروا العشق مرضاً خطيراً، ذا أعراض جسدية واضحة، وقد عرّفه «ابن سينا» في كتاب القانون بقوله:

[والعشق هو إلهام النفس بمن تعشقه، وإدامة الفكر فيه، وإنّه مرض وسواسي شبيه بالمالنخوليا يكون الإنسان قد جلبه لنفسه بتسليط فكرته على استحسان بعض الصور والشمايل][٢].

أمّا علامات المرض، فهي [غور العينين، وكثرة حركاتها أو حركة أجفانها، وقلّة الدموع أو عدم الدمع إلاّ عند البكاء][٣]،

---

(١) ابن أبي أصيبعة - عيون الأنباء - ص ١٦٦.

(٢) ابن سينا - القانون في الطب - دار صادر - بيروت - د.ت. - ج٢ - ص ٧١ - ٧٢.

(٣) المصدر السابق - ج٢ - ص ٧٢.

ويضيف ابن سينا: [إنّ حركة الجفن ضحاكة كأنّه ينظر إلى شيء لذيذ أو يسمع خبراً ساراً، ويكون نَفَسُهُ كثير الانقطاع والاسترداد، فيكون كثير الصعداء، ويتغيّر حاله إلى فرح وضحك أو إلى غمّ وبكاء عند سماع الغزل، لا سيّما عند ذكر الهجر والنوى، وتكون جميع أعضائه ذابلة، خلا العين](١).

والواضح أنّ هذه الأعراض ظهرت على مريضنا بالإضافة إلى الصفرة والنحافة وقلّة الشهوة للطعام، والشكوى من آلام مجهولة المصدر يحسّ بها، ولكن أخاه حاول علاجه عن طريق أطبّاء ذلك الزمن، فلم يفلحوا لأنّ أسباب أوجاعه ليست عضوية المنشأ، بل هي نفسية ناجمة عن عاشق مدنف، وقد أدركت الحيرة أيضاً «الحارث بن كلدة» حين قدم لمعالجته، ولاحظ في وصفه التشخيصي علامة هامّة [أرى عينين محتجبتين، وما أدري ما هذا الوجع، وسأجرّب](٢)، ففي مرض يصعب تشخيصه في البداية كان لا بدّ من (التجربة)، وعلى هذا قرّر «الحارث» أن يسقي المريض نبيذاً، وقد فعل الشراب المسكر فعله في حلّ عقدة لسانه، وصرّح بما يجول في صدره من غرامه الملتهب، وما جرى أنّ الرواية انتهت نهاية مأساوية، إذ قام الأخ بتطليق زوجته [وهي لا ذنب لها، كما أنّنا لا ندري بالمناسبة هل بادلت المريض عشقه أم لا، ولا شيء في سياق الحكاية يوحي بذلك] وطلب من أخيه أن يتزوّجها، الذي قابل هذه المبادرة بالرفض، ومات بعد فترة، ودفع حياته ثمناً لهذا العشق المحرّم. ونستنتج أنّ العلاقة بين النفس والجسد وثيقة، وعلى كون الصحّة العامة نتاج التوازن بين صحّة النفس وصحّة

---

(١) المصدر السابق - ج٢ - ص ٧٢.

(٢) ابن أبي أصيبعة - عيون الأنباء - ص ١٦٦.

الجسد، والتعرّض للصدمة والشدّة النفسية تنعكس باضطرابات فيزيولوجية يمكنها أن تتحوّل إلى أمراض حقيقية تسبّب الموت، وما يهمّنا هو طريقة «الحارث بن كلدة» في معرفة الأسباب المؤدّية للمظاهر المرضية، فقد أدرك بخبرته أنّ المريض يخفي سرّاً ولن يبوح به طالما يحمل خصوصية وحرجاً، وقد استطاع اكتشاف سرّ المرض، ولكنّه لم يستطع أن يعالجه، وكان الموت هو الحلّ الوحيد.

أمّا «ابن سينا» فتختلف طريقته في تشخيص المرض، فهو يعتمد على جسّ النبض، ويعلّق أهمية كبيرة على هذه العلامة، فمن صفات نبض العاشق [أن يكون نبضه مختلفاً بلا نظام البتّة، كنبض أصحاب الهموم، ويتغيّر نبضه وحاله عند ذكر المعشوق خاصّة وعند لقائه بغتة][١].

ويمكن من خلال ذلك الاستدلال على المعشوق ومعرفته حتّى إذا لم يعترف العاشق بذلك، وهو بداية طريق العلاج، والطريقة العملية تكون بالإحساس بتغيّر النبض عند ذكر اسم البلدة أو الحي أو عائلة المعشوق أو نسبه أو حرفته، كما أخبرنا في كتاب القانون: [والحيلة في ذلك أن يذكر أسماء كثيرة تعاد مراراً، ويكون اليد على نبضه، فإذا اختلف بذلك اختلافاً عظيماً وصار شبه المنقطع ثمّ عاود وجرّبت ذلك مراراً علمتَ أنّه اسم المعشوق][٢]، كما يذكر حالة رجل [كان قد بلغ الذبول وجاوزه، وقاسى الأمراض الصعبة المزمنة والحميات الطويلة بسبب ضعف القوّة لشدّة العشق][٣]، وبالرغم من كلّ ذلك عاودته السلامة والقوة لمّا أحسّ بوصل من معشوقه بعد

---

(١) ابن سينا ـ القانون في الطب ـ ج٢ ـ ص ٧٢.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

مطل معاودة في أقصر مدّة. ويعلّق «ابن سينا» على هذه الحالة: [واستدللنا على طاعة الطبيعة للأوهام النفسية][١].

طب التمائم والرقى والتنجيم:

يقول «ابن خلدون»: (إنّا نجد في النوع الإنساني أشخاصاً يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيهم يتميّز بها صنفهم عن سائر الناس، ولا يرجعون في ذلك إلى صناعة.. إنّما نجد مداركهم في ذلك بمقتضى فطرتهم التي فطروا عليها، وذلك مثل العرّافين..][٢]، ولا ريب بأنّ العرّافين كانوا يتمتّعون بنفوذ كبير في المجتمع الجاهلي، والعرّاف هو المنجّم أو الكاهن، ويمكن أن يكون الطبيب[٣]، وقد خاطبه الشاعر المخضرم «عروة بن حزام العذري» (ت ٣٠ هـ) بقوله [من الطويل]:

أقول لعرّاف اليمامة: داوني
فإنّك إن داويتني لطبيبُ

والمعروف أنّ «عروة» من الشعراء المتيّمين، وقد قتلهم الهوى، وقد عشق ابنة عمّه «عفراء» وخطبها من أبيها، فوعده، ثمّ زوّجها لغيره.. فانتابه المرض، وضعف، واضطرب حتّى ظنّوا به الخبل، وأصابه هزال، وظهرت عليه أعراض مرض العشق المعروفة، فرآه عرّاف اليمامة «ابن مكحول»[٤]، فجالسه، وسأله عمّا به، هل هو

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ابن خلدون ـ المقدمة ـ ص ١٠١.

(٣) المعجم الوسيط ـ مطابع دار المعارف بمصر ـ ١٩٧٢ ـ ٢: ١٩٥.

(٤) جرجي زيدان ـ تاريخ آداب اللغة العربية ـ منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٧٨ ـ ١: ١٣٨.

خبل أو جنون؟ فقال له عروة: (هل لك علم بالأوجاع؟ قال: نعم، فأنشأ يقول [من الطويل]:

وما بي من خبل ولا بي جِنَّةٌ
ولكن عمي يا أخيّ كذوبُ

أقول لعرّاف اليمامة: داوني
فإنك إن داويتني لطبيبُ

وأثناء سرد الرواية العاطفية لعروة، يكشف لنا عن المظاهر المرضية التي لازمته منذ ابتُليَ بعشقه الطويل، فهو يخاطب صديقَين له رافقاه قائلاً [من الطويل]:

متى تكشفا عنّي القميص تبيّنا
بي الضرّ من عفراء يا فَتَيانِ

إذ تريا لحماً قليلاً وأعظُماً
رقاقاً وقلباً دائمَ الخَفَقانِ

جعلتُ لعرّاف اليمامة حكمه
وعرّاف حجر إن هما شفياني

يتبيّن لنا وجهاً من طبّ (الحيلة والتجارب) القائم على مقارعة المرض بأي وسيلة أو طريقة كانت لشفائه، فالإنسان العاقل، حسب تعبير «الحارث بن كلدة»: [يعرف ذلك من نفسه ويميز موضع دائه، ويحترز عن الأدواء (م. داء) بحسن سياسته لنفسه][1] ومواجهة المرض

---

(١) ابن أبي أصيبعة ـ عيون الأنباء ـ ص ١٦٢.

تقوم على المبدأ العام الذي رسمه بقوله: [الطفل يُناغى فيداوى، والحبّة تُرقّى فتُحاوى](١)، وهو أبلغ تعبير عن حنكة وحيلة الطبيب الجاهلي في التصدّي لمعالجة المرضى كما يقول عروة [من الطويل]:

فما تركا مِنْ حيلةٍ يعرفانها
ولا شربة إلاّ وقد سقياني

ورشّا على وجهي من الماء ساعة
وقاما مع العوّاد يبتدراني

والعلاج عند «ابن سينا» يكون بتدبير الاجتماع بين المعشوقَيْن [على وجه يحلّه الدين والشريعة](٢)، أي بالزواج إن كان ذلك ممكناً والظروف تسمح بذلك، أو محاولة تشتيت فكر العاشق، مثل إشغاله [في خصومات وأشغال ومنازعات، وبالجملة أمور شاغلة، فإنّ في ذلك ربّما أنساهم ما أدنفهم](٣)، ويذكر طريقة أخرى تقوم على تزويج العاشق بشخص آخر يحلّ محلّ المعشوق الأوّل، مع توجيه [النصيحة والعظة له، والاستهزاء وتعنيفه والتصوير لديه أنّ ما به هو وسوسة وضرب من الجنون](٤)، ويربط ذلك «ابن سينا» بشرط قد يكون مستحيلاً، ألا وهو [أن يكون العاشق من العقلاء](٥)، ولكن أين يوجد ذلك العاشق العاقل، والعشق ـ بحسب التعريف ـ نوع من الجنون والخبل؟! كما يذكر ابن سينا طريقة لطيفة مبتكرة، وهي

---

(١) المصدر السابق.
(٢) ابن سينا ـ القانون في الطب ـ ٢: ٧٢.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.

تسليط النسوة العجائز على العاشق [ليبغضن المعشوق إليه ويذكرن منه أحوالاً قذرة ويحكين له أموراً منفّرة منها][١]، ويبدو أنّ هؤلاء العجائز يلعبن دوراً كبيراً في العلاج، إذ يمكن أن يحاكين صورة المعشوق [بتشبيهات قبيحة، ويمثّلن أعضاء وجهه بمحاكيات مبغضة، ويدمن ذلك ويسهبن فيه][٢]، وذلك حتّى ينفر منها العاشق، وبعد ذلك [يمكنهنّ أن يجتهدنَ في أن ينقلن هوى العاشق إلى غير ذلك المعشوق، بتدريج، ثمّ يقطعن صنيعهنّ قبل تمكّن الهوى الثاني][٣].

كما يورد «ابن سينا» طرقاً أخرى دوائية لعلاج العاشق، ولا ريب أنّ جماع ما ذكره يضعه في مصاف روّاد الطبّ النفساني.

وعودة إلى شاعرنا المتيّم، فلم تُجْدِهِ هذه الطرق العلاجية، إمّا لأنّها لم تكن معروفة في عصره الجاهلي، أو لأنّها لم تطبّق بالشكل الأمثل، أو لأسباب متفرّقة.. وقد يئس العرّافان اللذان قدما لشفائه، وتركاه لشأنه. [من الطويل]:

وقـالا: شـفـاكَ الله واللهِ مـا لَـنـا
بـمـا ضـمِـنت منكَ الضلوع يدانِ

والجدير بالذكر أنّ إيمان بعض عقلاء الجاهلية بكهّانهم لا يصل إلى درجة التسليم المطلق، بل يشوبه بعض ريب يبلغ حدّ التهكّم على الأصنام، حين جاء رجل من بني (ملكان) يتلمّس بركة الصنم (سعد) مع إبله التي نفرت من الصنم، فأخذ حجراً ورمى به

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

الصنم وقال [من الطويل]: ١٧ ·

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا
فشتّتنا سعد فلا نحن من سعدِ
وهل سعد إلاّ صخرة بتنوفة
من الأرض لا يدعو لغيّ ولا رشدِ(١)

آخر الدواء الكيّ:

كان الجاهليون يداوون - إذا لم ينجح في المريض علاج - بالكي، ومنه المثل السائد (آخر الدواء الكيّ)، والكيّ حرق بقعة صغيرة من الجسم بوساطة حديدة محميّة بالنار، بعدئذٍ يترك مكان الكيّ مفتوحاً، بأن يوضع فيه حبّة حمّص مثلاً، وكانوا يعتقدون أنّ أسباب المرض تخرج من الصديد الذي يخرج من مكان الكيّ. وقد أكثر العرب الجاهليون من استعمال الكيّ كواسطة علاجية، وغالوا في استخدامها، ولا سيّما من الأعراب سكّان البادية، حيث يندر الأطباء والأدوية، وذلك لأسباب متعدّدة، في حالات عدم توفّر الدواء الناجع أو فشله، فمن الطبيعي أن يسعى المريض أو ذووه لتقبّل أي وسيلة كانت، حتّى لو كانت مؤلمة، كالكيّ بالنار، بغية التخلّص من المرض، حتّى وإن كانت النتائج غير مضمونة، كما تعرّض لها شاعرنا «عروة» [من الطويل]:

فوا كبداً أمست رفاتاً كأنّما
يلذعها بالموقدات طبيبُ

---

(١) شوكت شطي - رسالة في تاريخ الطب - مطبعة جامعة دمشق - دمشق - ١٣٨٠ هـ/ ١٩٦٠م - ص ١٦.

كما امتدّ الكيّ إلى الحيوان أيضاً، ومنها كيّ السليم من الإبل، ليبرأ الجرب منها، وكانوا يزعمون أنّ الإبل إذا أصابها عُرّ (وهو الجرب) فكووا صحيحاً إلى جانبه ليشمّ رائحته برئ، وربّما زعموا أنّه يؤمن معه العدوى[1]، قال «النابغة الذبياني» [من الطويل]:

وكلّفني ذنب امرئ وتركته

كذي العُرّ يُكوى غيره وهو راتعُ

ولا ريب بأنّ الكيّ كان وسيلة علاجية شائعة ومعترف بها، وقد اهتمّ بها أطباء الحضارة الإسلامية أيضاً، فالطبيب الجرّاح الشهير «أبو القاسم الزهراوي» (ت ٤٠٤ هـ/١٠١٣م) جعل العلاج بالكيّ في مقدّمة أبواب المقالة (الثلاثين) التي خصّصها للجراحة من كتابه المعروف (التيسير في المداواة والتدبير) وقد ذكر ستة وخمسين استطباباً متنوّعاً للكيّ لمعالجة مختلف الأمراض [من الرأس حتّى القدم] مثل: الصداع، ووجع الأسنان والحلق، والصرع، ومرض الشقيقة، والفالج، والسعال، والاستسقاء، وغيرها.. وقد اعتنى بتصوير الأدوات الحديدية المستخدمة في الكي بأشكالها وصورها المختلفة، وشرح بشكل مفصل الطريقة العملية للكيّ ومناطق الكيّ في الجسم، وحذّر في ذات الوقت من بعض الاعتقادات السائدة، التي تعتمل في نفوس العامّة من أنّ الكي هو آخر العهد بالدواء قائلاً:

[ولا يقع ببالكم يا بنيّ ما يتوهّمه العامّة وجهّال الأطباء أنّ الكيّ الذي يبرئ من مرض ما لا يكون لذلك عودة أبداً، وتجعلوه

---

(١) القلقشندي - صبح الأعشى في كتابة الإنشاء - السفر الأول (سلسلة المختار من التراث العربي: ١٧) - دمشق - منشورات وزارة الثقافة - ١٩٨١ - ص ٥١٧.

لزاماً، وليس الأمر كما ظنّوا. . إلاّ أنّ الكيّ يفضل على الدواء بسرعة نحجه وقوّة فعله وشدّة سلطانه، «وقد يمكن أن يعود المرض وقعاً ما من الزمان]^(١)، أي إنّ الشفاء قد يحدث بعقبه نكس، ويعود المرض من جديد، ويشرح مفهوم (الكيّ آخر الطب) قائلاً:

[وأما قول العامّة أيضاً إنّ الكي آخر الطب، فهو قول صواب لا إلى ما يذهبون هم لأنّهم يعتقدون أن لا علاج ينفع بدواء ولا بغيره بعد وقوع الكيّ، والأمر بخلاف ذلك، وإنّما معنى أنّ الكيّ آخر الطب إنّما هو أنّنا متى استعملنا ضروب العلاج في مرض من الأمراض ولم تنجع تلك الأدوية، ثمّ ستعملنا آخر شيء الكيّ فينجع، فمن ها هنا وقع أنّ الكيّ آخر الطب، لا على المعنى الذي ذهب إليه العامّة وكثير من جهّال الأطبّاء]^(٢).

أوابد العرب الطبية:

هي مفاهيم كانت سائدة عند عرب الجاهلية، ولعلّ بعضها ما يزال يحيا حتّى عصرنا، مثل: رمي سنّ لصبي المثغر في الشمس، وهذه المفاهيم لا تعتمد على أساس علمي، ولكنّها تؤيّد بأخبار تنمّ عن ذكاء من حدثت معهم، كما تنمّ عن براعة رواتها، إذا افترضنا اختلاف تلك الأخبار، وهي تدخل في باب الطب الوقائي النفسي، نذكر بعضاً منها:

إنّ الغلام إذا سقطت له سنّ من الأسنان اللبنية، أخذها بين

---

(١) أبو القاسم ـ في الجراحة والآلات (بالإنجليزية) ـ تحقيق سبينك ولويس ـ مؤسسة الويلكام لتاريخ الطب ـ لندن ـ ١٩٧٣ ـ ص ١٣.

(٢) المصدر السابق ـ ص ١٣ ـ ١٥.

السبّابة والإبهام، واستقبل الشمس إذا طلعت، وقذف بها منادياً: يا شمس أبدليني بسنّ أحسن منها. زعماً منهم أنّه إذا لم يفعل ذلك ربّما نبتت سنّه الدائمة بشكل غير صحيح أو سيّئة التكوين(١).

قال طرفة بن العبد [من الرمل]:

بـدلـتـه الـشـمـس مـن مـنـبـتـه

بـدداً أبـيـض مـصـقـول الأشـرْ

وكانوا يرون أنّ الفتى إذا ظهر فيه الحلى بشفته (بثور تنبت بالشفة) حمل منخلاً على رأسه، ونادى بين بيوت الحي (الحلى. الحلى)، فتلقي له النساء كسر خبز وأقطاع التمر واللحم في المنخل، ثمّ يلقي بها للكلاب، فتأكلها، فيبرأ من المرض(٢).

وكانوا يعلّقون (كعب الأرنب) على أنفسهم زاعمين أنّه وقاية من العين والسحر، قائلين: إنّ الجن تنفر من الأرنب لكونها تحيض، قال الشاعر [من الطويل]:

ولا ينفع التعشير إن حُمَّ واقعٌ

ولا ودع يغني ولا كعب أرنبِ

وكذلك اعتقدوا أنّ الرجل إذا خدرت رجله فذكر أحبّ الناس إليه ذهب عنه الخدر، قالت امرأة من كلاب [من الطويل]:

---

(١) شوكت الشطي ـ السفر الأول في تاريخ الطب ـ الجامعة السورية ـ دمشق ـ ١٩٥٦ ـ ص ١١٤.

(٢) المصدر السابق ـ ص ١١٥.

إذا خدرت رجلي ذكرت ابن مصعبٍ

فإن قلتُ عبدَ الله أجلى فتورها(١)

وكانوا يعتقدون أنّ الرجل إذا طَرَّف، (تحريك الجفن أو العين من ضربة أو غيرها)(٢) عين صاحبه فهاجت فمسح الطارف عين المطروف سبع مرّات ويقول في كلّ مرة: بإحدى جاءت من المدينة، باثنتين جاءتا من المدينة، بثلاث جئنَ من المدينة.. إلى سبع، سكن هيجانها(٣).

ومن أوابدهم السائدة أنّه إذا لُسِع فيهم إنسان، علّقوا عليه الحُلي من الأساور وغيرها، ويتركونه سبعة أيّام، ويمنع من النوم فيُفيق، قال النابغة الذبياني [من الطويل]:

يُسَهَّدُ من وقت العشاء سليمها

لحلي النساء في يديه قعاقعُ(٤)

وكانوا يزعمون أنّ الصبي إذا خيف عليه نظرة أو خطفة، فعُلّق عليه سنّ الثعلب وسنّ الهرّة سلم من آفته، وأنّ الجنيّة إذا أرادته لم تقدر عليه، قالت امرأة تصف ولداً [من الرمل]:

كانت عليه سِنَّةٌ من هرّةٍ

وثعلبٍ والحيض حيض السّمرةِ

---

(١) القلقشندي - صبح الأعشى في كتابة الإنشاء - السفر الأول - ص ٥١٦ - ٥١٨.

(٢) المعجم الوسيط - ٢: ٥٥٥.

(٣) القلقشندي - صبح الأعشى في كتابة الإنشاء - السفر الأول - ص ٥١٧.

(٤) المصدر السابق - ص ٥١٧.

وكانوا يعتقدون أنّ المرأة المقلاتَ (وهي التي لا يعيش لها ولد)[١] إذا وطئت قتيلاً شريفاً بقي أولادها، قال بشر بن أبي خازم [من الطويل]:

يظلّ مقاليت النساء يطأنه

يَقلن ألا يلقى على المرء مئزرُ[٢]

كما اعتقدوا أنّ الرجل إذا أراد دخول قرية فخاف وباءها فوقف على بابها قبل أن يدخلها فعشّر كما ينهق الحمار ثمّ دخلها لم يصبهُ وباؤها، قال عروة بن الورد:

لعمري لئن عَشّرتُ من خشية الردى

نُهاق حميرٍ إنّني لجزوعُ[٣]

الأمراض:

لا ريب في أنّ عرب الجاهلية كانوا يعرفون عوارض للأمراض لا يبرأ صاحبها، كالصداع الدائم الذي لا يُعرَف له سبب، فقد قال «عنترة» في مجال الفخر والحماسة مع التهكّم [من الوافر]:

وسيفي كان في الهيجا طبيباً

يداوي رأس مَنْ يشكو الصّداعا

وقد عرفوا (الزكام)، والشاعر الجاهلي «علقمة الفحل» لم يمنعه زكامه من استنشاق عبير محبوبته لشدّة طيبه وذكائه، ويقول في ذلك:

---

(١) المصدر السابق ـ ص ٥١٥ ـ ٥١٦.

(٢) المصدر السابق ـ ص ٥١٧.

(٣) المصدر السابق ـ ص ٥١٩.

يحملنَ أترجّة يضجّ العبير بها
كأن تطيابها في الأنف مشمومُ
كأنّ فارة مسك في مفارقها
للباسط المتعاطي وهو مزكومُ[١]

والجدير بالذكر في أنّ الجاهليين عنوا بالجراح وتضميدها ومداواتها لكثرة حاجتهم إلى ذلك في الحروب، وعرفوا عدداً من الأمراض، منها:

الحمّى: عِلّة يستحر بها الجسم[٢]. **وحمّى الغبّ**: التي تصيب المريض يوماً وتتركه يوماً. **وحمّى الربع**: التي تصيب ربعاً تصيب المريض يوماً وتتركه يومين ثمّ تعود إليه في اليوم الرابع. وعرفوا **الزحير أو الزحار**: وهو استطلاق البطن بشدّة وتقطيع في البطن.

والأسر: احتباس البول. **والحصر**: احتباس البطن والإمساك الشديد. **والسلّ أو السلال**: وهو قرحة تحدث في الرئة. وكذلك **الدبلة**: دمّل يظهر في الجوف فيقتل صاحبه غالباً[٣]، **واليرقان**: وهو داء يصفرّ منه المريض[٤].

---

(١) الأعلم الشنتمري ـ أشعار الشعراء الستة الجاهليين ـ منشورات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ ١٩٩٧ ـ ١: ١٥٠.

(٢) المعجم الوسيط ـ ١: ٢٠٠، وقد اعتمدنا في تحقيق الأمراض، انظر: النويري ـ نهاية الأرب في فنون الأدب ـ القاهرة ـ مطبعة دار الكتب المصرية ـ ١٣٥٦ هـ/ ١٩٣٧م ـ ٣: ٣٣٩ ـ ٣٤٠.

(٣) المعجم الوسيط ـ ١: ٢٧٠.

(٤) النويري ـ نهاية الأرب ـ ٣: ٣٣٩ ـ ٣٤٠.

وعرف الجاهليون من الأمراض أيضاً: الكباد، وهو وجع الكبد من كسل فيه أو قرحة، فقال مجنون ليلى [من الطويل]:

ولي كبد مقروحة من يبيعني
بها كبداً ليست بذات قروحِ
أباها عليّ الناس لا يشترونها
ومن يشتري ذا علّة بصحيحِ

والقلاب: داء القلب، **والقلبة**: داء القلب وتعب، والمصاب به مقلوب ومفؤود. **والممعود**: هو الذي فسدت معدته فلم تستمرئ الطعام[1].

كما ذكروا (المسواك) لتنظيف الأسنان، ويقول «امرؤ القيس» في معلّقته المشهورة [من الطويل]:

وتعطو برخص غير شثن كأنّه
أساريع ظبي أو مساويك إسحلِ[2]

وقد ذكر «الجاحظ» خبر أسرة تتوارث دواءً لعضّة الكلب الكَلِب، وتتعلّق بـ«الأسود بن أوس بن الحمرة» الذي أتى «النجاشي» ملك الحبشة، ومعه امرأته، وهي بنت «الحارث أحد بني عاصم بن عبيد بن ثعلبة»، فقال له «النجاشي»: لأعطينّك شيئاً من داء الكلب. فأقبل حتّى إذا كان ببعض الطريق أتاه الموت، فأوصى امرأته أن تتزوّج ابنه «قدامة بن الأسود» وأن تعلّمه دواء الكلب ولا يخرج ذلك

---

(١) النويري - نهاية الأرب - ٣: ٣٣٩ - ٣٤٠.

(٢) الأعلم الشنتمري - أشعار الشعراء - ١: ٣٥.

إلى أحد، فتزوّجته نكاح مقت[١]، وعلّمته دواء الكلب، وظلّ الدواء يُتداول بين أفراد تلك الأسرة جيلاً بعد جيل[٢]. كما ذكر أنّ «زياد ابن معاوية» لمّا ولّي البصرة من قبل «معاوية بن أبي سفيان» كتب دواء الكلب وعلّقه على باب المسجد الأعظم بالبصرة[٣].

الأطباء العرب في الجاهلية:

وصف الطبيب الفيلسوف «إسحق الرهاوي» (المتوفى في القرن الرابع الهجري) صناعة الطبّ وشخصيّة الطبيب في المجتمع قائلاً:

[ولما كانت صناعة الطب أجلّ المهن قدراً في نفع الإنسان، وأهلها السالكون طرقها بالحقيقة هم عند الناس في مرتبة شريفة عالية، يكرمونهم ويجلّونهم، وكانت هذه الصناعة مخصوصة بأقوام خواصّ، فكانت بذلك مصونة لا يمكن كلّ من التمسها الدخول فيها، فلمّا وسع لكلّ من طلبها الدخول فيها، وكان الناس بطبعهم يحبّون نيل المراتب السنية والتشويق والتبجيل - ولم يكن ذلك يوجد لمهنة من المهن فوق صناعة الطب - طلبها غير أهلها حسداً لهم، ولما لم ينالوا حقيقتها لينالوا بها العلوّ والمنزلة الرفيعة لسوء أمزجتهم وغلظ قرائحهم، عدلوا إلى الحيلة على الناس بضروب من الخدع والدهمة ستروها بما أظهروه من الزيّ واللباس والتصنّع

---

(١) نكاح المقت: أن يتزوّج الرجل امرأة أبيه بعده. وقد نصّ القرآن الكريم على تحريمه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

(٢) الجاحظ - من كتاب الحيوان - السفر الثاني (سلسلة من التراث العربي: ١٢) - دمشق - مطبعة وزارة الثقافة - ١٩٧٩ - ص ٢٦٧ - ٢٦٨.

(٣) المصدر السابق - ٢: ٢٧٢.

لمشابهة أهل الصناعة بالحقيقة في ألفاظهم وكثير من أمورهم][1].

ومن أشهر الأطباء في العصر الجاهلي:

الحارث بن كلدة الثقفي: وهو من أهل الطائف، رحل إلى فارس وتعلّم الطبّ وتمرّن هناك، وعرف الداء والدواء، وظلّ حياً في أيّام الرسول ﷺ وأيّام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية، وكانت له معالجات كثيرة ومعروفة بما كانت العرب تعتاده، وتحتاج إليه من المداواة، وله كلام مستحسن فيما يتعلّق بالطبّ وغيره[2]. منها محاورته مع كسرى أنو شروان كما مرّ معنا. ويمثّل «الحارث ابن كلدة» الطبيب الذي استطاع التلازم مع بيئته المحلية، وعرف أمراضها المستوطنة وطرق الوقاية والشفاء منها بالاعتماد على الأعشاب والأدوية المتوفّرة، ونلاحظ أنّه لم يتأثّر بمبادئ الطب اليوناني في طرق معالجاته، وإن كان لا يستبعد اطّلاعه عليها، من خلال سفره لبلاد فارس، وقد أكسبته معارفه الواسعة من خلال اطّلاعه المستمر وتجواله في أنحاء الجزيرة العربية (مثل اليمن) فأنشأ نهجاً طبياً دعاه المؤرّخون (طب الحيلة أو التجارب) أو الطب المزاجي، وذلك لأنّه يخلو من التقسيم المنطقي الفلسفي المميز للطب اليوناني القديم، ومن المؤكّد أنّ هذا الرأي يجانبه الصواب، وهو تصنيف سطحي متهافت أثبتت الأيام خطأه، كالخلاف بين (العلمي) و(اللاعلمي) وتبقى الإشكالية في التحديد الصحيح والسليم لماهية هذه المصطلحات والتعريفات والتقسيمات الملفاة على

---

(١) إسحق بن علي الرهاوي - أدب الطبيب - منشورات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية - ١٤١٢ هـ/١٩٩٢م - ص ٢٦٨ - ٢٦٩.

(٢) ابن أبي أصيبعة - عيون الأنباء - ص ص ١٦٠ - ١٦٧.

عواهنها، فلو اعتبرنا الأمور بعواقبها ونتائجها هي المحك الحقيقي، فلا ريب بأنّ طرق ومعالجات «الحارث بن كلدة» المزاجية كانت مفيدة في زمانها ومكانها، وقد أصابه النجاح، ولا بدّ من مراعاة وإدراك البعد التاريخي ووضعه في مكانه الصحيح.

النضر بن الحارث بن كلدة الثقفي:

يعتبر فيلسوفاً أكثر منه طبيباً، فالمؤرّخ «ابن أبي أصيبعة» لا يذكر عنه أي معالجة طبيّة أو أقوال أو وصايا، وقد صنّفه في عداد الأطباء لأنّه [تعلّم من أبيه أيضاً، ما كان يعلمه من الطب وغيره][1]، ومن الطبيعي أنّه سافر كأبيه «الحارث» وجال في البلاد، واختلط مع الأحبار والكهنة والأفاضل والعلماء، وقد توصّل «الحارث» بجدّه وتحصيله إلى درجة متقدّمة في العلوم، ووصفه «ابن أبي أصيبعة» بقوله: [واشتغل وحصّل من العلوم القديمة أشياء جليلة القدر، واطّلع على علوم الفلسفة وأجزاء الحكمة][2]، فمصادره المعرفية هي:

١ ـ تجواله في البلدان والأمصار، ومعاشرته لأهل العلم والحكمة بمكّة وغيرها.

٢ ـ اطّلاعه على العلوم القديمة أو علوم الأوائل، وتشمل الحكمة والفلسفة وعلم الهيئة وغيرها.. ولكن المصادر لم تكشف المزيد من التفاصيل حول المؤثّرات الثقافية التي تأثّر بها.

---

(١) ابن أبي أصيبعة ـ عيون الأنباء ـ ص ١٦٧.

(٢) المصدر السابق.

ونتيجة لما اكتسب من العلوم الموسوعية فقد داخله الوهم وكبرياء الجاهلية بقدراته المعرفية واصطدم مع تباشير الدين الإسلامي الجديد، و[لم يعلم بشقاوته أنّ النبوّة أعظم والسعادة أقدر والعناية الإلهية أجلّ والأمور المقدّرة أثبت][1]، وقد لازمه الاعتقاد بأنّه سيبقي الأمور على حالها وأنّه قادر بما اكتسب من علوم ومعارف أن يتصدّى للدين الإسلامي الوليد، ويبطل تعاليمه التي أنزلت للناس كافّة ولبناء مجتمع جديد موحّد يختلف كلياً عن العصر الجاهلي بمقوّماته وأسسه، وإثبات المرجعية الإلهية التوحيدية، وهكذا قاوم التعاليم الإسلامية بكلّ قواه، وامتدّ أذاه للرسول ﷺ وهاجمه هجوماً مرّاً، وكان في مقدّمة الذين حملوا السلاح مع المشركين الكُثُر ضدّ المسلمين القلائل في يوم بدر، ولكنّ نهايته كانت محتومة، فقد تمّ أسره وضُرِبَ عنقه جزاء، وهو يمثّل غطرسة القوّة وجبروتها، فلم يستطع رغم ملكاته العقلية أن يستوعب بأنّ مشروع مجتمعه الجاهلي بكلّ مقوّماته قد شارف على الانهيار وأصبح هيكلاً أجوفَ خالياً من أي قيمة إنسانية حقيقية، ولم تدخل الهداية إلى صدره، وصمّ أذنيه مثل أترابه من المشركين عن سماع أو استيعاب أي عبارات أو كلمات تخالف معتقداته الوثنية.

وقد حاول «ابن أبي أصيبعة» عن طريق حكاية يونانية ذكرها «أفلاطون» في كتابه (النواميس)، إيضاح التعارض بين الفلسفة والنبوّة، وتدور الأحداث حول «مارينون» أحد ملوك اليونان، وقد جابهته ظروف سياسية صعبة تهدّد كرسي عرشه، وظهرت ضدّه معارضة قويّة في خروج بعض الفئات عن طاعته رغم سلطانه الواسع

---

(١) المصدر السابق.

وقسوته، فقد أدرك بأنّ مقدّرات الأمور تفلت زمامها من يده، فبدأ يقلّب أمره ويستشير فلاسفة عصره علّه يعرف مكمن العلّة والخطأ، وبعد بحث وتمحيص خلصوا إلى أنّ الأمر لا يتعلّق بشخصه كونه يمثّل رأس النظام، فهو يتمتّع بقدرات جسدية كبيرة وشخصية قوية وحاشية رهن أمره وطوع بنانه وقبضته الحديدية تصل إلى أي شخص، ولا ريب بأنّ هذا أقصى ما يتمنّاه أي شعب في الحاكم في صفات شخصية وخلقية، وبالنسبة لمستشاريه من الفلاسفة فقد استطاعوا أن يدلوه على التجاوزات والإفراط وسوء النظام أي كلّ ما يتعلّق بأغلاط وسيّئات يمكن رؤيتها والاعتذار عنها، ولكن «مارينون» أدرك أنّ مجرّد الاعتذار عن الخطأ لن يبرّره ولا يكسبه الشرعية، بل إنّ قلوب الناس قد تغيّرت ضدّه، وقرّر الفلاسفة أن يبحثوا عن الحقيقة عند النبي [لم تحدّد الحكاية اسمه وصفته] وذلك بحسب رأيهم لأنّه [ما يأتي به لا يصل إليه الحكيم بحكمته ولا العالِم بعلمه][1].

وقد أشاد «مارينون» حضارة (القوّة)، فأعلى البناء بهمّة لا تعرف الكلل، وفي غمرة المشاغل غفل عن البناء الأخلاقي والقدوة المثلى الحسنة التي كانت تقابل بالسخرية واللامبالاة من رجال حاشيته، ولم يعرها الملك «مارينون» الانتباه اللازم معتقداً أنّ الزمن قد تجاوز هذه الترهات.

وخرج الفلاسفة يلتمسون النبي ووصاياه وقد أصبحت الفلسفة (قاصرة) تستمدّ من النبوّة استكمال نواقصها وتصحيح مسارها. وقد أجابهم (النبي) بكلمات معبّرة عندما شرح أزمة الملك «مارينون»: [كان بسبيله سبيل من وكل بجزء من بستان كثير الزهر والثمار فصرف

---

(١) المصدر السابق.

إليه أكثر من ماء ذلك البستان؟ وظنّ أنه أصلح فكان ما زاد منه على حصّته، ناقصاً من طعوم ثماره وروائح أزهاره، وسبباً لجفاف أشجار جزء جزء منه وتصويح نبته][1].

إنّها الأزمة والفراغ الروحي، وقد بدت مظاهره تتجلّى وكان تفكير «مارينون» أنّه [سلك بفكره بين المحسوسات الجزئية والمعقولات الكلية، واستخلص منها علماً وقف به على طبائع المحسوسات وما قرب منها، فظنّ أنّه يبلغ به علّة ومعلول][2].

إنّها الحاجة للاعتدال، وأنّى ذلك لطباع تعوّدت قراءة وجه وحيد للحقيقة، لقد خاطبه (النبي) قائلاً: [إنّك لا تصل بهذا الطريق][3]، وكان لبّ المشكلة من خلال الترف الشديد والسفه في الإنفاق، سادت ليونة العيش وظهرت المظالم واختفى العدل والكفاية وكانت النهاية أن [تولى الأمر كهل من أهل بيت «مارينون»، فردّ المظالم وخلص الأرواح مما غشيها من لبوسات الترفّه والبطالة][4].

ومن الذين لهم شهرة في صناعة الطب في الجاهلية «**الشمردل ابن قباب الكعبي**»[5]، ومن الذين مارسوا الطب أيضاً في الجاهلية «**ضماد بن ثعلبة الأزدي**» من أزد شنوءة، وقد أدرك الرسول ﷺ، وله ذكر في حديث نبوي شريف أخرجه «مسلم» وهو: (عن ابن

---

(١) المصدر السابق ـ ص ١٦٨.

(٢) المصدر السابق ـ ص ١٦٨ ـ ١٦٩.

(٣) المصدر السابق ـ ص ١٦٩.

(٤) المصدر السابق.

(٥) ابن حجر العسقلاني ـ الإصابة في تمييز الصحابة ـ مطبعة دار السعادة بمصر ـ ١٣٢٨ هـ ـ طبعة مصورة عن دار صادر ـ بيروت ـ ٢: ١٥٦.

عبّاس أنّ رجلاً من أزد شنوءة كان يقال له ضماد كان يعالج الأرواح(١)، فقدم مكّة، فسمعهم يقولون إنّ النبي ﷺ ساحر وكاهن ومجنون، فقال: لو أتيت هذا الرجل لعلّ الله أن يعافيه على يدي، فلقيته، فقلتُ: يا محمّد إنّ الله يشفي على يدي، فقال النبي ﷺ: الحمد لله نحمده ونستعينه ونؤمن به ونتوكّل عليه، من يهده الله فلا مضلّ له، وإنّ محمداً عبده ورسوله، أمّا بعد: أعد عليّ قولك، فأعاد النبي ﷺ قوله ثلاثاً، فقال: والله لقد سمعت قول الكهنة وسمعت قول السحرة وسمعت قول الشعراء، فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات، ولقد بلغني قاموس البحر فمدّ يدك فبايعني، فمدّ النبي ﷺ يده فبايعه، فقال النبي ﷺ: وعلى قومك، فقال: وعلى قومي)(٢).

ومن أطباء الجاهلية «ابن أبي رمثة التميمي»، وكان يجيد صناعة الجراحة، وقد برع فيها ولكنّه كان قليل العلم بالتطبيب(٣)، و«ابن حزيم» وهو رجل من (تيم الرباب)، ويضربون به المثل بالحذق في الطب، فيقولون لمن أرادوا وصفه بذلك (أطبّ من ابن حزيم) وفيه يقول أوس بن حجر [من الطويل]:

فهل لكم فيها إليّ فإنّني

بصير بما أعيا النطاسي حزيما(٤)

---

(١) أي أنه كان يرقي به الرقية، وهي العوذة التي يرقى بها صاحب الآفة.

(٢) رواه مسلم في كتاب الجمعة ـ باب (تخفيف الصلاة والخطبة) ـ الحديث رقم (٤٦).

(٣) ابن أبي أصيبعة ـ عيون الأنباء ـ ص ١٧٠ ـ ١٧١.

(٤) جرجي زيدان ـ تاريخ آداب اللغة العربية ـ ص ١٧١.

وروى «الخلال»[١]: أنّ «الشفاء بنت عبد الله» كانت ترقي في الجاهلية من النملة[٢].

وكثيراً ما اختلطت الأمور بالشعوذة، والسحر والطلاسم التي اعتمد عليها عرب الجاهلية في طرد الأرواح الشريرة في مقاومة (الإصابة بالعين) فكان الجاهليون يعتقدون أنّ الكثير من الأمراض سببها أرواح شريرة يتمّ الشفاء منها عن طريق الكهّان وأصحاب القيافة والمتفرّسين والعرّافين والمشعوذين وزاجري الطير والمنجّمين والسحرة، من دون واسطة، أو بواسطة الأحجار والخرزات وبعض الأوهام، فقد زعموا مثلاً أنّ بين طلوع النجوم وغروبها أمراضاً وأوبئة في الناس والإبل، وكانوا يعتقدون بتأثيرات النجوم من خير وشرّ، كما كان الجاهليون يسألون المنجّمين لاعتقادهم بأنّهم يعرفون الغيب، كما كانوا يعتقدون أنّ السحر والعزائم والرقى والعقد تؤثّر على الأبدان فتمرضها أو تميتها.

(١) ابن قيم الجوزية ـ الطب النبوي ـ القاهرة ـ دار التراث ـ ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨م ـ ص ٢٤٩.

(٢) النملة: قروح تخرج من الجنبين، وصاحبه يحس في مكانه كأن نملة تدب عليه وتعضه (المصدر السابق).

استعراض مخطوط

(رسالة في بيان الحاجة إلى الطب والأطباء ووصاياهم)

يتقسم هذا المخطوط إلى ثلاثة فصول رئيسية:

الفصل الأول: في بيان شرف هذا العلم ووجه الحاجة إليه بالمعقول والمنقول.

الفصل الثاني: فيما يحتاج إليه الطبيب من العلوم.

الفصل الثالث: فيما يحتاج إليه الطبيب من الأخلاق والصفات.

وسنقوم باستعراض الفصول الثلاثة على التوالي.

الفصل الأول:

تقوم مهمّة المؤرّخ العلمي في البحث على الإسهامات الدائمة لعلوم الأقدمين في سبيل تفوّقنا الراهن، ولكن البعض يوجّهون جهودهم لبيان التكامل التاريخي لذلك العلم مع عصره التاريخي الذي نشأ فيه، وهي ليست المهمّة الكبرى للمؤرّخ العلمي بأي حال، فإذا كانت العلوم تشتمل على مجموعة من العقائد المتناقضة والمتناحرة مع العقائد التي نؤمن بها اليوم، وإذا كان البعض يتجرّأ على وصف تلك المعتقدات بأنها أساطير محضة ويشمخ برأسه عالياً، فسنخلص إلى نتيجة أنّ المناهج والدواعي التي قادتنا إلى تلك الأساطير ودعتنا إلى تصديقها، لا تختلف عن المناهج والأسباب التي تقودنا الآن، ولن ننسى المقولة السائدة (الظروف مختلفة وأبرزها أيديولوجية) من أنّ التطوّر يؤدّي بالحتم إلى التقدّم، هذا الرأي قد لا يجد له أنصاراً كُثُراً في المستقبل.

يقول «كارل بوبر»: (إنّ المعرفة العلمية ليست يقينية، وإنّ العلم بالشيء سواء كان طبيعياً أو مجتمعياً ليس سباقاً من المقولات الأكيدة أو المتقنة الصياغة، ولا هو يتقدّم باطّراد وانتظام نحو غاية معلومة نهائية، وإنّ العالِم لا يبحث عن الحقيقة ولا يستطيع الوصول إليها ولا هو يدّعي ذلك، فالجهد المبذول في هذا السبيل إنّما يُبذل من أجل الوصول إلى معرفة ما نسبيّة ومؤقّتة دائماً)(١).

ولا بدّ من عرض موازنة بين المفهوم العام للعلم القديم والعلم الحديث، من حيث المنهج والموضوع والغاية، فالعلم القديم كان منهجه منطقياً فلسفياً بوسائل وطرق يونانية، وموضوعه العام دراسة عوارض الحركة والتغيّر والنقلة، أمّا غايته الظاهرة المعلنة فهي تطهير النفس بالمعرفة والسمو بها إلى عالم العقول المفارقة والمبادئ العالية.

والعلم الحديث منهجه كما هو معروف تجريبي، أمّا موضوعه فهو دراسة ظواهر الأشياء واكتشاف القوانين وشبكة العلاقات التي تربط بينهما. وتبقى غايته هي تسخير المعرفة المكتسبة لأغراض الحياة ولزيادة رفاهية الإنسان.

والملاحظ أنّ «الشيرازي» يركّز على الغاية النفعية لعلم الطب بداية وهي:

١ ـ سلامة النفس البشرية من خلال حفظ الصحة العامة، لأنّ [المبتلى بالآلام والأسقام قلّما يتفرّغ لتكميل المعارف].

---

(١) مجلة الوحدة ـ العدد (١٠١ ـ ١٠٢)، ص ٢٠٨.

٢ - إنّ دراسة تشريح الجسم الإنساني تؤدّي إلى الاعتراف بالخالق الحكيم والإيمان بربوبيّته، فالوصول إلى الاستدلال أو الحدس عن طريق اليقين والبداهة، ويصف «الشيرازي» الاستدلال (الطبي) للوصول إلى الحقيقة الإلهية وذلك بالاطلاع التفصيلي على تركيب البدن الإنساني [فلا يزال (الطبيب) ينتقل كلّ لحظة من برهان إلى برهان وكلّ لمحة من مشاهدة إحساناً بعد إحسان] وهذا لا محالة يقود إلى الإدراك، وهي الغاية القصوى في سعادة البدن والنفس.

٣ - اعتبر «الشيرازي» أنّ الطبيب هو [نائب لأفضل الواهبين وهو الله تعالى] لأنّه كلما كان الأصل أفضل كان النائب أفضل. فمعطي الصحة في الأصل هو الله تعالى، وأفضل عطاياه هو الصحة. وهناك أمر آخر يتعلّق بمعرفة حقائق الأشياء، فلاكتساب علم الطب يقتضى تعلّم علوم أخرى ممهدة وأساسية، منها [علم الهيئة، والحساب، والمنطق، وغيره..] وهذا يؤدّي لفتح مجالات معرفية جديدة أمام العقل وإدراك [عجائب قدرة الله تعالى في تركيب هذا العالم ويعرف أسباب طبائع النبات والحيوان] والفائدة الأخيرة التي يجنبها الطبيب هي [تحصيل المال والجاه] وهكذا تجتمع عنده [المصالح والمنافع].

كما يذكر «الشيرازي» أنّ الوسائل التشخيصية القائمة على القياس المنطقي الفلسفي اليوناني والتجربة العملية التي تستند على هذا القياس الصوري لم تفلح دائماً، وأدرك نقاط الضعف بتفكيره

الثاقب، فأعلن أنّ معرفة سبب الانحراف المرضي عن الاعتدال الطبيعي الحقيقي في الجسم البشري لا سبيل إليه إلاّ بالظنّ والتخمين، لقد بدأت تهتزّ قواعد الطب الأبقراطي الجالينوسي، وكان عليه أن يمضي قُدُماً في مناقشته ورفضه لهذه المبادئ اليونانية غير الوافية، في عصر بدأ معظم المؤلّفين بالتشكيك والنقد، فابن خلدون ينتقد المؤرّخ «المسعودي» لتعليلاته وآرائه في كثير من الأمور، ومنها ما أورده في شرح الطباع الشخصية والوراثية للزنوج، ويعلن بأنّ المسعودي لم يأتِ بشيء أصيل من عنده، وكل ما فعله أنّه نقل حرفياً آراء «جالينوس» اليوناني و«يعقوب بن إسحق الكندي» (ت ٢٥٢ هـ/٨٦٧ م) الطبيب والفيلسوف المعروف[1].

ولكن «الشيرازي» يجد حلاً لهذا المأزق، فيذكر بأنّ خبرة الطبيب المكتسبة قد تعوّض النقص الحاصل والثغرات التي لم تسدّها طرق المنهج التقليدية، فيوصي بأنّه [على الطبيب أن يكثر مشاهدته للمرضى وأن يكتب ما يشاهد من الأحوال العجيبة ليتفكّر فيها ويبحث عن أسبابها حتّى ينضمّ إلى ما عرفه من القوانين القياسية وما شاهده من الأمور التجريبية].

ويمكن القول بأنّ الأطباء العرب لم يخرجوا عن إيمانهم بالكليات الطبيعية كما تصوّرها الفلاسفة اليونان، ومع هذا استقلّوا عنهم بخبرتهم وتجاربهم وآرائهم مع بقائهم داخل الإطار الفلسفي العام الذي وضعه أطباء اليونان.

---

(١) ابن خلدون ـ المقدمة ـ ص ٨٤.

الفصل الثاني:

تطرّق فيه «الشيرازي» إلى جملة العلوم التي لا بدّ للطبيب أن يتقنها، وهي على الترتيب: علم المنطق، العلم الطبيعي، علم الهندسة، علم الهيئة (الفلك)، علم أحكام النجوم، علم الألحان، علم الكهانة والزجر.

إنّ الإنجازات الرائعة التي حققها الأطباء العرب القدامى، أمثال «الرازي» و«ابن سينا» و«الزهراوي» و«علي بن العباس» جعلت الصناعة الطبية تخطو خطوات هامة، ولكنّها لم تبدّل من الرؤية الفلسفية السائدة، ولم يكن في الواقع يُنتظَر منها أن تفعل، فالتقدّم الذي حصل في المجال الطبي لم يتجاوز الحدود النظرية المعرفية اليونانية المهيمنة، فما كان يهمّ الأطبّاء القدامى ليس بناء أسس نظرية طبيعية جديدة والخروج عن التقسيم المنطقي اليوناني، فهذا شيء لم تسمح الشروط المادية والتاريخية بتحقيقه، بل جعل الصناعة الطبية مشروعة وعملية في خدمة أفراد المجتمع، فالجديد في العلوم الطبية يجب البحث عنه في جملة المعارف والعلوم المتنوعة التي استثمرها الأطباء القدامى في تعليم وترويج الصناعة الطبية والبحث عن آفاق معرفية جديدة تطوّرها، وتدخلها في مجالات عملية تؤدّي إلى توسيع آفاقها وزيادة مقدرتها في التشخيص والعلاج.

ومع وجود الخبرة الطبية الواسعة والتجربة العملية والملاحظة الذكية والمنطق الواسع المتكيّف، فإنّ كثيراً من جوانب (اللامعقول) كانت تجد مكاناً داخل الصناعة الطبية بتأثير يوناني وغيره من الموروثات الحرانية (الهرمسية) والزرادشتية، ويأتي في مقدّمتها علم الفلك أو علم الهيئة، وعلم أحكام النجوم، والواضح أنّ الأطبّاء

القدامى قصدوا من وراء تعلّم هذه العلوم وأشباهها الوصول إلى الاستدلالات التنجيمية المحضة، ولم يكن الهدف من تعلّم ودراسة (علم الفلك) إلاّ لإيجاد صيغة عملية ودلالات نجومية تخدم الطبيب في عمله الطبي حصراً. وهكذا احتلّ علم التنجيم مكانة مرموقة في الصناعة الطبية العملية، ويذكر الطبيب «عبد اللطيف البغدادي» (٥٥٧ ـ ٦٢٩ هـ) كيفية استخراج معظم أحكام النجوم من قبل المنجمين [أنّهم شاهدوا حوادث أرضية تقترن بنصبات فلكية وحركات علوية ورصدوا ذلك فألفوه يتكرّر فنسبوا تلك الحوادث إلى تلك الهيئات والنصبات، فصاروا متى عثروا في تسييرهم لحركات الأشخاص العلوية على مثل تلك النصبة والهيئة حكموا بوقوع مثل تلك الحادثة](١).

وقبل الخوض في بعض المصادر التي ساهمت في إدخال التطبيقات العملية لعلم الفلك في الصناعة الطبية لا بدّ من التعرّض لنشأة الطب بحسب الرواية (الرسمية) العربية، وخير من يمثّلها المؤرخ «ابن أبي أصيبعة» (٦٠٠ ـ ٦٦٨ هـ)، الذي يروي في مقدّمة طويلة مسهبة في كتابه الشهير (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) حول ظروف نشأة الطب وظهور الأطباء، فيذكر أنّه [قد اتّفق كثير من قدماء الفلاسفة والمتطببين على أنّ «أسقليبيوس Asclepios» هو أوّل من ذكر من الأطباء وأوّل من تكلّم في شيء من الطب على طريق التجربة، وكان يونانياً](٢).

---

(١) بول غليونجي ـ عبد اللطيف البغدادي ـ أعلام العرب ١١٤ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٨٥ ـ ص ص ١٣٠ ـ ١٣١.

(٢) ابن أبي أصيبعة ـ عيون الأنباء ـ ص ٢٩.

ويذكر «أبو سليمان السجستاني المنطقي» (ت بعد ٣٧٢هـ/ ٩٨٣م) في (تعاليقه): [أنّ أسقليبيوس بن زيوس، قالوا مولده روحاني وهو إمام الطب وأبو أكثر الفلاسفة] وقد انحدر من نسله غالبية الفلاسفة اليونانيين أمثال: «إقليدس»، و«أرسطوطاليس» و«أبقراط»(١) . ومعنى اسقليبيوس باللغة العربية هو (منع اليبس) وفي اللغة اليونانية مشتق من (البهاء والنور) ومن صفاته أنّه [ذكي الطبع، قويّ الفهم، حريص مجتهد في علم صناعة الطب، واتّفقت له اتّفاقات حميدة معيّنة على التمهّر في هذه الصناعة، وانكشفت له أمور عجيبة من أحوال العلاج بإلهام من الله عزّ وجلّ](٢).

ويروي «جالينوس» أنّه قد حجّ إلى هيكله حين تخلّص من مرض أصابه إيفاءً بنذره(٣)، كما يذكر «أبقراط» عنه بأنّ [الله تعالى رفعه إليه في الهواء في عمود من نور](٤).

كما روى «أفلاطون» عنه حكايات عجيبة في كتابه المعروف بـ(النواميس) وكلّها تُجمع على أنّه كان يتمتّع بتأييد إلهي، والواقع أنّ مبدأه الطبي في غاية البساطة والواقعية، فقد كان يرى أنّ مَنْ كان به مرض يبرأ منه عالجه، ومن كان مرضه قاتلاً لم يطل حياته التي لا تنفعه ولا تنفع غيره، وببساطة شديدة كان يترك علاجه(٥).

ويروي «المبشر بن فاتك» أنّ [أسقليبيوس هذا كان تلميذ

---

(١) المصدر السابق ـ ص ٢٩ ـ ٣٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

«هرمس Hermes»، وكان يسافر معه، فلمّا خرجا من بلاد الهند وجاءا إلى فارس خلفه ببابل ليضبط الشرع فيهم][1]. أمّا «هرمس» فهو عند اليونانيين «أطرسمين»، وعند العرب «إدريس» وعند العبرانيين «أخنوخ»، وهو ابن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليهم السلام[2]. ويصفه «المبشر بن فاتك» بقوله: [كان عليه السلام رجلاً آدم اللون، تامّ القامة، أجلح، حسن الوجه، كثّ اللحية][3]. ويقول عنه [إنّه أوّل من تكلّم في الأشياء العلوية من الحركات النجومية.. وهو أوّل من بنى الهياكل ومجّد الله فيها، وأوّل من نظر في الطب وتكلّم فيه][4].

ولكن المؤرخ «سليمان بن حسّان» المعروف بـ«ابن جلجل»[5] و«ابن أبي أصيبعة» يذكران بأنّ الهرامسة كانوا ثلاثة: هرمس ما قبل الطوفان، وسكن صعيد مصر، وهرمس بابل، وكان بعد الطوفان، وهرمس مصر السفلى، وهرمس المذكور هو هرمس الأول أو (المثلث بالنعم) بحسب أبو معشر البلخي[6]، أو [المثلث بالنبوءة والحكمة والملك] كما يذكر «المبشر بن فاتك»[7]، وهو النبي «إدريس» ويذكر «ابن أبي أصيبعة» في الأثر المروي عن السلف: [إنّ إدريس أوّل من درس الكتب ونظر في العلوم وأنزل الله عليه ثلاثين

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.
(٥) القفطي ـ أخبار العلماء بأخبار الحكماء ـ مكتبة المتنبي ـ القاهرة ـ د.ت. ـ ص٦.
(٦) ابن أبي أصيبعة ـ عيون الأنباء ـ ص ٣٢.
(٧) المصدر السابق.

صحيفة، وهو أول من خاطَ الثياب ولبسها، ورفعه الله مكاناً عالياً][1].

طب أسقليبيوس:

اعتبر «جالينوس» بأنّ «أسقليبيوس» كان يتمتّع بتأييد إلهي، وأنّ طبّه بالتالي هو طب إلهي، وتدل معاني اسمه على أربعة مبادئ أساسية في الطب القديم، يشرحها «حنين بن إسحق العبادي»[2] (ت ٢٦٠ هـ/ ٨٧٤م):

أ ـ **المعنى الأول:** منع اليبس، وذلك أنّ الموت يعرض عند غلبة اليبس والبرد، وكان هذان جميعاً يجففان البدن الميت، سميت بهذا السبب المهنة التي تحفظ على الأبدان القائمة حرارتها ورطوبتها.

ب ـ **المعنى الثاني:** (ابن فلاغواس) وهذا الاسم مشتق من اسم اللهيب، أي ابن القوة الملهبة الحيوانية، وذلك لأنّ الحياة تكون بحفظ الحرارة الغريزية في القلب والكبد.

ج ـ **المعنى الثالث:** (ابن قورونس) وهذا الاسم مشتق من الشبع واستفادة الصحة، وسمّي بهذا الاسم لأنّ الشبع من الطعام والشراب إنّما يتم للإنسان بصناعة الطب إذا انهضم طعامه،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

لأنّ[٤٣] حفظ الصحة إنّما يكون بهذه المهنة، وكذلك أيضاً ردّها إذا زالت.

د ـ **المعنى الرابع**: (ابن أبولون) فلأن الطبيب يحتاج أن يكون معه شيء من التكهّن لأنّه ليس من الواجب أن يخلو الطبيب الفاضل من معرفة الأشياء الحادثة فيما بعد، أو بمعنى آخر كما يشرحه «حنين بن إسحق»: تقدمة المعرفة الطبية، هذا المبدأ الهرمسي الهام الذي يقرره «جالينوس» كان يقوم عليه جزء لا يستهان به من الصناعة الطبية العملية ألا وهو التكهّن عن حال المريض وسير المرض وشفائه من عدمه إلى صناعة النجوم أو التنجيم، كما سنوضّح.

من الثابت أنّ الطب اليوناني الأبقراطي القديم ردّ الظواهر المرضية التي تحدث في الجسم الإنساني إلى تقسيمات فلسفية منطقية وتشبيهات حسية من عالم الأحياء والجمادات، لقد أدرك «أبقراط» أثر الطبيعة على الإنسان، فالأبدان تتأثر بتغيّر البلدان والأهوية والمياه، وليس هذا فحسب، بل إنّ اختلاف أوجه القمر على الحالات الانفعالية والاضطرابات العقلية للإنسان، والواقع أنّ هذا يعود لما قبل «أبقراط»، حين طبّق الانسان تصوّراته على عالم الفلك، فتخيّله مماثلاً للجسم الإنساني، وهذا يتناسب مع تنصيب الإنسان نفسه مركزاً للكون، فكلّ الظواهر الطبيعية تهدف إلى تحقيق مصالحه وأهدافه، ولا ننسى أنّ الأقدمين في الأيام الغابرة كانوا يعتقدون أنّ الكواكب تسيطر على الكائنات، سواء كانت تلك

المخلوقات إنساناً أو حيواناً أو نباتاً أو حجراً، وكان بعض الأقدمين يؤمنون بأنّ لكلّ إنسان كوكبه يسيطر على حياته، حتّى النباتات كانت لها كواكب ترعاها كما يذكر «ابن وحشية الكلداني» (من القرن الرابع الهجري) في الكتاب المنحول إليه (الفلاحة النبطية)(١)، وكان هؤلاء الروحانيون الصابئة يعتبرون الأجسام السماوية آلهة تتصرّف في شؤون العالَم الأرضي، فالرياح والأمطار والحرارة والبرودة وعمليات النشوء والاندثار (الكون والفساد) سواء في عالم الجماد أو النبات أو الحيوان أو الإنسان، كلّ ذلك من فعل وتدبير الأجسام السماوية ـ الآلهة، التي هي عندهم واسطة بين الله والإنسان يعظّمونها ويتقرّبون إليها ويتشبّهون بها(٢).

والحق أنّ آراء صابئة (حرّان) ومعتقداتهم الدينية معروضة بشكل مفصّل في كتاب (الملل والنحل) لـ«أبي الفتح الشهرستاني» (ت ٥٤٨ هـ) وذلك بمناظرات بين الصابئة والحنفاء، أوردها «الشهرستاني» على شكل سؤال وجواب، ولا بد من البيان أنّ هذه الأقوال تتنافى مع القول بوحدانية الله كما ردّ عليهم الحنفاء، فإثبات تأثيرات الهياكل والأفلاك هو شرك في أفعال الباري تعالى(٣) كما يقول في القرآن الكريم ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ، أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(٤).

---

(١) ابن وحشية ـ الفلاحة النبطية ـ تحقيق توفيق فهد ـ منشورات المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية ـ دمشق ـ ١٩٩٣.

(٢) محمد عابد الجابري ـ نحن والتراث ـ الطبعة السادسة ـ المركز الثقافي العربي ـ بيروت ـ ١٩٩٣ ـ ص ١٢٨.

(٣) أبو الفتح الشهرستاني ـ الملل والنحل ـ دار دانية ـ دمشق ـ ١٩٩٠، ص١٢٦ـ١٤٥.

(٤) سورة الأنبياء، الآيتان ٦٥ ـ ٦٦. وانظر: المصدر السابق ـ ص ١٣٨.

وتردنا ملاحظة هامة عندما سأل الحنفاء: بِمَ عرفتم معاشر الصابئة وجود هذه الروحانيات؟ والحسّ ما دلّكم والدليل ما أرشدكم إليه؟ كان جوابهم: عرفنا وجودها وتعرّفنا أحوالها من عاذيمون وهرمس: شيث وإدريس عليهما السلام[1].

إذن، لم يكن نمو الحقل الطبي المعرفي العربي خاضعاً لعوامله وإمكانياته الداخلية، فمن المؤكّد أنّ استفادته من المورروث القديم كان هائلاً عن طريق الترجمة في عصر التدوين، ومن المهمّ التعرّف إلى دور بعض الأطباء القدامى ودورهم في إدخال المفاهيم الهرمسية ضمن مبادئ الصناعة الطبية، ويأتي في مقدّمتهم وعلى رأسهم:

أبو الحسن ثابت بن قرة الحرّاني (٢٢١ ـ ٢٨٨ هـ):

هذا العالِم الرياضي الكبير، كان في بداية أمره صيرفياً بمسقط رأسه (حرّان)[2]، ثمّ دخل في خدمة «محمد بن موسى بن شاكر» الذي ألحقه في جملة المنجمين لخدمة «الخليفة المعتضد» (ت ٢٨٩هـ/ ٩٠٢م) وذلك لفصاحته، وحسن اطّلاعه على العلوم والمعارف الهندسية والفلكية والمنطقية، وهو أوّل صابئي يتبوّأ مكانة رفيعة في البلاط العباسي، وكان يمتلك قدرات علمية رائعة جعلته يتفوّق في علوم متعدّدة ومنها: الصناعة الطبية، حتّى وصفه «ابن أبي أصيبعة» قائلاً: [لم يكن في زمان ثابت بن قرة مَنْ يماثله في صناعة الطب ولا في غيره من جميع أجزاء الفلسفة، وله تصانيف مشهورة

(١) المصدر السابق ـ ص ١٢٧.

(٢) حران: (Carrhae) مدينة قديمة في تركيا ما بين النهرين، موطن إبراهيم الخليل بعد هجرته من أور، واشتهرت بعلماء الصابئة من فلاسفة وأطباء ومترجمين وكتبة (المنجد في الأعلام ـ ص ٢١٤).

بالجودة، وكذلك جاء جماعة كثيرة من ذريته ومن أهله يقاربونه فيما كان عليه من حسن التخرّج والتمهّر في العلوم][١]. هذه الشهادة الغالية توضح أنّ «ثابت بن قرة» كان أوّل الأطباء الصابئة المشهورين الذين تمتّعوا بامتيازات كبيرة في ظلّ الحضارة الإسلامية، وعلاقته الوثيقة بالخليفة «المعتضد» ترجع إلى الأيام التي غضب عليه أبوه «الموفق بالله طلحة بن المتوكل» (ت ٢٧٨ هـ/ ٨٩١م) وقرّر حبسه أو بالأحرى وضعه في إقامة جبرية في إحدى الدور، وهكذا وجد «ثابت ابن قرة» طريقة لمنادمة خليفة المستقبل المحجوز، وتعريفه بأحوال الفلاسفة وأمور الهندسة والنجوم، ولم ينسَ له المعتضد هذا الصنيع، فعندما تقلّد الخلافة [أقطعه ضياعاً جليلة وكان يُجلِسه بين يديه بحضرة الخاص والعام، ويكون بدر غلام الأمير قائماً والوزير وهو جالس بين يدي الخليفة][٢].

وما يهمّنا في سيرة «ثابت بن قرة» أنّه كان قوي المعرفة باللغة السريانية، وكان غزير الإنتاج والكتابة، وقد صنّف مؤلّفات عديدة هامة في الطب والفلك والرياضيات والمنطق وغيرها..

وقد ذكر «ابن أبي أصيبعة» ثبتاً بمؤلّفاته التي كتبها بالسريانية، والمتعلّقة بمذهب الصابئة، وهي: (رسالة في اعتقاد الصابئين)، (رسالة في السبب الذي لأجله ألغز الناس في كلامهم)، (رسالة في الرسوم والفروض والسنن)، (رسالة في تكفين الموتى ودفنهم)، (رسالة في الطهارة والنجاسة)، (رسالة في أوقات العبادات)، (رسالة في ترتيب القراءة في الصلاة)، (صلوات الابتهال إلى الله عزّ وجلّ)[٣].

---

(١) ابن أبي أصيبعة ـ عيون الأنباء ـ ص ٢٩٥.

(٢) المصدر السابق ـ ص ٢٩٥.

(٣) المصدر السابق ـ ص ٣٠٠.

كما أنّ «ثابت بن قرة» لم يقتصر في توضيح مذهبه ونشر تعاليمه، فقد صنّف باللغة السريانية [رسالة في مذهب الصابئين ودياناتهم][1]، كما جمع أرصاد الشمس في كتاب بيّن فيه مبادئ المذهب الصابئ في سنة الشمس، وما أدركه بالرصد في موضع أوجها ومقدار سنيها وكمية حركاتها وصورة تعديلها[2].

أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرة (ت ٣٣١ هـ/ ٩٤٣م):

كان طبيباً لخلفاء ثلاثة على التوالي: «المقتدر بالله» (ت٣٢٠هـ/ ٩٣٢م)، و«القاهر بالله» (ت ٣٢٢ هـ/ ٩٣٤م)، و«الراضي بالله» (ت٣٢٩ هـ/ ٩٤٠م). وقد طلب منه «القاهر بالله» أن يعلن إسلامه، فرفض في البدء، وفي ظنّه أن يعيد سيرة أبيه: أن يبقى على مذهبه الأصلي (الصابئي) ويحتفظ بذات الوقت بمكانته العالية المرموقة، ولكن الظروف تتغيّر، وأصرّ «القاهر بالله» على موقفه، مما أدّى إلى هروبه إلى خراسان، وعاد بعد فترة إلى بغداد وقد أشهر إسلامه، وضمن له ذلك استرجاع مكانته المفقودة، إلاّ أنّه - كما يظهر - واصل مساعيه في نشر وترويج مذهب الصابئة، فيذكر «ابن أبي أصيبعة» بأنّه نقل إلى اللغة السريانية كتاباً هاماً ألا وهو (نواميس هرمس والسور والصلوات التي يصلّي بها الصابئون)[3]، كما ألّف باللغة العربية (رسالة في شرح مذهب الصابئين)، (رسالة في قسمة أيام الجمعة على الكواكب السبعة)[4]، كما لم يفته أن يضيف

---

(١) المصدر السابق - ص ٢٩٩.

(٢) المصدر السابق - ص ٢٩٥.

(٣) المصدر السابق - ص ٣٠٤.

(٤) المصدر السابق.

(رسالة في أخبار آبائه وأجداده وسلفه)[١].

إنّ النشاط غير العادي لـ«ثابت بن قرة» وابنه وغيرهما من العلماء الصابئة في نشر عقيدة وفلسفة مذهبهم كان له تأثيره الهام والكبير على كثير من المواقف الفلسفية لأطباء العرب وفلاسفتهم، أمثال: «الرازي» و«ابن سينا» و«الكندي» و«الفارابي» و«إخوان الصفا»، ولم يسلم من التأثير بقية التيارات والمذاهب.

أبو الحسن ثابت بن إبراهيم بن زهرون الحراني الصابئي (٢٨٣ - ٣٩٦ هـ):

كان طبيباً فاضلاً كثير الدراية وافر العلم، بارعاً في الصناعة، موفّقاً في المعالجة، مطّلعاً على أسرار الطب، وكان مع ذلك ضنيناً بما يحسن[٢]، وله عدّة نوادر تتعلق بمهارته الطبية وقوّة حدسه وإصابة توقعاته التي ترقى إلى حدّ العجيبة، وقد روى «القفطي» عنه رواية تلفت الانتباه، فمن خلال جسّ نبض أحد الشعراء في مجلس عام توقع بأنه تناول طعاماً يحتوي على لحم عجل، وكان ذلك صحيحاً، ثمّ جسّ نبض أحد المنجّمين، وأعلن بأنّه قد أكل (إحدى عشرة رمّانة) وكان ذلك صحيحاً أيضاً، مما أثار عاصفة من التعجّب والتساؤل بين جماعة الحاضرين، ولكن المنجم لم يهدأ له بال، واستفرد بالطبيب «أبي الحسن» وطلب منه تفسيراً لما حصل قائلاً: [يا ابا الحسن، صناعة الطب معروفة بيننا لا يخفى عنّي شيء منها، فبيّن لي من اين ذلك النصّ على أنّ المضيرة كانت بلحم عجل لا

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق - ص ٣٠٧.

بقرة ولا ثور؟ ومن أين لك الدليل على أنّ عدد الرمان إحدى عشرة؟][١]، وكانت الإجابة مفاجئة، فقد ردّ قائلاً: [هو شيء يخطر ببالي فينطق به لساني][٢]، ولكي يزداد المنجّم وثوقاً من هذه الإجابة فقد نظر في طالعه الفلكي، فتبيّن له أنّ [سهم الغيب في درجة الطالع مع درجة المشتري وسهم السعادة][٣]، مما دعا المنجم إلى الاعتراف والتسليم قائلاً: [يا عزيزي، هذا تكلّم لا أنت، وكل ما تصيب في الطب من مثل هذا الحدس والقول فهذا سببه وواصله][٤].

فالطبيب الحراني كانت مصادره المعرفية النجوم والأفلاك والإيحاء بأنّ ينبوع معالجاته الطبية السديدة قوى علوية غامضة لا سبيل للتأكّد منها أو معرفتها بشكل دقيق، وليس بالتأكيد شخصه الإنساني الضعيف، فالنجوم التي تحالف معها بسبب مولده الذي صادف قبولاً سعيداً لديها، كانت تدفعه إلى الحدس الصحيح في أحكامه الطبية، وهذا يفسّر كلام «القفطي»: [كان طبيباً حاذقاً مصيباً، ضنيناً بما يحسنه من ذلك][٥]، فهو لم يترك وراءه أي مصنّفات طبية هامة على الرغم من الشهرة الواسعة التي أصابها في أيّامه، سوى كتابين صغيرين لم يكتب لهما الذيوع والنجاح، وقد نستطيع تبرير موقفه بأنه كان [ضنيناً بما يحسن][٦]، فمن الصعب

---

(١) القفطي - أخبار العلماء بأخبار الحكماء - ص ٨٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق ص ٧٨.

(٦) المصدر السابق.

عليه الاعتراف بأن نجاحه في[5] عمله الطبي مصدره النجوم والأفلاك العلوية الدائرة في السماء، وتحالفاتها معه، ومن العسير أيضاً شرح طبيعة وكُنه هذه المصادر المعرفية التي تعتبر في منزلة [المضنون به على غير أهله] وهو التعبير الأثير لدى القدماء حين يريدون وصف (معرفة) ما، بأنه من الصعب إدراكها أو فهمها من قبل جمهور العامة، إنّه جدول آخر من (اللامعقول) الطبي يرفد بحيرة الثقافة العربية الواسع، ولكن الطبيب «ابا الحسن الحراني» يعطينا مثالاً صارخاً في تمكّنه من النفاذ والسيطرة على عقول ذوي النفوذ والحظوة لديهم، فقد استطاع بدهائه وحنكته من خداع «عضد الدولة ابن بويه» (ت ٣٧٢ هـ/٩٨٣م) المعروف بأنه أخضع الخلافة العباسية لسيطرته المباشرة والفعلية، وذلك عند دخوله (بغداد) لأول مرة، فقد استقبله وسأله عن عمله فأجابه بأنه طبيب.. وكان ذلك صدمة ونذير شؤم لعضد الدولة الذي كان يشعر وقتها بأنه في أتمّ الصحة والأحوال، فردّه بجفاء قائلاً: نحن في عافية.. ما بنا حاجة إليهم.. وأحسن «أبو الحسن الحراني» بالمأزق فما لبث أن استأذن لمقابلته ثانية قائلاً إنّ مهمّته (حفظ الصحة لا مداواة الأمراض) وصادف هذا القول رضاً وقبولاً عند عضد الدولة الذي قرّبه منه وصار من جملة أطبّائه.

وهو بعنوان: فيما يحتاج إليه الطبيب من الأخلاق والصفات، ويمكن تقسيم هذا الفصل الطويل والذي استغرق أكثر محتويات مخطوط (بيان الحاجة إلى الطب والأطباء ووصاياهم) إلى أبواب كالتالي:

- الصفات الأبقراطية للطبيب.
- بحث في بيان ضرورة الموت.
- بحث في بيان غاية علم حفظ الصحة.
- بحث في بيان وصايا الطبيب، وفي هذا البحث يعتمد «الشيرازي» على كتاب (التشويق الطبي) لـ«صاعد أبو العلاء ابن الحسن الطبيب» (ت ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م) حيث يورد فقرات طويلة كاملة منه.
- وصية الطبيب مهذب الدين أبو الحسن علي بن هُبَل البغدادي (ت ٦١٠ هـ / ١٢١٣م) حيث يذكر أيضاً نصاً طويلاً من مقدمة كتابه المعروف (المختارات في الطب).
- وصية لابن زهر، وهو أبو مروان ابن أبي العلاء (ت ٥٢٥ هـ/ ١١٣٠م) مأخوذة من كتابه (التذكرة).
- وصية (العلامة)، والمقصود به هو المؤلف «قطب الدين الشيرازي»، وهذا اللقب كثيراً ما يصادفه، وهو يورد فيها وصاياه الشخصية الخاصة بعد أن استعرض وصايا غيره من المؤلفين الأطباء السابقين، فهو يذكر وجهة نظره ويناقش العديد من القضايا والمسائل المتعلقة بالطب

والأطباء، واستشهاداته المتكررة بأقوال الفلاسفة اليونانيين: «أفلاطون»، «سقراط»، «فيثاغورث»، «أرسطوطاليس»، و«هوميروس»، «جالينوس»، ويستعين بفقرة من كتاب (المعالجات البقراطية) للطبيب «أبو الحسن الطبري» من القرن الرابع الهجري، ثمّ يلجأ إلى كتاب «صاعد بن الحسن» وهو التشويق الطبي، وبالنسبة للوصايا الابقراطية فهي مأخوذة بمجملها بما يعرف (ناموس الطب لأبقراط) و(وصية أبقراط) و(قسم أبقراط) وقد نقلها «ابن أبي أصيبعة»[1] أما المؤرخ «جمال الدين القفطي» فقد أوجزها بقوله: [ولبقراط في صدور كتبه وصايا جميلة من التحنن والشفقة وتطهير الأخلاق من الكبر والعجب والحسد][2] وترد عبارة تثير الاهتمام وردت في وصايا أبقراط وهي الوصية الثامنة. [لا ينبغي للطبيب أن يكون مشتغلاً بالتلذذ والتنعم ولا أن يستكثر من شرب النبيذ، فإن ذلك مما يضر بالدماغ ويملؤه فضولاً ويفسد الذهن].

ونلاحظ أن «الشيرازي» ينقل آراء «أبقراط» كما وردت بدون تعديل أو تغيير حرصاً على الأمانة العلمية وهي ميزة تشمل غالبية العلماء العرب، وتبقى ملاحظة أن مبدأ تناول النبيذ أو أي شراب مسكر بكميات قليلة أو كثيرة محرم قطعاً في مبادئ الدين الإسلامي، ولا يعقل أن يكون الشيرازي وهو العلامة الفقيه من الذين يروجون لهذه المقولة، هذا لا يستقيم شرعاً ولا منطقاً، ولكن قد يحصل

---

(١) ابن أبي أصيبعة ـ عيون الأنباء ـ ص ٤٦ ـ ٤٧.

(٢) القفطي ـ أخبار العلماء ـ ص ٦٥.

أحياناً سوء فهم أو لبس ناجم عن عدم الوضوح أو تفسير غامض، وتصادفنا مثل هذه الحالات في التاريخ الطبي، مما ينجم عنه مواقف خاطئة أو منحرفة بدرجات عن جادة الصواب، كما ورد في الحكاية التالية من كتاب (أخبار العلماء بأخبار الحكماء) للمؤرخ «جمال الدين القفطي» [في سنة تسع عشرة وثلثمائة اتصل بـ«المقتدر» (الخليفة العباسي) أن رجلاً من الأطباء غلط على رجل فمات فأمر أبا بطيحة محتسبه بمنع جميع الأطباء إلا من امتحنه «سنان بن ثابت بن قرة» وكتب له رقعة بما يطلق له التصرف فيه من الصناعة وأمر سناناً بامتحانهم وأن يطلق لكل واحد منهم ما يصلح أن يتصرف فيه من الصناعة وبلغ عددهم في الجانبين من بغداد ثمانمائة ونيفاً وستين رجلاً سوى من استغنى عن امتحانه باشتهاره بالتقدم في الصناعة وسوى من كان في خدمة السلطان، ومن ظريف ما جرى في امتحان الأطباء أنه أحضر إلى سنان رجل مليح البزة والهيئة ذو هيبة ووقار فأكرمه سنان على موجب منظره ورفعه، وصار إذا جرى أمر التفت إليه ولم يزل كذلك حتّى انقضى شغله في ذلك اليوم ثمّ التفت إليه «سنان» فقال: قد اشتهيت أن أسمع من الشيخ شيئاً أحفظ عنه وأن يذكر شيخه في الصناعة؟ فأخرج الشيخ من كمه قرطاساً فيه دنانير صالحة ووضعها بين يدي «سنان» وقال: ما أحسن أن أكتب ولا أقرأ ولا قرأت شيئاً جملة ولي عيال ومعاشي دار دائرة، وأسألك أن لا تقطعه عني. فضحك سنان، وقال: على شريطة أنك لا تهجم على مريض بما لم تعلم ولا تشير بفصد ولا بدواء مسهل إلا لما قرب من الأمراض. قال الشيخ هذا مذهبي مذ كنت][1] ولكن

---

(١) المصدر السابق ـ ص ١٣٠ ـ ١٣١.

الحكاية لا تنتهي عند هذا الحد، وتبين أن لها ذيولاً، ففي اليوم التالي يتابع «القفطي» قائلاً: [أحضر إليه غلام شاب حسن البزة مليح الوجه ذكي، فنظر إليه سنان وقال: على مَنْ قرأت؟ قال: على أبي، قال: وَمنْ أبوك؟ قال: الشيخ الذي كان عندك بالأمس. قال: نِعمَ الشيخ وأنتَ على مذهبه؟ قال: نعم، قال: لا تتجاوزه، وانصرف مصاحباً][(١)].

هذه الحادثة واحدة من حالات ثلاث تتعلّق بامتحان عام للأطباء جرى في العصر العباسي وردت في المصادر العربية، أمّا الرواية الأخرى، فقد ذكرها «ابن أبي أصيبعة» في كتابه (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) ويطللها هذه المرة الطبيب «أمين الدولة ابن التلميذ» (ت ٥٦٠ هـ/ ١١٦٥م) الذي كان في خدمة الخليفة العباسي «المقتفي بالله» وكان قد فوّض إليه رئاسة الطب ببغداد، ولما اجتمع إليه سائر الأطباء ليرى ما عند كلّ واحد منهم من هذه الصناعة، كان من جملة من حضره شيخ له هيبة ووقار وعنده سكينة، فأكرمه «أمين الدولة»، وكانت لذلك الشيخ دربة بالمعالجة، ولم يكن عنده من علم صناعة الطب إلاّ التظاهر بها، فلما انتهى الأمر إليه قال له أمين الدولة: ما السبب في كون الشيخ لم يشارك الجماعة فيما يبحثون فيه حتّى نعلم ما عنده من هذه الصناعة؟ فقال: يا سيدنا وهل شيء مما تكلّموا فيه إلاّ وأنا أعلمه وقد سبق إلى فهمي أضعاف ذلك مرّات عديدة؟ فقال له أمين الدولة: فعلى مَنْ كنت قرأتَ هذه الصناعة؟ فقال الشيخ: يا سيدنا إذا صار الإنسان إلى هذه السن ما يبقى يليق إلاّ أن يسأل كم له من التلاميذ وهو المتميز

---

(١) المصدر السابق.

فيهم، وأما المشايخ الذين قرأت عليهم فقد ماتوا من زمان طويل، فقال له «أمين الدولة»: يا شيخ، هذا شيء قد جرت العادة به ولا يضرّ ذكره ومع هذا ما علينا، أخبرني أي شيء قد قرأته من الكتب الطبية؟ وكان قصد «أمين الدولة» أن يتحقّق ما عنده فقال: سبحان الله العظيم، صرنا إلى حدّ يسأل عنه الصبيان، وأي شيء قد قرأته من الكتب يا سيدنا لمثلي ما يقال إلاّ أي شيء صنّفته في صناعة الطب وكم لك فيها من الكتب والمقالات، ولا بدّ أنّني أعرفك بنفسي. ثمّ نهض إلى «أمين الدولة» فدنا منه، وقعد عنده، وقال له فيما بينهما: يا سيدي، اعلم أنّي شخت وأنا أوسم بهذه الصناعة وما عندي منها إلاّ معرفة اصطلاحات مشهورة في المداواة وعمري كله أتكسب بها، وعندي عائلة، فسألتك بالله يا سيدنا مشي حالي ولا تفضحني بين هؤلاء الجماعة، فقال أمين الدولة: على شريطة وهي أنّك لا تهجم على مريض بما لا تعلمه ولا تشير بفصد ولا بدواء مسهل إلاّ لما قرب من الأمراض.

فقال الشيخ: هذا مذهبي منذ كنت ما تعدّيت السكنجبين والجلاب، ثمّ إنّ «أمين الدولة» قال معلناً والجماعة تسمع: يا شيخ اعذرنا، فإننا ما كنا نعرفك، والآن وقد عرفناك استمرّ فيما أنتَ فيه فإنّ أحداً لا يعارضك][1].

ونتبيّن فيما بعد أنّ للحادثة توابع مثل سابقتها، فقد أراد «أمين الدولة» امتحان آخر فسأله: على من قرأت هذه الصناعة؟ وشرع في امتحانه، فقال: يا سيدنا أنا من تلامذة هذا الشيخ الذي عرفته، وعليه كنت قرأت صناعة الطب. ففطن أمين الدولة بما أراد من

---

(١) ابن أبي أصيبعة ـ عيون الأنباء ـ ص ٣٥١.

التعريض بقوله، وتبسّم ثمّ امتحنه بعد ذلك[١].

يبقى أن نذكر أنّ ما أوردناه يتطابق أن يكون سيناريو لفيلم سينمائي عربي ينتهي نهاية تقليدية سعيدة ويتصالح الجميع في الختام ويتبادلون الأحضان ويعودون إلى بيوتهم وقد ملأت الفرحة والغبطة قلوبهم.. ينام المشاهد بعدها قرير العين راضيها.

التحليل العام:

الرواية الأولى تدور وقائعها سنة (٣١٩ هجرية) والأخرى سنة (٥٦٠ هجرية) والفرق بينهما يزيد على مائتي عام، ومع ذلك فالتشابه في التفاصيل متطابق تماماً، فالمحور الأساسي يدور حول رئيس الأطباء ببغداد (عاصمة الخلافة العباسية) يريد امتحاناً شفوياً للأطباء بغية إجازتهم واستبعاد غير الصالح والكفؤ منهم بموجب توجيهات من رأس النظام الحاكم «الخليفة العباسي المقتدر» في الأولى، والخليفة العباسي «المقتفي» في الثانية، وتبدأ الحبكة الروائية عندما يتقدّم رجل للامتحان [مليح البزّة والهيئة ذو هيبة ووقار] وفي الوصف الآخر [شيخ له هيبة ووقار وعنده سكينة] وبعبارة أخرى أنّ المظهر الخارجي والشكل العام يبعث على الطمأنينة والاحترام، في البداية يحاولان التشاغل والمماطلة، ولكن لا بدّ أن تأتي ساعة المواجهة بين الممتحِن والممتحَن وبعد استجوابهما الطبي القانوني بحسب المبادئ الطبية المرعية في ذلك الزمان، فإنّ هذين الرجلين (في الروايتين) أسقط في أيديهما، وأدليا باعترافات مذهلة، فهما لا يجيدان القراءة أو الكتابة وهذا شرط أساسي وهام لنجاح الطبيب قد

---

(١) المصدر السابق - ص ٣٥٢.

خالفاه»، أي أنّهما لم يقرآ في حياتهما حرفاً واحداً من أي كتاب طبي أو غيره، ويعتمدان في عملهما على الخبرة العملية المكتسبة في المداواة وعلاج الأمراض، ولا بدّ أنهما كانا قد أصابا حظاً من النجاح واشتهرا بذلك [أسماؤهما مجهولة وغير محددة] والأهم من ذلك، وهنا الجانب الإنساني في القضية وقد تم التركيز عليه، فهما يعيلان عائلة كبيرة تعتمد في معيشتها على كسبهما، ومن ثمّ فهما يطلبان إجازتهما والرفق بهما ومراعاة وضعهما المعيشي الصعب، أضف إلى أنّ حرمانهما من ممارسة التطبيب بعد أن أمضيا في هذه المهنة فترة طويلة سيؤدّي بهما إلى فقدان الوقار والهيبة اللتين يتحليان بهما، بين أقرانهما وزملائهما، وهذا سينعكس سلباً على حياتهم الاجتماعية. وهنا تبلغ الروايتان المنعطف الدرامي، ويصدر رئيس الامتحان القرار النهائي بإجازتهما والسماح لهما باستمرار ممارسة مهنة الطب مع الإغضاء طبعاً عن مستواهما العلمي والثقافي [مع فارق بسيط في التفاصيل وهو أنّ الطبيب في الرواية الأولى يُخرِج من كمّه قرطاساً فيه دنانير ويعرضها على «سنان بن ثابت» وهذا بالطبع بغية رشوته واستمالته.. أو ربّما كي تصبح حجّته مقنعة أكثر.. ولا يذكر الراوي هل قبل النقود أم ردّها، أمّا في الرواية الثانية فيكتفي الطبيب المزعوم بالرجاء والاسترحام] كما يتم أخذ تعهّدات عليهما تتعلق بعدم التورط في ممارسات تؤدّي إلى مخاطر على حياة المريض، مثل التصدي لأمراض صعبة أو مزمنة، أو إعطاء أدوية مسهلة كانت تعتبر قديماً من جملة السموم وتُعطى بحذر شديد للمريض، وبعد اتّخاذ احتياطات كبيرة خوفاً من تأثيرها الضار أو السام مما تؤدّي في بعض الحالات إلى الوفاة، إلى آخر التعهدات.. ووافق الطرفان، وأعلنا أنّ منهجهما أو خطتهما في

المعالجة لن تتعدّى تلك التوصيات أبداً، وانتهت الأمور على خير.

وما يزيد الأمر طرافة هو تقدّم أحد الأشخاص بعد ذلك للامتحان مع تصريحه بأنّه يتبع طريقة سابقيه ولم يبق بدّ أمام رؤساء الامتحان إلاّ إجازته مع تكرار التعهدات والتوصيات السابقة.

في الشكل:

لمّح الباحث «توبي هاف Toby Huff» إلى أحداث الرواية الثانية وقال إنّ [ابن التلميذ رئيس الأطباء في بغداد سخر من رجل لديه معرفة ضئيلة بالطب ولكن كانت له خبرة عملية][1]، وهذا مخالف للحقيقة، ولا بدّ من التوضيح أنّ الأسئلة الموجهة من قبل رئيسي الامتحان لا يوجد فيها أي شطط أو إسراف أو ملمح من ملامح السخرية، وبالرجوع إلى قواعد الأصول الطبية المعترف بها والمقررة في امتحان الأطباء والتي ذكرها الطبيب اليوناني «جالينوس» وشرحها بشكل مفصّل الطبيب الشهير «أبو بكر الرازي» (٣٢٠ هـ/ ٩٣٢م) حيث يذكر بأنه على الممتحن أن يتبيّن الآتي في المطلوب امتحانه [انظر أولاً بماذا أفنى عمره، إما بقراءة كتب الطب والتجربة، أو بالاشتغال بغير ذلك، وحاله فيها الآن، وهل يشتغل إذا خلا بالقراءة أو التجارب، وكيف همّته وحبّه لذلك، فإن كان إنّما يميل إلى اللهو والشرب فلا تعبأ بامتحانه][2]، وبالنسبة للمنهج الطبي المطلوب توفره في الطبيب والإطار العام للأسئلة هي:

---

(١) فجر العلم الحديث ـ توبي هاف ـ سلسلة عالم المعرفة ـ (٢١٩) ـ الجزء الأول ـ الكويت ـ ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٧م ـ ص ٢٧٠.

(٢) الرازي ومحنة الطبيب ـ تحقيق: ألبير ذكي اسكندر ـ مجلة المشرق ـ السنة ٥٤ ـ المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ـ ١٩٦٠ ـ ص ٥١٦.

[فأول ما تسأله عنه التشريح، ومنافع الأعضاء، وهل عنده علم بالقياس وحسن فهم ودراية في معرفة كتب القدماء؟ فإن لم يكن عنده ذلك فليس بك حاجة إلى امتحانه في المرضى، وإن كان عالماً بهذه الأشياء فأكمل امتحانه حينئذ في المرضى، فمتى رأيته يدري، ففي الأدوية][١].

من خلال النصوص التي أوردناها يتبين أنّ طريقة الامتحان التي جرت كان مستوفياً للشكل النظري التقليدي السائد المنبثق من النظرة اليونانية والمتوافق مع التوجه الرسمي للسلطة السياسية مما يقتضي قبول طريقة الامتحان شكلاً وعدم التشكيك في الإطار الرسمي المعروف.

في التاريخ الطبي والمؤرخين:

لعلّ هدف المؤرخين الجليلين «القفطي» و«ابن أبي أصيبعة» من ذكر هاتين النادرتين في مسألة هامة وخطيرة تتعلق بامتحان الأطباء وإجازتهم، هو بيان الطبيعة الأخلاقية المتسامحة الخيّرة للطبيبين «سنان بن ثابت» و«ابن التلميذ» والجانب الإنساني الطيب في شخصيتهم، على اعتبار أنّ الطبيب من أهمّ سماته الشخصية الطيبة وفعل الخير، وربّما تقصّدا أيضاً صيد بعض الابتسامات من القارئ وهو منهمك بالقراءة لكتب يغلب عليها الطابع الجاف والسرد التاريخي أو أرادا تأكيد مقولة سائدة وربّما حتّى الآن (قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق)، ومن الثابت أنّ حرمان هذين الطبيبين من عملهما الذي يرتزقان منه سينعكس آثاراً سلبية على عائلتيهما اللتين يعولانهما.

---

(١) المصدر السابق - ص ٥١٧.

وما ذكر من مبررات أو حيثيات، لم يكن كافياً لإقناع بعض المستشرقين والباحثين الغربيين بصدق وحسن نوايا مؤرخينا، بل اعتبروها الصورة العملية الواقعية لتأهيل الأطباء والتي كانت سائدة في ذلك الزمن، ونكتفي بالإحالة إلى كتاب (الطب العربي Arabian Medicine) للمستشرق «براون Browne» وكتاب (فجر العلم الحديث ـ الجزء الأول) للباحث «توبي هافي» وإلى الباحث «غاري ليسر Gary Leiser»[1] والذين استشهدوا بهاتين الروايتين لإطلاق أحكام عامة، منها: [أن تنظيم الامتحانات (الطبية) يدل على ضعف المستوى][2] كما أنها لم تؤدّ إلى [إقامة مستويات في تعليم الطب وممارسته.. وحيث إنه لم تكن هناك كليات ولا نظام امتحان معتمد من هيئة من الأساتذة أو المختصين][3] وغير ذلك أدّى إلى حصول استنتاج متسرّع وهو [لم تكن هناك وسيلة فعّالة في نفس الوقت لإبعاد الدجل أو تأسيس مقرر معتمد، ما دام كلّ شيء يعتمد على الميل الفردي والعقود الشخصية][4].

ولا بدّ لنا من الوقفات التالية:

١) إنّ الدولة العباسية ومنذ بداياتها وبأعلى مستوياتها كانت معنية بتنظيم الصناعة الطبية وما يتبعها من إنشاء بيمارستانات ورصد الأموال والإمكانات الوفيرة لتقوم بعملها على أكمل وجه وتقديم الخدمات الطبية المجانية للجميع، كما عني فقهاء الحسبة في

---

(١) Gary Leiser, Medical education in Islamic Land, J.H.M.A.S, 38 (1983) 48-75.

(٢) فجر العلم الحديث ـ توبي هاف ـ ص ٢٧٠.

(٣) المصدر السابق ـ ص ٢٦٩.

(٤) المصدر السابق ـ ٢٧٠.

الحضارة الإسلامية بوضع لوائح تنظّم ممارسة الطب، أي تنظيم الإطار الخارجي للمهنة الطبية وآدابها وأخلاقيات الطبيب وتصرفاته الشخصية تجاه أفراد المجتمع، وأهم المؤلفات في قوانين الحسبة هي:

أ ـ كتاب (أحكام السوق) لـ«يحيى بن عمر» الأندلسي الأصل الإفريقي المولد والمتوفى عام (٢٨٩ هـ/ ٩٠١م).

ب ـ كتاب (نهاية الرتبة في طلب الحسبة) لـ«عبد الرحمن بن نصر الشيزري» المتوفى (٥٨٩ هـ/ ١١٩٣م).

ج ـ كتاب (معالم القربة في أحكام الحسبة) لـ«محمد بن أحمد القرشي» المعروف بابن الأخوة (٧٢٩ هـ/ ١٣٢٩م).

ولا بدّ من التشديد على أنّ كفاءة الطبيب وإجازته من الناحية الطبية والعلمية كان يقررها (رئيس الأطباء) أو (مقدم الأطباء) أو (الحكيم المشهور) كما تطلق عليه مصنفات الحسبة، وهو من المشهورين بغزارة علمهم وسعة اطلاعهم يقوم على امتحان الأطباء بحضور المحتسب، فمن وجده مقصراً في عمله أمره بزيادة الدراسة النظرية والتدريب العملي وأوقفه عن مزاولة التطبيب لحين ثبوت أهليته بعد اختباره من جديد[١] أما الأطباء المؤهلون المجازون فكانوا يقسمون أمام المحتسب على ما جاء في قسم (أبقراط) بأن لا يعطوا أحداً أدوية مضرّة أو مجهضة أو سامة وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم عند دخولهم لعيادة المرضى، وألا يفشوا الأسرار التي

---

(١) محمد فؤاد الذاكري ـ آداب الطبيب والتزاماته في قوانين الحسبة ـ مجلة الفيصل ـ العدد (٢١٧) ـ (١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥م) ـ ص ٩٣.

يطلعون عليها بحكم مهنتهم وألاّ يهتكوا الأستار[1]. فوظيفة المحتسب هي السلطة التنفيذية والإجرائية وهو يرجع إلى رئيس الأطباء لتقرير حجب الطبيب أو منعه إذا حصل خطأ من الناحية الطبية الفنية، هذا لا جدال فيه، لا كما يذكر الباحث (توفي):

[أن نظام التعليم الطبي قائم على أصول منح إجازات للطلاب الذين تعلموا النصوص الطبية (مع أن ذلك ليس هو كلّ المطلوب) وعلى مفتشي الأسواق أو المحتسبين أن يصدروا رخصة بحسن سلوك الطبيب الممارس][2] ولننفي ذلك باختصار: في حال وفاة مريض بعد معالجته من قبل طبيب ما، فمن حق أوليائه الذهاب إلى (مقدم الصناعة الطبية) ليعرضوا عليه النسخ أو الوصفات الطبية التي وصفها الطبيب لمريضهم مع وصف حالة المريض وشكاواه، فيقوم (المقدم) بفحص النسخ ودراستها فإن وجدها ضمن الحكمة وصناعة الطب، اعتبر موت المريض قضاء من الله عز وجل، وإن كان الأمر على خلاف ذلك، كان لأهل المريض مطالبة المريض بدية المريض المتوفى وذلك بسبب سوء صناعته وإهماله[3].

أما واجبات الطبيب والتزاماته تجاه المريض فتحددها العلاقة التالية:

بعد أن يقوم الطبيب بالفحص السريري للطبيب وسؤاله عن أسباب الشكوى، وتشخيص العلة يقوم بتعيين مقادير الأدوية اللازمة للعلاج من أشربة وعقاقير وتدوينها كتابياً على نسخة بحضور أولياء

---

(١) المصدر السابق.

(٢) فجر العلم الحديث ـ توبي هاف ـ ص ٢٤٥.

(٣) محمد فؤاد الذاكري ـ آداب الطبيب والتزاماته في قوانين الحسبة ـ ص ٩٣.

المريض والحاضرين معه، ٦٣ وفي اليوم التالي يعود لزيارة المريض وفحصه من جديد وملاحظة سير تطورات العلة، ويرتب له الدواء اللازم حسب مقتضى الحال ويكتبه على نسخة يسلمها لأهل المريض، ويفعل ذلك في اليوم الثالث والرابع على المنوال نفسه، وهكذا إلى أن يتم شفاء المريض ومعافاته بشكل تام، ففي هذه الحالة يستحق الطبيب أجرته[1].

هذا في الحالة العامة والإطار الطبيعي ومن المؤكد أن هذه القواعد والأصول قد أعدت لكل طارئ، الحل الشرعي القانوني المناسب، والمساءلة القانونية متوفرة ضمن إطار النصوص التي تحددها وتنظمها، وأما من ناحية وجود حيل أو خلل أو شعوذة في بعض الممارسات الطبية أو المنطببين فهذا وباء قديم يمتد حتّى عصرنا الحاضر، لم تسلم منه أي حضارة في العالم، فطالما اشتكى أطباء الحضارة اليونانية وعلى رأسهم «أبقراط» و«جالينوس» من وجود أدعياء في ممارسة الطب و(محتالين) و(جاهلين) ودعاهم ذلك لتخصيص مؤلفات كاملة لفضح المدعين وكشف ألاعيبهم مثل كتاب «جالينوس» (الأمراض العسرة البرء) وكتاب (في أصحاب الحيل)[2].

إن هؤلاء المستشرقين انطلقوا في أحكامهم القاطعة التي ذكرناها من خلال نصوص صريحة أوردناها. وهي موجودة في مصادر عربية، أحداثها واضحة لا لبس فيها ولا تأويل، وإن كان هناك ظلال كثيفة من الشك تلوح في الأفق من تشابه الأحداث وتطابقها تماماً في الروايتين على الرغم من الفارق الزمني الكبير

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ابن أبي أصيبعة ـ عيون الأنباء ـ ص ٩٣.

بينهما، وكان لابد أن يدفع تاريخ الطب العربي ضريبة المؤرخين، وآه من المؤرخين، ولابد من التوضيح بأنّ بعض المؤرخين كان يعيب عنهم أحياناً، وليس دائماً، الحس التاريخي النقدي أو يختفي تماماً في نقد وقبول الروايات التاريخية وتمحيصها ويصبحون (حاطبي ليل) يجمعون كلّ ما يجدونه في طريقهم بدون تفرقة أو تمييز ويعتمدون على مصادر غير موثوقة، أو يسمعون مشافهة من رواة مطعونين في مصداقيتهم، فيختلط الحابل بالنابل بل يكادون يفتقدون لأي إحساس بالمسؤولية التاريخية عن وصول رواية مشوهة غير حقيقية، ويكون غرضهم تدوين أخبار مثيرة تجذب انتباه القارئ بغض النظر عن التثبت من مصداقيتها، إنها نزعة (الخبطات الصحفية) بلغة عصرنا الحاضر، وبالنتيجة فنحن لا نستطيع إقصاء كتاب (إخبار العلماء بأخبار الحكماء) لـ«القفطي»، وكتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لمجرد ورود روايات خاطئة أو مغلوطة فيها، لأننا لا نملك خياراً آخر ولا يوجد سوى مصادر قليلة أخرى تتعرض لترجمة حياة الأطباء وإلقاء الضوء على التفاصيل العملية للصناعة الطبية حتّى نهاية القرن السابع الهجري، قد نجد تراجم لبعض الأطباء ولكنها مبعثرة في كتب التراجم العامة، ويدرك الباحث التراثي أنه إذا تصدى لترجمة طبيب أو عالم ذكره «ابن أبي أصيبعة» أو «القفطي» فهذا سيسعده تماماً لأنه سيجد مادة ثرية غنية وخصبة للكلام عنها، أما إذا كانت الترجمة المطلوبة تتجاوز حدود هذين المصدرين زمنياً (بعد القرن السابع الهجري) أو أطباء المرحلة العثمانية على سبيل المثال فسيصادف عنتاً وشططاً لعدم توفر مراجع مطبوعة متداولة تترجم لهم، وهذا لا يعني أن «ابن أبي أصيبعة» قد ذكر كلّ الأطباء في زمنه فقد ترجم ما ينوف عن الأربعمائة ترجمة، وكثيراً ما تصادفنا

في بعض الدراسات العبارة التالية:

[هذا الطبيب لم يذكر عنه شيئاً «ابن أبي أصيبعة» أو تناوله بما لا يزيد عن السطرين] ويعتبر هذا التصريح بمثابة غسل الضمير من محاولة أو إيجاد شيء ذي قيمة.

ويبقى السؤال الهام هل تكفي تلك المصادر القليلة لتأريخ الطب العربي، والجواب بكل قوة، النفي، فهناك الكثير من المخطوطات العربية القديمة زاخرة بالمعلومات والتفاصيل التي تغني أكثر وقد تقلب الوقائع التاريخية المعروفة والمتداولة حيناً آخر، وتصححها ولكن الكثير منها يقبع دون حراك يغطيها الغبار في خزائن الكتب، ومن الجائز القول بان كلّ مخطوطة عربية تحقق وتنشر بشكل موثق وصحيح تضيف معلومات جديدة ناصعة تكشف الغموض وتزيحه عن جوانب معتمة في تاريخ الحضارة الإسلامية على كلّ الأصعدة الثقافية والعلمية والتاريخية وكل مناحي الحياة(١).

وهذا يقودنا بالتالي إلى موضوع بالغ الأهمية والخطورة ألا وهو (إعادة كتابة التاريخ) وهو مطلب قديم جديد، إلى الحد الذي يجعلنا نتساءل: هل يوجد مؤرّخ محايد ونزيه؟ ولن ننسى التأكيد أنّ إعادة كتابة التاريخ مهمة خطيرة وعاجلة، فلا حياة للأمة دون تاريخ موثّق وصحيح، وكلّ الأطراف المعنية مطلوب منها الإسهام في هذه المهمّة، يستوي في ذلك العلماء والمؤرخون والباحثون والمؤسسات المعنية المهتمّة وصولاً إلى وسائل الإعلام المرئية والمسموعة التي تؤدّي دوراً كبيراً وخطيراً في ترسيخ الحقائق والمفاهيم التاريخية وتثبيتها في نفوس أفراد الشعب.

---

(١) محمد فؤاد الذاكري ـ إعادة كتابة التاريخ ـ مجلة الفيصل ـ العدد (٢٣٠) ـ (١٤١٦ هـ/١٩٩٦م) ـ ص ١٤١.

«ابن اللباد» والتاريخ الطبي: ٦٦

إنّ دراسة التراث العلمي وتاريخ العلوم لا تمثّل أي ردّة أو هروب من مواجهة الواقع المعاصر، وليست عملية نفض الأيدي والعجز عن اللحاق بالركب العلمي المتسارع، ولكنها قد تتّخذ شكلاً من أشكال التعبير عن المشاكل الراهنة بواسطة النقد التاريخي، وتثور نقطة استفهام كبرى تتعلّق بماهية (العقل العربي) والسؤال هو: هل نحسن حقاً قراءة الأحداث التاريخية؟؟ ولعلّ بعض الجواب نجده عند الطبيب والمؤرخ «عبد اللطيف البغدادي» (ت ٦٢٩ هـ/ ١٢٣١م)، فقد ساهم بشكل فعّال في انتشار الأسطورة الشهيرة المتعلقة بإحراق مكتبة الإسكندرية الشهيرة التي بنيت في عهد البطالمة من قبل العرب والمسلمين، وللأمانة التاريخية، فإنّ هذه الرواية الخيالية ذكرها المؤرخ «جمال الدين القفطي» (ت ٦٤٦ هـ) في كتابه (إخبار العلماء بأخبار الحكماء) بشكل مفصّل ومفادها أنه لمّا فتح القائد «عمرو بن العاص» مصر والإسكندرية سنة (٦٤٠ م) في عهد الخليفة «عمر بن الخطاب» فإنّه أمر بحرق جميع الكتب التي كانت موجودة في مكتبة الإسكندرية في ذاك الوقت، ويقدّر عددها (أربعة وخمسين ألفاً ومائة وعشرين كتاباً)[1]، وشرع في [تفرقتها على حمامات الإسكندرية وأحرقها في مواقدها. . وذكر أنها استنفدت في مدّة ستة أشهر][2] أما صاحب هذه (الرواية) فهو «يحيى النحوي» الذي عايش مرحلتي ما قبل الفتح الإسلامي وبعده في مصر، ومن الواضح أنّ هذا الطبيب المترجم أراد (مكافأة) الفتح الإسلامي فلم يجد أفضل من

---

(١) القفطي ـ إخبار العلماء ـ ص ٣٢٢.

(٢) المصدر السابق ـ ص ٣٢٣.

هذه (الدعاية) ألا وهي إحراق كتب العلم، وتمضي قرون طويلة إلى أن ينفرد المؤرخ الطبيب «البغدادي» في القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي بتكرار هذه الأكذوبة، وذلك في كتابه (الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر)، وفي الفصل الرابع منه والمعنون (في اختصاص ما شوهد من آثارها القديمة) حيث يذكر ما يلي في وصف آثار الإسكندرية الباقية: [ورأيت أيضاً حول عمود السواري من هذه الأعمدة بقايا صالحة بعضها صحيح وبعضها مكسور ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة والأعمدة تحمل السقف وعمود السواري عليه قبة هو حاملها وأرى أنه الرواق الذي كان يدرس «أرسطوطاليس» وشيعته من بعده وأنه دار العلم التي بناها الإسكندر حين بنى مدينته وفيها كانت خزانة الكتب التي أحرقها «عمرو بن العاص» بإذن من عمر ﷺ][1].

وقد وقع البغدادي في خطأين تاريخيين جسيمين لا يليق به وبقوة اطلاعه كعالم مؤرخ، الأول: أنّ الرواق Stoa الذي يتجادل حوله الرواقيون Stopics لم يكن في الإسكندرية، والثاني أنّ أرسطو لم يزر الإسكندرية البتة ولم يدرس بها، وكان يمارس تعليمه حول (Peripato) التي كانت تحيط بالبارثنون في قلب أثينا، ومن هنا تسمية أتباعه بالمشائين Peripatetics، كما يوضّح الباحث «بول غليونجي» في تعليقه[2]، ثمّ كان الخطأ الفاحش في روايته حول خزانة الكتب التي أحرقها «عمرو بن العاص»، ومن الواضح أنّ الفقرة التي نقلناها عنه

---

(١) عبد اللطيف البغدادي - بول غليونجي - سلسلة أعلام العرب (١١٤) - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٨٥ - ص ١٠٢.

(٢) المصدر السابق.

مشوّشة ومضطربة، ولم يتثبّت «البغدادي» في رأيه واعتقاده لأنه يقول: (وأرى)، فمن يعتبر أنّ الرواقيين نشأوا في الإسكندرية عوضاً عن أثينا وأنّ «أرسطو» عاش في الإسكندرية، ومن الثابت تاريخياً أنه لم يزرها قطّ، يدلّ دلالة واضحة على انعدام وعقم المنهج النقدي التاريخي عند البغدادي في كتاب (الإفادة والاعتبار)، وهذا سيقودنا بالتالي إلى رفض الخبر الثالث (إحراق المكتبة) لأنّ الفقرة بكاملها مبنية على أساس خاطئ لا صحّة له.

وعلى ما يظهر، فإنّ (البعض) كان لهم رأي آخر فيما ورد، فقد اعتمد المستشرق «الوسيان لوكلرك»[1] هذه الرواية، واعتبر الفاتحين العرب مسؤولين عن إحراق وإتلاف هذه الكتب القيّمة التي حوتها مكتبة الإسكندرية على مرّ الزمن، وقد دحضت هذه الترهات بالبراهين بواسطة المستشرقين أيضاً، فقد أعلن «براون» بكلام لا يقبل الجدل أو الشك: [ويقول «كيبون المؤرخ» إنّ مكتبة الإسكندرية القيمة دمّرها النصارى المتعصّبون قبل ما يقرب من ثلاثة قرون قبل دخول المسلمين مصر][2]، ويذكر باحث آخر قائلاً: [إنّ المكتبة أُحرقت مرّتين، أوّل مرّة في عهد «يوليوس قيصر»، والثانية في خلال الاضطرابات المتكررة بين الوثنيين والمسيحيين المتزمّتين][3].

بالإضافة إلى ما تعرّضت له مكتبة الإسكندرية من الزلازل والكوارث والإهمال من قبل ولاة الأمر، مما أدى إلى زوالها نهائياً

---

(١) إدوار براون ـ الطب العربي ـ ترجمة: داود سلمان علي ـ مطبعة العاني ـ بغداد ـ ١٩٦٤ ـ ص ٢٢.

(٢) المصدر السابق ـ ص ٢٣.

(٣) البغدادي ـ بول غليونجي ـ ص ١٠٣.

وتماماً ولم يبقَ منها أثر بعد عين عند فتح الجيش الإسلامي لمصر، هذه حقيقة ثابتة، ولا بدّ من التأكيد بأنه يوجد خلاف حول تحقيق شخصية «يحيى النحوي» الذي يؤكّد المستشرق «الوكلرك» بأنه نفسه «جون فيلوبونس» الشارح والمعلق على تآليف أرسطو[1]، ويبدو أنّ «الوكلرك» أخطأ هذه المرة أيضاً (ومن هو المؤرخ الذي لا يدركه الخطأ؟) وتبيّن أنّ المدعو «جون فيلوبونس» كما قال المستشرق «بوري»[2] من أهل أوائل القرن السادس للميلاد وليس من القرن السابع الميلادي (الزمن المفترض أن يوجد فيه «يحيى النحوي»).

فسبحان الله المتفرّد بالكمال، فـ«ابن اللبّاد» وهو لقب اشتهر به «البغدادي» يعتبر من الأطباء القدامى الذين قدّموا للمكتبة الطبية العربية الكثير من المؤلفات، ولكن الله يُظهر للبشر قصورهم بألسنة المشهورين، فيظهر عليهم منّته بالتوفيق وقوّة الذكاء في أمور كثيرة، ويظهر ضعفهم بآحادها، وهذا الخبر الملفّق لا يليق بالبغدادي، ولو أدرك ما سببه هذا الخبر الموجز الذي رواه عن مصدر مشكوك في شخصيّته لبني جلدته من العرب الأقحاح من التشويش والاتّهامات الكاذبة، فقد استغرق الأمر كثيراً من المداد وجهداً من الأقلام والكتّاب لنفي هذه التهمة الباطلة، والتي ساهم فيها «البغدادي»، ولو أدرك ما فعله هذا الرجل الزاخر بالمتناقضات لربّما انكفأ على وجهه وازداد نحوله ودمامة وجهه.

والحقّ أنّ الطبيب المذكور مليء بالنقائض، فالمؤرّخ «القفطي» يصفه وصفاً كاملاً لأنه التقى معه واختبره قائلاً: [تصانيفه في غاية

---

(١) براون ـ الطب العربي ـ ص ٢٢.

(٢) المصدر السابق ـ ص ٢٣.

البرودة والركاكة، وكان أنْ لاجتمع بصاحب علم فرض الكلام معه في ذلك العلم وتكلّم في غيره مغرباً، ولم يكن محقّقاً في شيء مما يقوله أو يدّعيه، ولقد اجتمعت به واخبرته فرأيته فيما يدّعيه كالأعمى الذي يتحسّس ويدّعي حدّة النظر، وما وثقت من روحي بذلك حتّى سألتُ جماعة من أهل علوم متفرّقة قد كان يدّعيها فذكروا من أمره بعد نظره وكلامه نظير ما علمته منه][1].

وهذا المؤلف كان لا يلتزم بأي أمانة علمية في التأليف والتصنيف حتّى قال عنه «حاجي خليفة» في (كشف الظنون): [إنّ كتاب الحيوان للبغدادي، ما هو إلاّ مختصر كتاب الحيوان لأبي القاسم هبة الله بن القاضي الرشيد، وكتاب الحيوان لابن أبي الأشعث][2].

وقد أورد صوراً حسية عنيفة في كتابه (الإفادة والاعتبار) حول المجاعة التي ألمّت بمصر نتيجة انحسار مياه النيل سنة (٥٩٧ ـ ٥٩٨ هجرية) وكان من نتيجتها أن ذكر لنا «البغدادي» أمثلة قاسية شنيعة حول انعدام القوت وقتها والجوع الحاصل، ممّا أدّى ـ حسب قوله ـ بالبعض إلى أكل لحوم البشر، وهذه القصص من التطرّف والشدّة بحيث لا يجاريها أي مشهد سينمائي من أفلام الرعب والإثارة[3].

ولكن البغدادي شخصية أثيرة لدى بعض المؤرّخين المعاصرين، فهو يوصف ـ بحسب الروايات المقترنة بالخيال بأنّه (أوّل) من اكتشف الأعراض المرضية فوضع علاجاً للمرض

---

(١) البغدادي ـ بول غليونجي ـ ص ٢٥.

(٢) المصدر السابق ـ ص ٣١.

(٣) المصدر السابق ـ ص ص ١٣٢، ١٤٢.

المعروف (داء البول السكري Diabetes)، وذلك في رسالته المعنونة (في المرض المسمى ديابيطس)، والواقع أنّ هذه (الرسالة) درسها وحقّقها «بول غليونجي» ولم يكتشف فيها أي شيء مبتكر أو ذا قيمة، بل كلّ ما أورده البغدادي لا يزيد على سرد أقوال الأطباء والحكماء السابقين أمثال «جالينوس» و«إريباسيوس» و«أهرن القس» و«الرازي» و«ابن سرابيون» وغيرهم، كما هاجم أقوال «ابن سينا» في هذا المجال ورماه بقلّة الخبرة وضعف المنطق، ويوضّح محقّق الكتاب[1]، بأن آراء «ابن سينا» وتشخيصه التفريقي للأسباب المؤدية لمرض السكري أدقّ وأفضل من «ابن اللباد» الذي خلط الأمور خلطاً عجيباً وخرج بنتائج وهمية مبنية على مقدّمات ليس لها أساس من الصحة، تعتمد الحذلقة والبراعة الكلامية وليس عن الملاحظة الواقعية، ومنهجه في التأليف قائم على مبدأ (خالِفْ تُعرَف)، ولم يصل إلى نتيجة ذات معنى أو بال تزيد عن أقوال سابقيه، بحسب المنظومة الطبية القديمة، وعليه فمن الحكمة أن نتحفّظ في استخدام ألقاب (أوّل من فعل كذا.. أو اكتشف كذا..) ولا نستخدمها إلاّ بعد برهان مؤكّد، وعلينا أن ندرك بأنّ [الحركة التاريخية للحياة الإنسانية تقوم على حقيقة أنّها لا ترتبط بموقف واحد معيّن، ومن ثمّ لا يمكن أن يكون لها أفق واحد مغلق][2].

(١) المصدر السابق ـ ص ٢٢١.

(٢) هانز جورج جدامر ـ المرايا المحدبة ـ سلسلة عالم المعرفة (٣٢٣) ـ الكويت ـ ص ٣٢٥.

حياة المؤلَف

قطب الدين أبو الثناء محمود بن مسعود بن مصلح الفارسي الشيرازي، ولد في مدينة (شيراز) سنة (٦٣٤ هـ/١٢٣٦م) وينتمي إلى عائلة من المتعلّمين، وتلقّى بداية علومه الطبية في يفاعته عن والده وأعمامه في مسقط رأسه، وقد أظهر تفوّقاً، ممّا أهّله في شبابه المبكّر أن يشغل وظيفة في بيمارستان (شيراز)[١]، ولكنّ طموحه وقدراته الفكرية كانا دافعاً لمواصلة تحصيله العلمي، فسافر إلى مدينة (مراغة)[٢] التي أسّس فيها «نصير الدين الطوسي» (ت ٦٧٢ هـ/ ١٢٧٤م) مرصداً فلكياً ومكتبة عظيمة، حيث أصبح من أشهر تلامذته وطلاّبه، واكتسب منه علوم الأوائل. وتُعتَبر إقامته بمراغة من أهمّ المراحل التي كوّنت شخصيّته العلمية، فأستاذه الطوسي، من أشهر علماء الفلك والرياضيات وصفه «سارتون» بقوله: (إنّه من أعظم علماء الإسلام ومن أكبر رياضيّيهم)[٣].

وبعد ذلك قام «الشيرازي» بسلسلة رحلات متواترة إلى (خراسان)، ثم انحدر إلى (فارس) و(العراق)، ثمّ (بلاد الروم) آسيا الصغرى، وتولّى منصب القضاء في مدينتي (سيواس)[٤] و(ملاطية)[٥].

---

(١) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام - ص ٢٦٧، ومن المصادر التاريخية الكثيرة التي تعرّضت لترجمة حياة «الشيرازي» نذكر منها:

أ - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة - ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) ج٤، ص٣٣.

ب - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة - جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) ص ٢٨٩.

(٢) مدينة إيرانية شرقي بحيرة أرمية، عاصمة هولاكو قديماً (المنجد: ص ٥٢٨).

(٣) سارتون: مقدّمة لتاريخ العلم (بالإنكليزية) - مج ٢ - ص ١٠٠٧.

(٤) مدينة تركية بشرق الأناضول، الزركلي: الأعلام، ج٧، ص ١٨٧.

(٥) مدينة تركية، المصدر السابق.

في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي بدأ العالم الإسلامي يخضع للحكم المغولي، ولم تجد جحافل المغول أي مقاومة تُذكر في اجتياحه، وتضرّجت (بغداد) عاصمة الخلافة العبّاسية بدمائها، وسقطت سنة (٦٥٦ هـ/١٢٥٨م)، وبعد موت «هولاكو» (٦٦٣ هـ/ ١٢٦٥م) وخليفته في الزعامة والحكم ابنه «اباقاخان» (٦٨٠ هـ/ ١٢٨٢م)، استلم السلطة أخوه «نيكودار» الذي أعلن اعتناقه الإسلام بعد ذلك، واتّخذ لنفسه اسم «أحمد» ودخل «الشيرازي» في خدمته، وانخرط في العمل الدبلوماسي والسياسي، وتذكر المصادر بأنّ الخان «أحمد» أرسله في سفارة إلى مصر، ليقابل الملك المنصور «سيف الدين قلاوون» (ت ٦٨٨ هـ/ ١٢٩٠م) ليبلغه اعتناقه الدين الإسلامي وأن يعقد معاهدة واتّفاقية سلام للتقرّب من المماليك، وطلب التحالف معهم، ولكنّ (المفاوضات تعثّرت لأنّ المصريين طلبوا ضمانات، لأنهم أدركوا أنّ رجال الطبقة الحاكمة والمتنفّذة في دولة المغول الفارسية ليسوا متحمّسين لتقليد سيّدهم في تغيير دينهم)[1].

ولكنّ «الشيرازي» أمضى وقتاً طويلاً في مصر مليئة بالجدّ والتحصيل، تمكّن خلالها من تنمية معلوماته الطبية بالاطّلاع على كتب ومؤلّفات أطبّاء بلاد الشام ومصر، ثمّ عاد شرقاً ليستقرّ في مدينة (تبريز) حيث توفّي سنة (٧١٠ هـ/ ١٣١١م)[2].

---

(١) برتولد شبولر ـ العالم الإسلامي في العصر المغولي ـ ص ٧٠.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ مج٧ ـ ص ٢١٣.

يوصف «الشيرازي» بأنّه فيلسوف، رياضي، فلكي، طبيب، عالم بالبصريّات، وذلك تبعاً لمؤلّفاته واهتماماته، والواقع أنّه من الخالدين الذين يحتلّون مكاناً سامياً في تاريخ تقدّم الفكر والطب والفلسفة، ومن ذوي المواهب النادرة والعبقريّة الفذّة، بامتداد حياته التي كانت تفيض نشاطاً وحيويّة وتحفل بالإنتاج والتأليف والإبداع؛ ومن ضمن مؤلّفاته المتعدّدة المتنوّعة:

الرياضيات:

- رسالة في حركات الدحرجة والنسبة بين المستوي والمنحني: وفيها بحوث تتعلّق بالخط المستقيم والخط المنحني وغيرهما.. وتُنسَب هذه الرسالة لمؤلّف مجهول، ولكن «سارتون» يؤكّد بأنّها تعود للشيرازي[١]، وتوجد نسختها المخطوطة في مكتبة (غوتا Gotha)[٢].

علم الفلك والجغرافيا:

- نهايات الإدراك في علم الأفلاك: وهو كتاب في الهيئة (رتّبه على أربع مقالات: الأولى في المقدّمة، والثانية هيئة الأجرام، والثالثة الأرض، والرابعة في مقادير الأجرام)[٣].

ويصفه «سارتون» بقوله: (والكتاب يحتوي على موضوعات مختلفة تتعلّق بالفلك والأرض والبحار والفصول والظواهر الجوّيّة

---

(١) سارتون: مقدمة لتاريخ العلم، ج٢، ص ١٠١٧.

(٢) كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي (بالألمانية) ـ مج ٢ ـ ص ٢٧٤.

(٣) حاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ـ مج ٢، ص ٦١٩.

والميكانيكا، وهو مبني على الكتاب الشهير (التذكرة في علم الهيئة) لأستاذه «نصير الدين الطوسي» الذي أورد فيه كثيراً من النظريات الفلكية، ولكنّ «الشيرازي» بذل جهده لعرضها بإتقان وإحكام مع توسيعها وتفصيلها وإضافة الجديد عليها، كما تضمّن مناقشة كاملة لآراء العالِم «ابن الهيثم» الفلكية)[١].

وتوجد من هذا الكتاب نسخ مخطوطة عديدة في مكتبات: برلين، ليدن، باريس، بودليان، كوبريلي، وغيرها[٢].

اختيارات المظفّري: منتخبات من كتاب (نهايات الإدراك)، وضعها باللغة الفارسية، وصفه «حاجي خليفة» بقوله: (ألّفه لمظفّر الدين بولق أرسلان.. وهو كتاب مفيد مشتمل على أربع مقالات حرّر فيها ما أشكل على المتقدّمين وذكر أنه ألّفه بعدما صنّف نهايات الإدراك)[٣]. وإحدى نسخه المخطوطة موجودة في مكتبة (الفاتح)[٤].

كتاب التحفة الشاهية في الهيئة:

مشابه لكتاب (النهايات) في عرضه، وقد شرحه فيما بعد «علي ابن محمد القوشجي» (ت ٨٧٩ هـ/١٤٧٤م)، وتوجد منه نسخ مخطوطة في مكتبات: البودليان وبرلين وغيرهما[٥].

كتاب فعلت فلا تلم في الهيئة، وكتاب التبصرة في الهيئة،

---

(١) سارتون: مقدمة لتاريخ العلم، مج٢، ص ١٠١٨.

(٢) كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي (بالألمانية) ـ مج ٢ ـ ص ٢٧٤.

(٣) حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ـ مج ٢، ص ٦٥.

(٤) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ملحق ثاني ـ ص ٢٩٧.

(٥) المصدر السابق.

وشرح التذكرة النصيرية في الهيئة، وكتاب خريدة العجائب[١]، وخلاصات من إصلاح المجسطي لجابر بن أفلح[٢].

البصريّات:

إنّ آراء «الشيرازي» القيّمة والهامّة في مجال البصريّات نجدها في أعماله الفلكية، ففي كتاب (النهايات) ناقش مسائل بصريّة حسابيّة، وطبيعة الرؤية وأخيراً ظاهرة (قوس قزح)، وهو الأوّل الذي قدّم تعليلاً وصفيّاً مقبولاً لقوس قزح، (باستثناء ألوانه)، وشرحها من خلال دراسة مسار شعاع الضوء في جسم كروي شفّاف (نقطة ماء)، فإنّ الشعاع ينكسر مرّتين وينعكس مرّة واحدة (أو مرّتين في حالة قوس قزح ثانوي)، وكان تلميذه العالِم «كمال الدين الفارسي» (ت٧٢٠ هـ/ ١٣٢٠م) قد صنّف كتاب (تنقيح المناظر)، شرح فيه كتاب (المناظر) لابن الهيثم، واعتمد على بحوث وآراء أستاذه الشيرازي، الذي كان عاملاً أساسياً في توضيح وتعريف بصريّات «ابن الهيثم»[٣]

علم الطب:

شرح الكليات: وهو كتاب طبي هام يتضمّن شرح (القانون) لابن سينا، وقد بدأ التفكير بإعداده في شبابه، واستغلّ فرصة إقامته في مصر لجمع موادّه، حسب ما رواه في مقدّمة الكتاب، وهي وثيقة ببليوغرافية هامّة عن حياته، وسمّاه (كتاب نزهة الحكماء وروضة الألبّاء)[٤] أو

---

(١) المصدر السابق، سارتون ـ مقدمة لتاريخ العلم، مج٢، ص ١٠١٨.

(٢) سارتون، مج٢، ص ١٠١٨.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

كتاب (التحفة السعيدية في الطب)[1]، وبحسب «بروكلمان» فالعنوان هو: (التحفة السعيدية، شرح كليات القانون)[2]، وقد أهداه إلى «محمد سعد الدولة» وهو طبيب من أصل يهودي عيّنه الخان «أرغون» (ت ١٢٩١م) وزيراً له[3].

وبالاستناد إلى المقدّمة المذكورة فإنّ «الشيرازي» استعان بكتابات الإمام المفسّر «فخر الدين الرازي» (ت ٦٠٦ هـ/ ١٢١٠م)، ومناقشات وشروحات الأطباء المعروفين أمثال: «هبة الله» بن جُميع (ت ٥٨٦ هـ/ ١١٩٠م) و«عبد اللطيف البغدادي» (ت ٦٢٩ هـ/ ١٢٣١م) و«أمين الدولة بن القف» (ت ٦٨٥ هـ/ ١٢٨١م) و«علي بن النفيس» (ت ٦٨٧ هـ/ ١٢٨٨م)[4].

وهناك أيضاً (شرح كليات القانون)[5]، وهو على الأغلب عنوان آخر أو تنقيح آخر أو دراسة نقدية للكتاب السابق[6].

- رسالة في بيان الحاجة إلى الطب وآداب الأطبّاء ووصاياهم، وهو النصّ المخطوط موضوع التحقيق في هذا الكتاب.

- رسالة في البَرَص، وتوجد نسختها المخطوطة في مكتبة (برلين)[7].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، مج ٢، ص ٢٧٤.

(٣) برتولد شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص ٧٠.

(٤) سارتون: مقدمة لتاريخ العلم، مج ٢، ص ١٠١٩.

(٥) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، مج ٢، ص ٢٧٤.

(٦) سارتون: مقدمة لتاريخ العلم، مج ٢، ص ١٠١٩.

(٧) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، مج ٢، ص ٢٧٤.

- شرح أرجوزة «ابن سينا»[١].

- الرسالة المنسوبة إليه في أمراض العين، وقد ذكرها الأستاذ «هيرشبرغ»[٢].

الرسائل الموسوعية:

- درّة التاج لغرّة الديباج في الحكمة[٣]: وقد ألّفه باللغتين العربية والفارسية، قال عنه «حاجي خليفة»: (وهو المشهور بأنموذج العلوم جامع لجميع أقسام الحكمة النظرية والعملية)[٤]، هذه الموسوعة الفلسفية تتوفّر بعض نسخها المخطوطة في مكتبات: برلين، فينا، كوبريلي[٥].

الرسائل الفلسفية:

- شرح حكمة الإشراق، وهو شرح لكتاب (حكمة الإشراق) لـ«يحيى السهروردي» قال عنه «حاجي خليفة»: (حكمة الإشراق للشيخ شهاب أبي الفتح يحيى بن حبيش السهروردي المقتول بحلب سنة ٥٨٧ هـ، وهو متن مشهور شرحه الأكابر كالعلاّمة قطب الدين، وشرحه ممزوج مفيد، قيل في هذا الشرح كلمات لا يمكن تطبيقها على الشرع الشريف، أقول: لعلّ القائل ممّن لا يقدر على تطبيقها ولا يلزم من عدم قدرته عدم الإمكان، لأنّ التطبيق والتوفيق عند

---

(١) سارتون: مقدمة لتاريخ العلم، مج ٢، ص ١٠١٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، مج ٢، ص ٢٧٤.

(٤) حاجي خليفة: كشف الظنون، مج ١، ص ٤٨٣.

(٥) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ملحق ثاني، ص ٢٩٦.

الشارح الفاضل وأمثاله أمر هيّن)[1].

القرآن والحديث:

في أواخر حياته نحا الشيرازي نحو التصوّف، واهتمّ بالمسائل الدينية، فصنّف في القرآن الكريم والحديث الشريف بعض المؤلّفات منها:

- فتح المنّان في تفسير القرآن[2].

- في مشكلات القرآن[3].

- شرح كتاب (الكشّاف عن حقائق التنزيل) لـ«أبي القاسم محمود الزمخشري»[4] (ت ٥٣٨ هـ/ ١١٤٤م).

كما ذكر «كارل بروكلمان» قائمة إضافية من مصنّفات «الشيرازي» منها[5]:

- شرح كتاب (مختصر السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل) لـ«عثمان بن الحاجب» (ت ٦٤٦ هـ/١٢٤٩م).

- شرح المفتاح، وهو شرح كتاب (مفتاح العلوم) لـ«يوسف السكّاكي» (ت ٦٢٦ هـ/١٢٢٩م).

---

(١) حاجي خليفة: كشف الظنون، مج ١، ص ٤٤٩.

(٢) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ملحق ثاني، ص ٢٩٧.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

- شرح حكمة العين. ٨١ ٠
- حاشية على الإشارات.
- مشكل الإعراب.
- رسالة في إثبات الواجب.
- الزيج السلطاني.
- الزيج الجديد الرضواني.

* * *

وصف النسخ الخطية

النسختان المخطوطتان المعتمدتان في التحقيق اثنتان:

ـ النسخة الأولى:

العنوان: رسالة في بيان الحاجة إلى الطب وآداب الأطباء ووصاياهم، وهي موجودة في دار الكتب القومية بالقاهرة[١] ـ الرقم العام ٣٥٩٧ل. وقد رمز لها في التحقيق (م).

عدد الأوراق: ٥٧ ورقة.

قياس الورقة: ١٧٠ × ٢١٠ ملم.

المسطرة: ٢١ سطراً في الورقة الواحدة.

نوع الخطّ: نسخي جميل.

لون الخطّ: أسود.

الحالة العامّة للمخطوطة: جيدة.

يبتدئ النصّ المحقّق من الورقة (١/ب) بعد البسملة، كما يلي:

(بعد حمد الله ربّ العالَمين وصلواته على خير خلقه محمد وآله وصحبه ومَنْ تبعهم إلى يوم الدين، فيقول المولى الإمام الفاضل المحقّق. . .)

---

(١) مصوّر ميكروفيلم بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة، رقم ٢٣٦ طب.

وينتهي النصّ المحقّق مع نهاية الورقة (٥٧/ب):

(. . . أصلح الله لمن كتب هذه الرسالة ولوالديه ولإخوانه الحال ولمن دعا له، آمين).

اسم الناسخ: عبده حسن بن علي بن أحمد الفيّومي.

تاريخ النسخ: الثالث من شهر ذي الحجّة ١٣٠٢ هجرية.

كما ورد على الورقة الأولى (١/أ) ما يلي:

هذه رسالة في بيان الحاجة إلى الطب وآداب الأطبّاء ووصاياهم، للشيخ العلاّمة المحقّق المدقّق الكامل قطب الملّة والشريعة والدين محمود بن مسعود الشيرازي، تغمّده الله بغفرانه، آمين.

كما يوجد ختم دار الكتب المصرية.

ـ النسخة الثانية:

العنوان: رسالة في بيان الحاجة إلى الطب وآداب الأطبّاء ووصاياهم.

وهي موجودة أيضاً في دار الكتب القومية بالقاهرة، تحت رقم عام (١٤١ طب)[١]، وقد رمز لها في التحقيق بالرمز (ط).

عدد الأوراق: ٤٢ ورقة.

قياس الورقة: ١٧٥ × ٢٣٥ ملم.

---

(١) برركلمان: تاريخ الأدب العربي، ملحق ثاني، ص ٢٩٧.
صلاح الدين المنجّد: مصادر جديدة عن تاريخ الطب عند العرب، مجلة معهد المخطوطات العربية ـ مج ٥، ج٢، ص ٣١١.

المسطرة: ١٨ سطراً في الورقة الواحدة.

لون الخطّ: أسود، وقد كتبت بعض الكلمات بالمداد الأحمر.

الحالة العامّة للمخطوط: جيدة.

يبتدئ النصّ المحقّق من الورقة (١/ب) بعد البسملة كما يلي:

(بعد حمد لله ربّ العالمين وصلواته على خير خلقه محمد وآله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين، فيقول المولى الإمام الفاضل المحقّق الكامل...).

وينتهي النصّ المحقّق مع نهاية الورقة (٤٢/أ) بالبيت الشعري التالي [من الطويل]:

ستبقى خطوطي في الدفاتر برهة
وأنملتي تحت التراب رميم

اسم الناسخ: كمال الدين بن ظهير الدين بن اعتبار الدين المتطبّب.

تاريخ النسخ: منتصف شهر محرّم سنة ٩١٣ هجرية.

كما توجد نسخة ثالثة مخطوطة في مكتبة «أحمد الثالث» (تركيا) تحت رقم ٧٣٣٠[١].

---

(١) رمضان ششن ورفاقه: فهرست مخطوطات الطب الإسلامي باللغات العربية والتركية والفارسية، ص ٤٠٢.

اسلوب التحقيق

اتّخذتُ نسخة (ط) الأصل في التحقيق، وتمّت مقابلتها مع النسخة الأخرى لدار الكتب القومية المصرية (م).

ولمّا كانت نسخة (ط) قد دُوِّنتْ بعد وفاة مؤلّفها بحدود مائتي عام، وعباراتها أكثر وضوحاً وأقلّها تصحيفاً وتحريفاً، فقد كتبتُ النصّ المحقّق بعد مقابلة النسختين (ط) و(م) معتمداً على النسخة (ط) مع معارضة كلّ كلمة جاءت بما يقابلها في النسخة (م)، وأشرتُ في هامش التحقيق إلى ما اختلفت فيه النسختان من الخطأ والنقص والزيادة.

وفي حال اختلاف عبارة أو كلمة بين النسختين وذلك في حالات قليلة، أثبت ما أرتئيه أكثر صحّة وانسجاماً مع أسلوب المؤلّف ومتوافقاً مع السياق العام المنطقي للنصّ، وأشرت إلى ما ورد في الحواشي ومهما كانت الاختلافات بسيطة.

يخلو النصّ الأصلي في كلتا النسختين من ظاهرة التفقير (التقسيم إلى فقرات) وعلامات الوقف مثل نقاط أو فواصل أو رجوع إلى أوّل السطر، وكلّها أمور تداركتها عند التحقيق، وقد حافظتُ على الشكل العام للنصّ كما ورد مع إبراز العناوين الرئيسية وإفرادها لتسهيل قراءة النصّ.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ زمن نسخ المخطوطة من حيث قدمه وحداثته لا يعتبر عاملاً رئيسياً أو معياراً يدخل في تقييم المخطوطة من الناحية العملية، وذلك لأنّ أمانة الناسخ ودقّته هي التي تقيّم جودة المخطوطة، فالنسخة (م) تدلّ على أنّ الناسخ ضعيف باللغة

العربية لأنّه يحاول أن يرسم كلّ كلمة لا يفقه معناها بشكل أقرب ما يكون إلى الصحّة، وقد راعيتُ في التحقيق ما يلي:

١ ـ قمتُ بتصويب الأخطاء النحوية واللغوية والإملائية بدون أن أشير إلى ذلك في الحواشي.

٢ ـ لعدم وجود وحدة كتابية متّفق عليها بين النُّسّاخ في الدولة الإسلامية في العصور كافّة، ممّا أدّى إلى اختلاف الناسخين في (ط) و(م) في طريقة رسم الكلمات، عن طريقة الرسم الإملائي المعتمد في الوقت الحاضر في الكتابة، فقد عمد الناسخان إلى قلب الهمزة ذات الكرسي إلى ياء، مثل:

رسم الناسخ (ط) و(م) للكلمة	تصحيح الكلمة
حقايق	حقائق
طبايع	طبائع
ساير	سائر
الدلايل	الدلائل
العجايب	العجائب
الغرايب	الغرائب
فايدة	فائدة
خايفاً	خائفاً

٣ ـ كما أوردتُ الكلمات المحذوفة ألفها كما تُكتب اليوم كما يلي:

(ثلاثة) بدلاً من (ثلثة) (ط، م).

(الحياة) بدلاً من (الحيوة) (ط، م).

٤ ـ كما رسمتُ الكلمات بحسب القواعد المثبتة حالياً وبحسب الرسم الإملائي الحالي لها، فوضعتُ المدّات والشدّات وحذفتُ همزات الوصل وأثبتُّ همزات القطع.

٥ ـ وضعتُ بين حاصرتين [ ] الكلمات التي تبرز الضرورة إضافتها لاستقامة المعنى ووضوحه، وقد أشرتُ إلى ذلك في الحواشي.

٦ ـ وضعتُ خطّاً مائلاً في المتن عند نهاية كلّ صفحة من صفحات نسخة المخطوط (ط) ورقمها، ورمز لوجه الصفحة بالرمز (أ) ورمز لظهر الصفحة بالرمز (ب).

وقد راعيتُ الشروح والإضافات التالية للنصّ من خلال:

١ ـ مقابلة نسختي المخطوطة (ط) و(م) مع بعضهما باعتماد الطريقة المنهجية المقارنة.

٢ ـ وضع الفهارس والجداول اللازمة لخدمة النصّ وشرحه وإغنائه، وكشف المصطلحات العلمية غير المتداولة حالياً وهي:

أ ـ فهرس بأسماء الأعلام الواردة في المخطوط.

ب ـ فهرس بأسماء الكتب الواردة في المخطوط.

ج ـ فهرس بأسماء النباتات الواردة في المخطوط.

د ـ فهرس مصطلحات الأمراض الواردة في المخطوط.

هـ ـ فهرس المصطلحات التشريحية الواردة في المخطوط.

هذه رسالة في بيان الحاجة
الى الطب وآداب الأطباء
ووصاياهم للشيخ العلامة
المحقق المدقق الكامل
قطب الملة والشريعة
والدين محمود
ابن مسعود
الشيرازي

الله
بغفرانه
آمين
م

المخطوطة (م)

هذه رسالة في الطب للشيخ الشيرازي

بسم الله الرحمن الرحيم

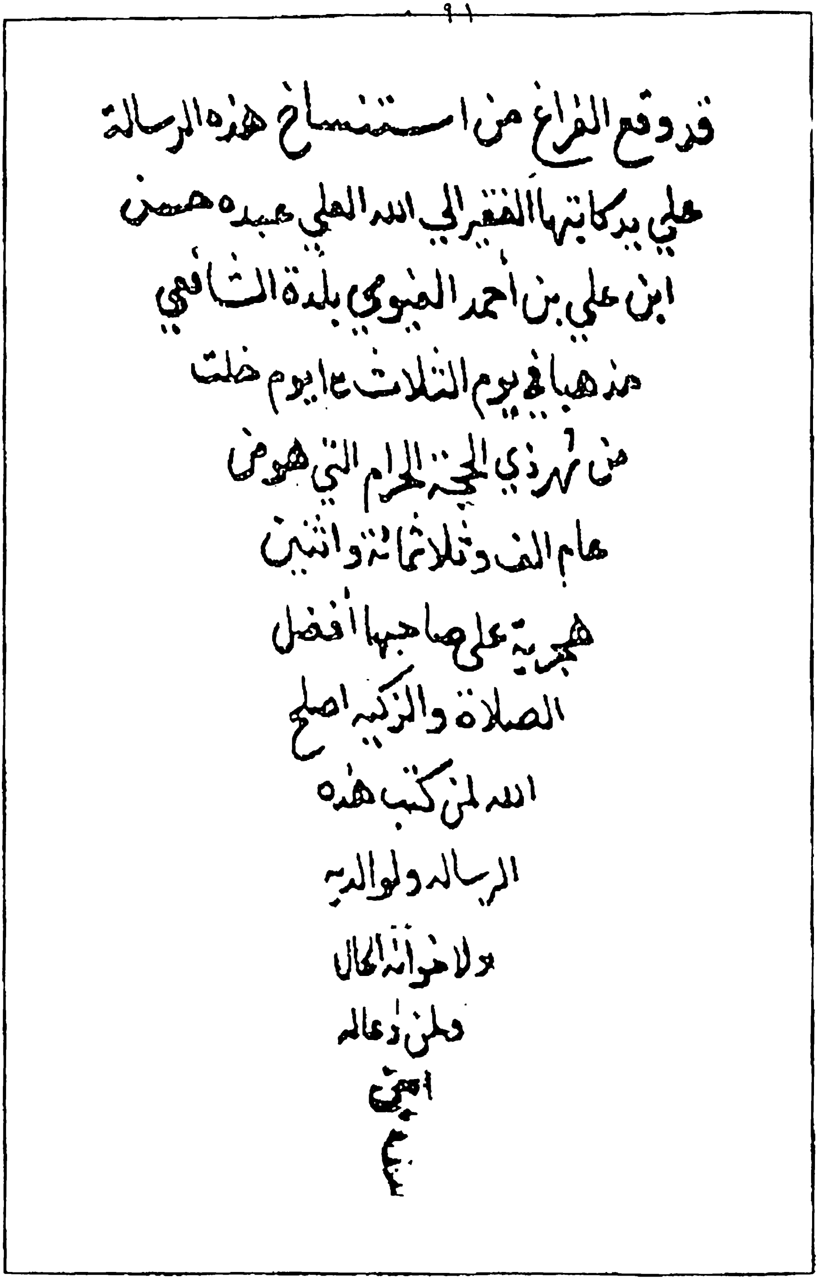
بعد حمد الله رب العالمين ٥ وصلواته على
خير خلقه محمد ٥ واله وصحبه ومن تبعهم
الي يوم الدين فيقول المولي الامام الفاضل المحقق
المدقق الكامل ٥ قطب الملة والشريعة والدين
محمود بن مسعود الشيرازي تغمده الله بغفرانه
وقد جرت العادة في فواتح العلوم ببيان شرف
العلم الذي يشرع فيه وايضا في بعضها ببيان
ما يحتاج اليه العالم بذلك من العلوم والاخلاق
والصفات كما في الطب فلنذكره في ثلاثة
فصول ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ الفصل الاول
في بيان شرف هذا العلم ووجه الحاجة اليه
بالمعقول والمنقول فاما المعقول وانا اشرنا اليه
في صدر الكتاب لكنا نقرره هاهنا على طريقة
اخري وهي ان العلم انما يكون افضل من
غيره لاحد امور ثلاثة احدها ان يكون موضوعه
اشرف

الورقة الأولى من المخطوط (م)

١١٦

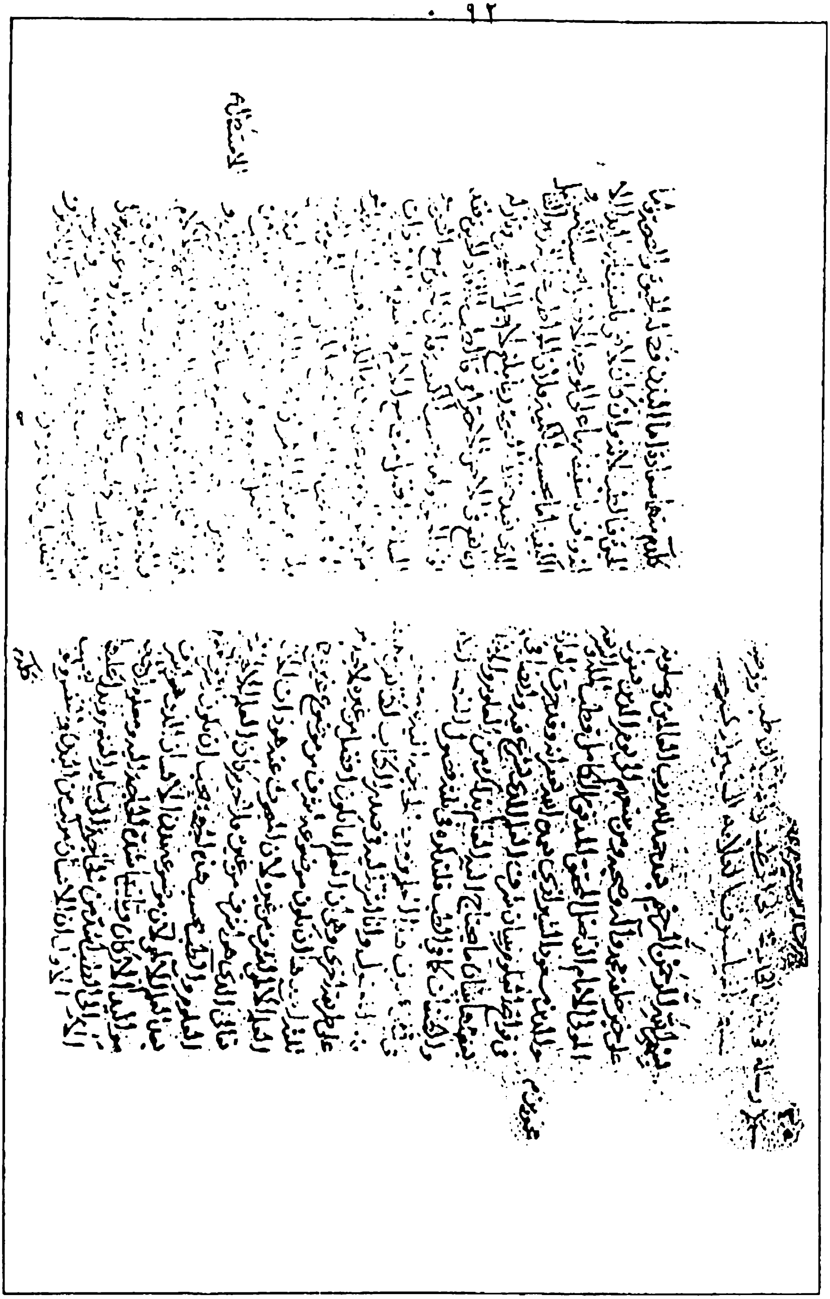
العلامة رحمه الله تعالى في هذه الوصية
جواهر من الحلم ودررًا من الكلم تنفع المصنف
وتفيد المتأمل من ذوي العقل والتحصيل لا من
ذوي الجهل والتجهيل والحسد والتخييل
فان الجاهل المحسود يرى الحسنات ويتبع العثرات
وان الجهلة من الاطبا اكثر من المهرة وان لكل
امرئ ما نوى في الدنيا والآخرة فهذا ما اوردنا
من كلام لطيف الجواهر والفرائد كثير المعاني والفوائد
مسعود الزمان ومحمود البيان قطب دائرة الافكار
كالشمس في فلك الانوار من قال برحمه الله فقد رحمه الله
بالحمد لله والصلاة على محمد رسول الله واله وصحبه اجمعين
وقع الفراغ من استنساخه في منتصف شهر محرم الحرام
لسنة ثلاث عشر وسبعماية الهجرية المصطفوية
صلى الله عليه وعلى اله وبارك وسلم في بلدة جرون
حماها الله تعالى من الافات علي بن العبد الفقير
الضعيف المحتاج الى رحمة الله الملك المعبود كمال الدين
ابن ظهير الدين بن اعتبار الدين المتطبب اصلح الله
احوالهم في الدارين امين بجاه محمد واله تاريخ النسخة القديمة
ستبقى خطوطي في الدفاتر برهة وانملتي تحت التراب رميم

الورقة ما قبل الاخيرة من المخطوط (م)

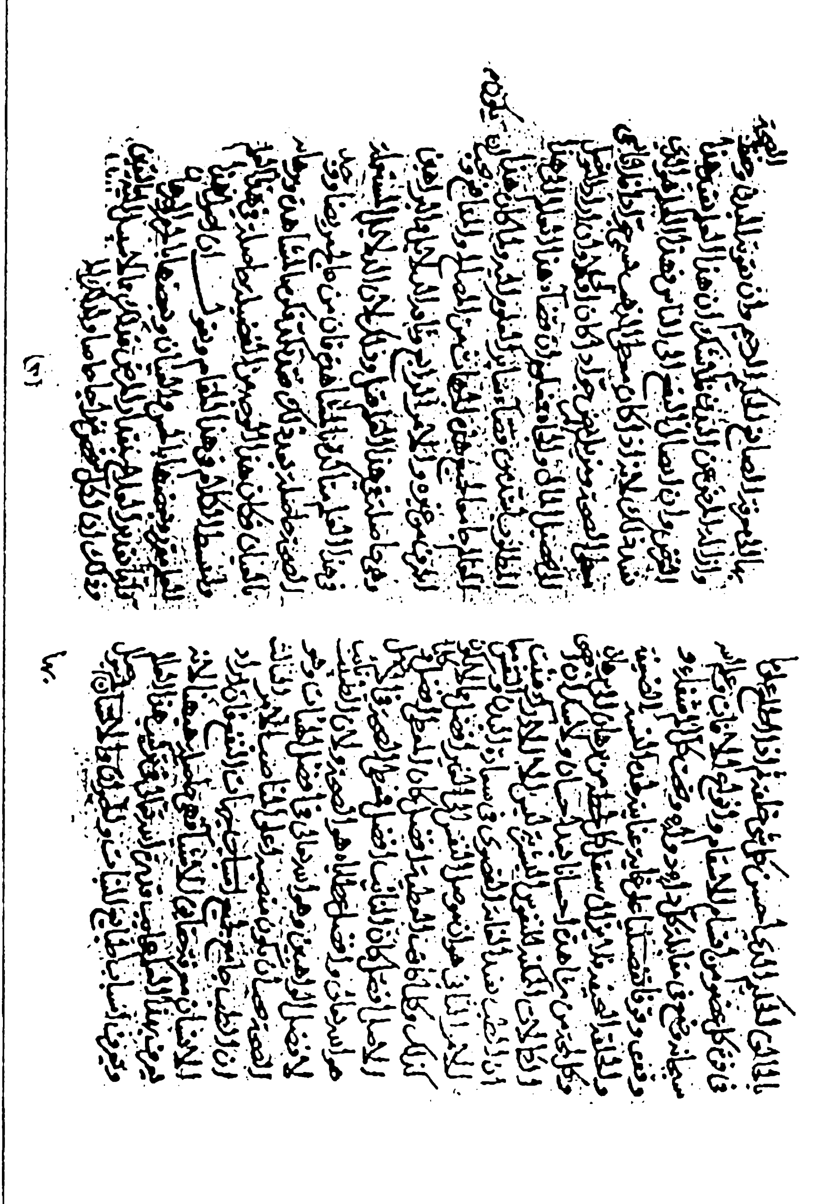


قد وقع الفراغ من استنساخ هذه الرسالة
على بركاتها الفقير الى الله العلي عبده حسن
ابن علي بن أحمد الفيومي بلدة الشافعي
مذهبا في يوم الثلاثاء ١٤ يوم خلت
من شهر ذي الحجة الحرام التي هو من
عام ألف وثلاثمائة واثنين
هجرية على صاحبها أفضل
الصلاة والتزكية اصلح
الله لمن كتب هذه
الرسالة ولوالديه
ولاخوانه الكل
ولمن دعا له
امين
تم

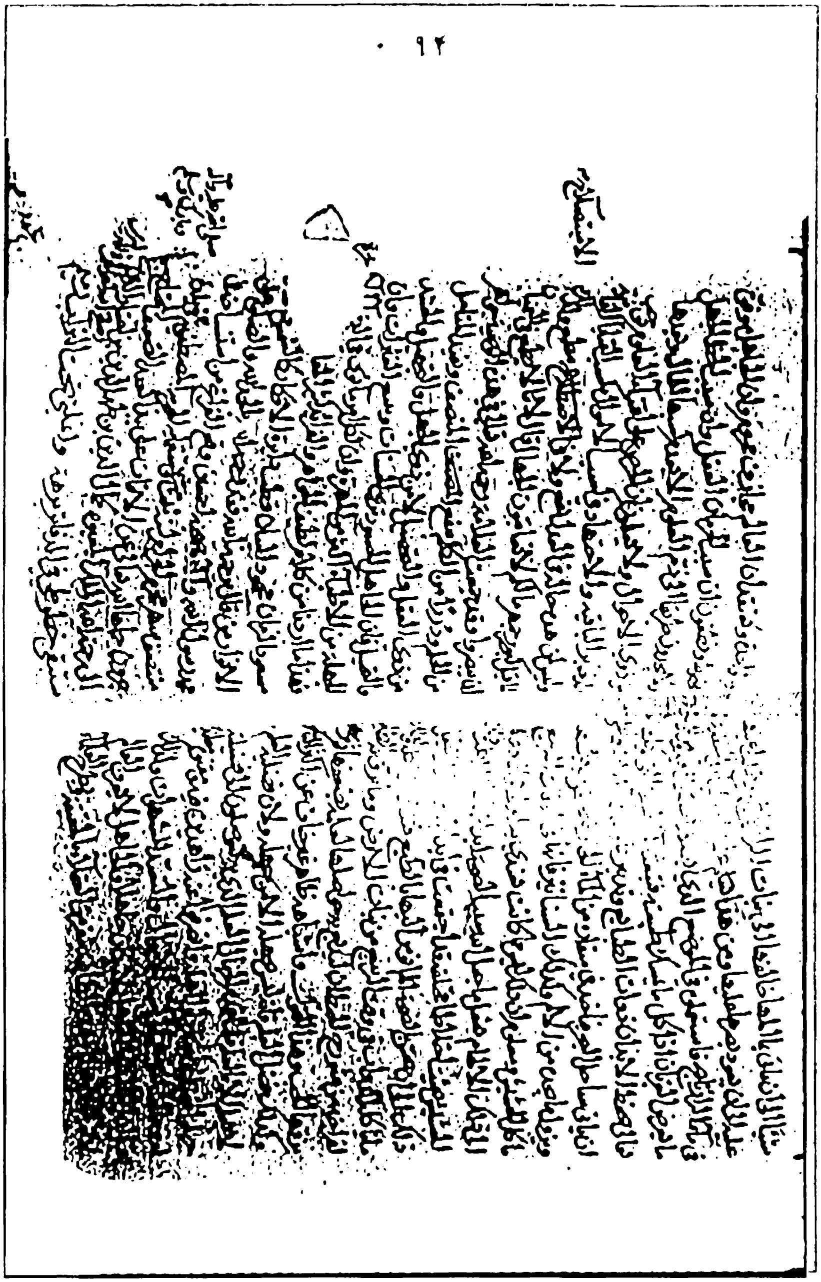
الورقة الاخيرة من المخطوط (م)



الورقة الأولى من المخطوط (ط)



الورقة الثانية من المخطوط (ط)



الورقة الاخيرة من المخطوط (ط)

هذه رسالة في بيان الحاجة إلى الطب
وآداب الأطبّاء ووصاياهم

للشيخ العلاّمة المحقّق المدقّق الكامل
قطب الملّة والشريعة والدين

محمود بن مسعود الشيرازي

تغمّده الله بغفرانه
آمين

هذه رسالة في الطبّ للشيخ الشيرازي

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد حمد الله(١) ربّ العالَمين وصلواته على خير خلقه محمّد وآله وصحبه ومَنْ تبعهم(٢) إلى يوم الدين، فيقول المولى الإمام الفاضل المحقّق المدقّق قطب الملّة والشريعة والدين محمود بن مسعود الشيرازي تغمّده الله بغفرانه، وقد جرت العادة في فواتح العلوم ببيان شرف العلم الذي يشرع فيه، وأيضاً في بعضها ببيان ما يحتاج إليه العالم بذلك من العلوم والأخلاق والصفات، كما في الطبّ، فلنذكره في ثلاثة فصول:

---

(١) لله: ط.

(٢) يتبعهم: ط.

الفصل الأول

في بيان شرف هذا العلم

ووجه الحاجة إليه بالمعقول والمنقول

٩٨ .

فأمّا المعقول وإنّا أشرنا إليه في صدر الكتاب لكنّا نقرّره ها هنا على طريقة أخرى وهي أنّ العلم إنّما يكون أفضل من غيره لأحد أمور ثلاثة:

أحدها: أن يكون موضوعه أشرف من موضوع غيره، كما العلم الإلهي أشرف من غيره لأنّ المبحوث عنه هو ذات الإله سبحانه[١] وتعالى الذي هو أشرف من غيره، فلا جَرَم [إن][٢] كان العلم الإلهي أشرف العلوم، والطبّ بحسب هذه الجهة يجب أن يكون أشرف العلوم بعد العلم الإلهي، لأنّ موضوعه بدن الإنسان الذي هو أشرف مواليد الأركان.

وثانيها: شدّة الحاجة إليه، ومعلوم أنّ الحاجة إلى الطبّ أشدّ من الحاجة إلى سائر العلوم، ويدلّ عليها أمور، الأوّل: أنّ الإنسان مركّب من البدن والنفس، ولو بحسب كلّ واحد[٣]/ منهما سعادة، [١٢أ] أمّا البدن فكماله الحياة والصحّة، وأمّا الحياة فبالطبّ لأنّه وإن كان لا يفي باستيفائها أبداً، إلاّ أنّه وافٍ باستيفائها على الوجه الأفضل بحسب الكمية والكيفية، أمّا بحسب الكمية فلأنّ المواظب على التدبير الفاضل الذي يفيد حفظ الصحّة، ربّما بلغ الأجل الطبيعي وتاركه ربّما يقع في الأجل الاحتراقي، فالطبّ لما أفاد الحياة فقد أفاد الحياة، وأمّا بحسب الكيفية فلأنّ الحياة مع الصحّة والسلامة أفضل منها مع الألم والسقم، والطبّ وافٍ من بعض الوجوه بإعطاء هذه الكيفية، فثبت أنّ الطبّ هو الوافي بإعطاء الكمال الممكن

---

(١) سبحانه: ساقطة، ط.

(٢) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

(٣) واحد: ساقطة، ط.

بحسب الحياة والصحّة، ولما كان هذان الأمران أفضل الأحوال الجسدانية، كان الطبّ أفضل العلوم.

وأمّا النفس فانتفاعها بالطبّ من وجهين، أوّلهما أنّ النفس لا يمكنها الاستكمال في قوّتها النظرية وقوّتها العملية إلاّ بعد سلامة البدن، فإنّ المبتلى بالآلام والأسقام قلّما يتفرّغ لتكميل المعارف والأخلاق، وثانيهما: أنّ الطبيب إذا عرف بالتشريح ما أودعه الله تعالى من العجائب والغرائب في هذا البدن النحيف والتركيب الضئيل كان ذلك من أقرب الوسائل له إلى الاعتراف/ بالخالق الحكيم الذي [٢ب] أحسن كلّ شيء خلقه، ثمّ إذا اطّلع على ما في قوّة كلّ عضو من أقسام الأسقام وأنواع الآفات وعلم الله سبحانه [أنّه][1] وضع في مقابلة كل داء دواء وتحت كلّ ألم شفاء، ووقف وقوفاً تفصيلياً على غاية عنايته لهذه النسبة الضعيفة والخلقة النحيفة، فلا يزال ينتقل كلّ لحظة من برهان إلى برهان، وكل لمحة من مشاهدة إحساناً بعد إحسان، ولا شكّ أنّ أقصى الكمالات الممكنة للنفوس البشرية ليس إلاّ الإدراك[2]، فثبت أنّ الطبّ يفيد الغاية الوسطى في سعادة البدن والنفس معاً، الأمر الثاني: هو أنّ موصل النفس إلى الخير أفضل من أن[3] لا تكون كذلك، وكلّما كانت العطيّة أفضل كان المعطي أفضل، وكلّما كان[4] الأصل أفضل كان النائب أفضل، فمعطي الصحّة في الأصل هو الله تعالى، وأفضل عطاياه هو الصحّة، ولأنّ

---

(١) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

(٢) الادرك: ط، تصحيف.

(٣) وردت (ممّا) في: ط، م، والصواب ما أثبتناه.

(٤) كانت ساقطة، ط.

الطبيب نائب لأفضل الواهبين، وهو الله تعالى، في أفضل الهبات، وهو الصحّة، يجب أن يكون منصبه أعلى المناصب.

الأمر الثالث: أنّ الطبّ جامع لجميع جهات النفع، فإن أراد الإنسان معرفة حقائق الأشياء فهي حاصلة ها هنا لأنّه يعرف بهذا العلم عجائب قدرة الله تعالى في تركيب هذا العالم، ويعرف أسباب
طبائع النبات والحيوان والإنسان، ويتوصّل[١] بها/ إلى معرفة الصانع [١٣]
الحكيم الرحيم وتقوية[٢] البدن وحفظ الصحّة وإزالة المرض عن البدن، فلا شكّ أنّ هذا العلم يفيد هذا الغرض. وإيصال[٣] النفع إلى الناس فهذا العلم هو الذي يفيد ذلك، لأنّه إذا كان معطي الذهب يسمّى جواداً فلأن[٤] يسمّى معطي الصحّة ومزيل المرض جواداً كان أولى، وإن أراد التوصّل إلى تحصيل المال والجاه فمعلوم أنّ قضاء هذا العلم[٥] إلى هذا المطلوب أشدّ من قضاء سائر العلوم إليه. ولمّا كان هذا العلم جامعاً لجميع هذه الجهات من المصالح والمنافع وجب[٦] أن يكون أشرف من غيره.

والأمر الرابع: وثاقة الدلائل والبراهين، وهي حاصلة في هذا العلم، وذلك لأنّ الدلائل المستعملة في هذا العلم متأكّدة بالمشاهدة، فإن مَنْ عالج مريضاً ووجد الصحّة حاصلة بعد ذلك فقد

---

(١) وردت: (لم يتوصّل) في ط، م، والصواب ما أثبتناه.

(٢) وأن بقوة: م.

(٣) وإنّ إيصال: م.

(٤) فلانا. ط، م.

(٥) العالم: ط، م.

(٦) ويجب: ط، م.

كذ[1] فكره بالمشاهدة وبرهانه بالعيان فكان هذا الوجه من الفضيلة حاصلاً[2] في هذا العلم. ولنبسط الكلام في هذا المقام ونقول: إنّ أصول هذا العلم مقرّرة بعضها بالحسّ والعيان وبعضها بالجزم والبرهان، وأمّا تقدير العلاج بمقدار المرض فذلك ممّا لا سبيل إليه باليقين، وذلك أنّ لكلّ شخص مزاجاً خاصّاً، ولذلك المزاج طرفا إفراط/ وتفريط وحدّ معيّن وهو غاية الاعتدال[3] الحقيقي، فمقدار [٣ب] انحرافه عن اعتداله الحقيقي ممّا لا سبيل إليه إلاّ بالظنّ والتخمين ومعرفة قوى الأدوية في قوّتها وضعفها أيضاً ممّا لا سبيل إليه إلاّ بالظنّ والتخمين، فلا جَرَم [إن][4] كان المقصد الأقصى في تقدير الدواء بحسب قوّة العلّة ممّا لا سبيل إليه إلاّ بالظنّ والحدس، وأمّا اليقين فكلا إذ لا سبيل إليه أصلاً.

قال كاتب: صناعة الطب مقصّرة عمّا يحتاج الإنسان إليه، وذلك لأنّ الأمراض منها ما يبرأ منها صاحبها ومنها ما لا يبرأ، ومنها ما يبرأ أكثرهم ويموت أقلّهم، ومنها هو بالضدّ، ومنها ما يتساوى فيه الأمران، والطبيب عندهم في أكثر الأمور ملوم[5] لأنّهم يظنّون أنّ الطبيب مقصّر ولا يعلمون أنّ كثيراً من العلل لا علاج لها[6] البتّة، ولأجل اختلاف الأمزجة الشخصيّة [فكثيراً][7] ما نرى

---

(١) نكد: ط، م.
(٢) حاصلة: ط، م.
(٣) اعتدال: ط، م.
(٤) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.
(٥) ملوم: م.
(٦) له: ط، م.
(٧) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

إنساناً يمرض بأدنى سبب وآخر لا يمرض مع إفراطه في تناول الأغذية الرديئة، ونرى عليلاً يتناول شيئاً مضرّاً له فينتفع به ويبرأ من مرضه ويتناول دواءً نافعاً فيستضرّ به ويتألّم به، ما ذاك إلاّ بسبب اختلاف الأمزجة، فيجب على الطبيب أن يكثر مشاهدته للمرضى وأن يكتب ما يشاهد من الأحوال العجيبة ليتفكّر فيها ويبحث عن أسبابها حتّى ينضمّ[1] إلى ما عرفه من القوانين القياسية ما شاهده من الأمور التجريبية، فيصير قويّ المنّة عظيم الدرجة في هذا العلم/[2] [١٤]

واحتجّ الطاعنون في هذا العلم بأمور، أحدها: أنّ الطبيب يموت ويمرض، فلو أفاد الطبّ هذا النفع لما كان كذلك، وثانيها: أنّه إذا كانت[3] الغاية الموت فأيّ نفع في الطبّ؟ وثالثها: أنّ الله تعالى إنْ قدّر الصحّة فلا حاجة إلى الطبّ وإن قدّر المرض فلا فائدة في الطبّ.

والجواب عن الأوّل: أنّا لا نقول الغرض في الطبّ دفع الموت، بل الغرض منه[4] إبقاء الصحّة ودفع المرض مدّة الحياة بقدر الإمكان، ومعلوم أنّ هذه الحياة، وإن كانت منقطعة، إلاّ أنّها مع الصحّة أولى منها مع المرض، وهذا هو الجواب عن الثاني، وعن الثالث إنّه باطل تفصيلاً وإجمالاً، أمّا تفصيلاً فالله تعالى إن قدّر الصحّة فلا حاجة إلى الطبّ لجواز أن يكون تقدير الصحّة بواسطة الطب، كما قلنا في الجواب عن الثاني، وهو أنّ الحياة،

---

(١) وردت (ما ينضم) في ط، م، والصواب ما أثبتناه.

(٢) العالم: ط، م، خطأ.

(٣) كان: ط، م، خطأ.

(٤) منه: ساقطة، ط.

وإن كانت تنقطع لا تصحّ فهي مع الصحّة أولى منها مع المرض، وأمّا إجمالاً فلأنّه لو صحّ ما ذكروه لزمهم أن لا يشتغلوا بشيء من الطاعات، لأنّ الله تعالى إن قدّر السعادة فلا حاجة إلى الطاعة، وإن قدّر الشقاوة فلا فائدة في الطاعة، وأيضاً لا يأكلون[١] شيئاً لأنّ الله تعالى إن قدّر الشبع فلا حاجة إلى الأكل، وإن قدّر الجوع فلا فائدة في الأكل/. ولمّا كان هذا باطلاً فكذا ما قالوه، وبعض ما ذكرنا [٤ب]
وإن تكرّر فلا بأس به لأنّ إيراد ما ذكرنا في فاتحة القسم العملي أولى من النظري على ما لا يخفى.

وأمّا المنقول، فالأوّل قوله تعالى في سورة النحل: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾[٢].

والثاني قوله عليه الصلاة والسلام: (ما أنزل الله من داء إلاّ له شفاء عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ وجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ)[٣].

والثالث قوله عليه الصلاة والسلام: (إنّ لكلّ داءٍ دواء، فإذا أصاب دواءُ الداء برئ بإذن الله تعالى)[٤].

والرابع قوله عليه الصلاة والسلام: (تداووا فإنّ الله لم يخلق داءً إلاّ خلق له شفاء، إلاّ السام، والسام هو الموت)[٥].

---

(١) باكلوا: ط، م، خطأ.

(٢) سورة النحل: ٦٩.

(٣) رواه البخاري في الطب رقم ٥٣٥٤، وأخرجه ابن ماجة في كتاب الطب، حديث رقم ٣٤٣٨.

(٤) صحيح مسلم: باب لكل داء دواء واستحباب التداوي، حديث ٦٩ ص ١٧٢٩.

(٥) رواه أبو داود عن أبي سعيد الخدري في كتاب الطب رقم ٣٨٥٥ . وابن ماجة في كتاب الطب رقم ٣٤٣٦.

والخامس قوله عليه الصلاة والسلام لمّا مرض رجل في عهده وقال ادعوا له الطبيب، فقالوا: يا رسول الله هل الطبيب يُغني من شيء؟ قال: نعم، ما أنزل الله من داء إلاّ أنزل له شفاء[١].

والسادس قوله عليه الصلاة والسلام: (الدواء[٢] من القَدَر)[٣].

والسابع قوله عليه الصلاة والسلام في جواب ما سُئِلَ عنه: (أرَأيتَ دواءً يُتداوى به ورقىً يُسترقى بها تردّ من قَدَرِ الله؟)[٤].

والثامن قوله عليه الصلاة والسلام: (خير ما تداويتم به السعوط واللدود والحجامة والمشي[٥]، وفي بعض الروايات العلق)[٦].

والتاسع قوله عليه الصلاة والسلام: (عليكم بالحجامة[٧] لا يتبيّغ[٨] أحدكم الدم فيقتله)[٩]

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، ج٤ ـ ص ٢٧٨.

(٢) الداء: ط، م.

(٣) أخرجه الترمذي في الطب: باب «ما جاء في الرقى والأدوية»، والإمام أحمد بن حنبل في مسنده، ج٣، ص ٤٣١.

(٤) صحيح البخاري مع شرح فتح الباري ـ كتاب الطب ـ ج١٠ ـ ص ١٣٦.

(٥) الحديث رواه الترمذي: ج٤ ـ ص ٣٨٨، ٣٩١، وقال: هذا الحديث حسن غريب.

(٦) الزيادة عن العلق ـ لم أجدها.

(٧) الحجامة: فصد قليل من الدم من على سطح الجلد باستخدام كأس زجاجي خاص.

(٨) التبيّغ: التهيّج، وهي ترجمة كلمة Hypeshemie، ويحدث تبيّغ الدم في ارتفاع التوتّر الشرياني وخاصّة المرافق باحتقان الوجه واليدين والقدمين، كما يحدث في فرط الكريات الحمر الحقيقي.

(٩) أخرجه ابن ماجة في الطب، في «باب أي الأيّام يحتجم» ـ حديث رقم ٣٤٨٦.

والعاشر قوله عليه الصلاة والسلام: (إذا بلغ الرجل من أمّتي خمسين سنة فليطل الحجامة)[١] يعني: ليطل ما بين نوبها.

[١٥] والحادي/ عشر قول مكحول ﷺ لرجل شكى إليه الصداع: احتجم وسط الرأس، فإنّ رسول الله ﷺ كان يحتجمه ويسمّيه منقذاً، ورُويَ أنّه عليه الصلاة والسلام احتجم في رأسه وهو محرم من شقيقة كانت به[٢]، واحتجم أيضاً في وركه من وثى به[٣].

والثاني عشر هو أنّ رهطاً من عرينة جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: (قد اجتوينا[٤] المدينة فعظمت بطوننا وضعفت أعضاؤنا) فأمرهم النبي ﷺ أن يذهبوا إلى الإبل فيشربوا من ألبانها وأبوالها حتّى صلحت بطونهم[٥].

والثالث عشر قوله عليه الصلاة والسلام في الحبّة السوداء: (الشفاء من كلّ شرّ إلاّ السام)[٦] والحبة السوداء: الشونيز[٧].

---

(١) أخرجه البخاري ـ كتاب الطب، حديث رقم ٥٣٧٥، عن ابن عبّاس.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الطب، باب «متى تُستحبّ الحجامة»، حديث ٣٨٦٣. وأخرجه الإمام أحمد في مسنده: ج٣، ص ٣٠٥، ٣٨٢.

(٣) ابن القيم، الطب النبوي، ص ٢٧.

(٤) اجتوينا: أي كرهنا المقام فيها لسقم أصابنا، من الجوى، وهو داء في الجوف.

(٥) الحديث رواه «البخاري» في كتاب الطب، حديث رقم ٥٣٦١ ـ ٥٣٦٢، وأخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند: ج٣، ص ١٦٣، ١٧٧، ١٩٨. ويقول «ابن القيم الجوزية»: وقد وقع الترخيص في إصابة بول الإبل للتداوي لهؤلاء خاصّة، وذلك في صدر الإسلام، ثمّ نُسِخ، ص ١١٥.

(٦) السام: الموت، والحديث ورد في «صحيح البخاري» ـ كتاب الطب، حديث رقم ٥٣٦٣.

(٧) الشونيز: من الفارسية، جنس نباتات عشبية حولية من الفصيلة الحوذانية، تستخدم بزورها تابلاً، وتسمّى «حبّة البركة» في مصر والشام. شهابي، ص ٤٩١.

والرابع عشر قوله عليه الصلاة والسلام: (العجوة من الجنّة وفيها شفاء من السمّ)[(١)]، وقوله أيضاً: (مَنْ تصبّح بسبع تمرات عجوة لم يضرّه في ذلك اليوم سمّ ولا سحر)[(٢)].

والخامس عشر أنّه عليه الصلاة والسلام دخل على أسماء بنت عميس[(٣)] وهي تريد شرب الشبرم[(٤)] فقال لها: إنّه حارّ حارّ، وأمرها بالسنا[(٥)].

والسادس عشر قوله عليه الصلاة والسلام: خير أكحالكم، الإثمد[(٦)] يجلو البصر وينبت الشعر[(٧)].

والسابع عشر قول سهل بن سعد الساعدي أنّه لمّا جُرِح رسول الله ﷺ وكان عليّ كرّم الله وجهه يجيء بالماء في ترسه

---

(١) أخرجه البخاري، فتح الباري، ج١٠، ص ١٦٣.

(٢) أخرجه البخاري في الأطعمة - باب العجوة - ج٩، ص ٥٦٩. وفي كتاب الطب - باب: «الدواء بالعجوة للسحر»، حديث رقم: ٥٤٣٥ - ٥٤٣٦، وحديث رقم ٥٤٤٣. والإمام أحمد بن حنبل في مسنده: ج١٠، ص ١٦٨، ١٧٧، ١٨١.

(٣) ورد «أم السلمة» في: ط، م. والصواب ما أثبتناه.

(٤) الشبرم: نبات له حبّ يشبه الحمّص، كان يستعمل قديماً بطبخه وشرب مائه للتداوي، وبطل استعماله لكثرة أنواعه وكثرة السامّ منها، وهو من فصيلة الغربيونيات. شهابي: ص ٢٣٦.

(٥) السنا: جنس جنبة للتزيين من الفصيلة القرنية تستعمل ثماره للإسهال. شهابي: ص ١١٥. والحديث أخرجه الترمذي في الطب، حديث رقم ٣٤٥٧ - باب السنا والسنوت.

(٦) الإثمد: عنصر معدني بلّوري الشكل قصديري اللون، صلب هشّ، يوجد في حالة نقيّة، وغالباً متّحداً مع غيره من العناصر، يكتحل به. الوسيط: ج١، ص ١٠.

(٧) أخرجه ابن ماجة في «كتاب الطب»، حديث رقم ٣٤٩٧، باب «الكحل بالإثمد»، كما أخرجه أبو داود في «كتاب الطب»، حديث رقم ٣٨٧٨.

وفاطمة تغسل الدم عن جرحه أخذ حصيراً[١] فأحرقه وحشي به
٥ب] جرحه/[٢].

والثامن عشر قوله عليه الصلاة والسلام: (عليكم بزيت الزيتون فكلوه وادّهنوا به فإنّه من شجرة مباركة وإنّه ينفع من الباسور)[٣].

والتاسع عشر عن طلحة بن عبيد الله: (أتيتُ النبيّ ﷺ وفي يده سفرجلة يقلّبها، فلمّا جلستُ رماها إليّ وقال: دونَكَها أبا محمّد فإنّها تُطيّب النَّفس وتشدّ القلب وتذهب بطحاء الصدر)[٤].

والعشرون كان أصحاب النبيّ عليه الصلاة والسلام لمّا قدموا خيبر أكلوا من التمر فحمّوا، فأمرهم أن يبرّدوا الماء في الشنان ثمّ يفيض عليهم ما بين أذاني الصبح ففعلوا ثمّ راحوا كأنّما أنشطوا من عقال[٥].

والحادي والعشرون: هو أنّ أحداً لم يشتكِ إليه وجعاً في رجله إلاّ قال: اخضبها، يعني احمل عليها الحنّاء[٦].

---

(١) الحصير: البساط المنسوج من أوراق البردي أو الباري أو نحوهما. الوسيط: ج١، ص ١٩٧.

(٢) أخرجه البخاري في «كتاب الطب»، حديث رقم ٥٣٩٠، باب «حرق الحصير ليسدّ به الدم». وابن ماجة في «كتاب الطب»، حديث ٣٤٦٤، باب «دواء الجراحة». والإمام أحمد في مسنده: ج٥، ص ٣٣٠، ٣٣٤.
والجدير بالذكر أنّ الحصير الذي أحرقته السيدة فاطمة رضي الله عنها، وألصقت رماده على الجرح، فإنّ هذا الرماد يعمل عمل المواد القابضة المرقئة المانعة لنزف الدم.

(٣) الحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد»: ج٥، ص ١٠٠، وقال: رواه الطبراني وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٤) أخرجه ابن ماجة في سننه: ج٢، ص ١١١٨.

(٥) الطب النبوي - الحافظ الذهبي - ص ١١٧.

(٦) الحديث أخرجه ابن ماجة، «كتاب الطب»، حديث رقم ٣٥٠٢، وأبو داود في الطب، حديث رقم ٣٨٥٨.

والثاني والعشرون أنّ أمّ المنذر بنت قيس قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ ومعه علي وهو ناقه من مرض ولنا دوالٍ معلّقة، فقام رسول الله ﷺ وعليّ يأكلان منها، فطفق رسول الله ﷺ يقول: مهلاً إنّك ناقه. حتّى كفّ عليّ. قالت: وقد صنعتُ شعيراً وسلقاً، فلمّا جئتُ به قال رسول الله (: مِنْ هذا فأصبْ فإنّه أوفق لك، فأكلا من ذلك[1].

واعلم أنّ الأحاديث في هذا الباب كثيرة، وإنّما نقلنا هذه الأحاديث من كتاب «المنهاج»[2] للإمام «الحليمي»[3] الذي هو مقبول الرواية باتّفاق كلّ الأمّة، فثبت/ بما ذكرناه من الدلائل العقلية [١٦]
والنقلية فضل هذا العلم وشرفه، بل الحقّ أن تعلّمه فرض كفاية، وذلك لأنّ هذا العلم يقتضي [أن][4] دفع الضرر عن النفس واجب، فيكون تعلّم هذا العلم واجباً.

أمّا أنّه يقتضي دفع الضرر عن النفس فظاهر لأنّنا[5] نرى الأوجاع والآلام قد تشتدّ[6] على[7] الناس، فإذا تداووا بأدنى شيء زال ذلك الألم عنهم مع القطع بأنّ ذلك الألم[8] ما كان يندفع

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه: ج٢، ص ١١٣٩.
(٢) المنهاج: كتاب منهاج الدين في شعب الإيمان.
(٣) الحليمي (ت ٤٠٣ هـ/١٠١٢م) الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم، الشافعي، فقيه محدّث متكلّم أديب، ولد ببخارى ونشأ فيها، وولي القضاء، من تصانيفه: منهاج، آيات الساعة وأحوال القيامة. كحّالة: معجم المؤلّفين، ج٤، ص ٣.
(٤) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.
(٥) لانا: ط، م.
(٦) تستدل: ط، م.
(٧) عن: م.
(٨) الألام: م، خطأ.

١٠٩

بطريق آخر، وأمّا أنّ دفع الضرر عن النفس واجب، فذلك متّفق عليه والعلم بوجوبه حاصل في العقول ومقتضى الشرع، فثبت أنّ الأمر كما ذكرناه، وبعض المنقول ـ وإن تكرّر ـ فلا بأس لما قلناه في المعقول.

الفصل الثاني

في ما يحتاج إليه الطبيب من العلوم

اعلم أنّ الطبيب يجب أن يكون عنده جملة من العلوم.

أحدها: وهو المهمّ الذي لا بدّ منه أن يكون عنده من المنطق[١] معرفة الكلّيات الخمس[٢] لاحتياجه إليها من الوجهين، الأوّل: أنّه يحتاج إلى معرفة حدود الأمراض وحدود أنواعها ورسومها، والحدّ[٣] مركّب من الجنس والخاصة والفصل والرسم[٤]. الثاني: أنّه لا بدّ له في تشخيص المرض أن يعرف المرض ما هو، ثم يقسمه إلى قسمين بسيط ومركّب. أمّا البسيط فهو ينقسم ثلاثة أقسام: سوء مزاج[٥] وسوء تركيب وتفرّق اتّصال[٦]. أمّا سوء المزاج فينقسم إلى قسمين: ماذيّ وساذج، أمّا الماذيّ فينقسم إلى صفراوي وغير صفراوي/، أمّا الماذي الصفراوي فقد يكون حمّى[٧] وقد [٦ب]

---

(١) المنطق: آلة قانونية تعصم مراعاتها أحوال الذهن عن الخطأ في الفكر، فهو علم عملي آلي. الجرجاني: التعريفات، ص ٣٠١.

(٢) الكلّيات الخمس: هي المعاني العامة التي تصدق على كثيرين ولها مفهوم يدلّ على خصائصها ومميزاتها، ولها ما صدق يشمل الأفراد التي تقع تحتها، والكليات الخمس التي جمعها «فرفوريوس» في كتابه (إيساغوجي) وهي الجنس والنوع والفصل والخاصّة والعرض العام. المعجم الفلسفي: مجمع اللغة العربية، ص / ١٥٤.

(٣) الحدّ: قول دالّ على ماهيّة الشيء. الجرجاني التعريفات - ص/ ١١٢.

(٤) الرسم: تعريف الشيء بخصائصه وأعراضه اللازمة. الوسيط: ج١، ص/ ٣٤٥.

(٥) مزاج: استعداد جسمي عقلي خاص كان القدماء يعتقدون أنّه ينشأ عن أن يتغلّب في الجسم أحد العناصر الأربعة وهي: الدم والصفراء والسوداء، والبلغم، ومن ثمّ كانوا يقولون بأربعة أمزجة وهي: الدموي والصفراوي والسوداوي والبلغمي. الوسيط: ج٢، ص/ ٨٦٦.

(٦) تفرّق اتّصال: المقصود به الجروح في البدن

(٧) حمّى: حرارة غريبة تعمّ جميع البدن ظاهراً وباطناً. ابن الحشاء: مفيد العلوم، ص ٣٨.

بكون غيرها، والحمّى المادّيّة الصفراوية تكون عن صفراء[١] خالصة، وقد لا تكون، والتي عن صفراء خالصة فقد تكون الصفراء داخل العروق وقد تكون خارجها.

فهذا الطريق من التقسيم ينتهي الطبيب من أعمّ الأحوال وهو كونه مرضاً إلى أخصّ الخواص وهو كونه مرضاً مزاجياً مادّياً: حمّى صفراوية خالصة داخل العروق فحينئذٍ[٢] تقدر على العلاج بأسهل الوجوه.

فما لم يعرف الجنس وما أشبهه والفصل وما يشبهه وكيفية انقسام الجنس بالفصول إلى الأنواع لا يمكنه معرفة هذا التفصيل، فلهذا كان الطبيب محتاجاً[٣] إلى تعرّف[٤] هذا القدر من المنطق.

العلم الثاني من العلوم[٥] التي يحتاج إليها الطبيب العلم الطبيعي[٦]، فإنّ الطبّ فرع من فروع العلم الطبيعي[٧] فلا جرم [أنّ][٨] أكثر مباحث الطبّ لا تستقرّ ولا تظهر إلاّ بمعونة العلم الطبعي[٩].

---

(١) صفراء: سائل شديد المرارة يختزن في كيس المرارة ولونه أصفر بضرب إلى الحمرة. الوسيط: ج١، ص/٥١٦.

(٢) ساقطة: ط.

(٣) ومحتاجاً: ط.

(٤) تعريف: م.

(٥) علوم: ط.

(٦) العلم الطبعي: علم يبحث فيه عن أحوال الجسم المحسوس من حيث هو معرّض للتغير في الأحوال والثبات فيها، ويسمّى أيضا بالعلم الأدنى والعلم الأسفل. القنوجي: أبجد العلوم، ج٢، ق٢، ص/٤٣.

(٧) الطبيعي: ط - م.

(٨) ما بين معقوفين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

(٩) الطبيعي: ط - م.

العلم الثالث الهندسة(١)، وحاجة الطبيب إليها قليلة جداً وذكروا أنّ الطبيب قد يحتاج إلى علم الهندسة ليعرف بها أشكال الجراحات لأنّ الجراحة المدوّرة عسرة البرء، والجراحة المثلثة وغيرهما سهلة البرء إذا(٢) كانت لها زوايا منها يبتدئ نبات اللحم.

العلم الرابع علم الهيئة(٣)، وحاجة الطبيب إليه من وجهين، أحدهما: أن يعرف وقت شدّة الحرّ وشدّة البرد، فيعرف أنّ الوقت الصالح لسقي الدواء(٤) المسهل أي الأوقات، وثانيها: أن يعرف أحوال البلدان وعروضها ومسامتات/ الكواكب، فيعرف حينئذٍ طبائع [١٧] الأهوية والأغذية والمياه بحسب كلّ بلد.

العلم الخامس: علم أحكام النجوم(٥)، وحاجة الطبيب إليه من وجوه.

الأوّل: أن يستعمل الدواء المختار في الوقت المختار الذي يكون فيه ممازجاً للسعود من شكل موافق.

الثاني: أنّه يعرف أنّ لزيادة نور القمر ونقصانه تأثيراً في زيادة الرطوبات(٦) ونقصانها، فيعرف بسبب ذلك أيام البحران(٧) وأدوارها.

---

(١) الهندسة: علم بقوانين تعرف منه الأصول العارضة للكم من حيث هو كم. المصدر السابق: ج٢، ق٢، ص/ ٢٧٧.

(٢) إذ: ط.

(٣) علم الهيئة: علم يعرف منه أحوال الأجرام البسيطة العلوية والسفلية وأوضاعها ومقاديرها وأبعادها. المصدر السابق، ص/ ٢٨٠.

(٤) دواء: ط.

(٥) علم أحكام النجوم: علم يعرف به الاستدلال على حوادث علم الكون والفساد بالتشكّلات الفلكية. المصدر السابق، ص/ ٢٥١.

(٦) الرطوبات: (م) رطوبة، كيفية تقتضي سهولة التشكّل والتفرّق والاتّصال. الجرجاني: التعريفات، ص/ ١٤.

(٧) البحران: التغيّر الذي يحدث للعليل فجأة في الأمراض الحمية الحادة ويصحبه عرق غزير وانخفاض سريع في الحرارة. الوسيط: ج١، ص ٤٠.

الثالث: أنّ الطبيب إذا كان عالماً بعلم الأحكام عرف عند معرفة ابتداء المرض بالحقيقة حال القمر وبأيّ كوكب كان متّصلاً ومع أي كوكب كان منحوساً أو مسعوداً، ويعلم أحوال الكواكب المتحيّزة، فإنّ احتراقها وسوء حالها وسعادتها ونحوسها وتشريقها وتغريبها يؤثّر في المرض والمريض، هذا إذا لم يعرف الطبيب مولد العليل، وأمّا إذا عرف مولده وعرف ابتداء هذا المرض نظر إلى كوكب الأصل وعرف أحوال البيوت ثم نظر في وقت المرض إلى انتهائه وأحوال بيوته وينظر إلى طالع وقت ابتداء المرض، فحينئذٍ يعرف ما يؤول إليه حال المريض من طول مدّة المرض وقصرها ووقت البرء، فينذر به أولياء المريض.

الرابع: أن يجتهد أن لا يدخل على المريض إلاّ بطالع محمود.

الخامس: لو رقد المريض في موضعه في وقت رديء نقله من ذلك الموضع إلى موضع آخر بطالع محمود.

العلم السادس: علم الألحان، وإنّما يحتاج الطبيب إليه لترتاض أنامله في جسّ الأوتار وذهنه في التنغّم، ويسهل عليه بذلك جسّ العروق وإدراك النغم الموسيقارية التي في النبض.

[٧ب] العلم السابع: / علم الكهانة(١) والزجر(٢)، لأجل(٣) الدخول

---

(١) علم الكهانة: المراد منه مناسبة الأرواح البشرية مع الأرواح المجرّدة من الجنّ والشياطين والاستعلام منهم عن الأحوال الجزئية الحادثة في عالم الكون والفساد والمخصوصة بالمستقبل. القنوجي: أبجد العلوم، ج٢، ق٢، ص/١٤٢.

(٢) علم الزجر: أو العيافة، ويسمّى قيافة الأثر، وهو علم باحث عن تتبّع آثار الأقدام والحوافر المقابلة للأثر، وهي التي تكون في تربة حرّة يتشكّل بتشكّل القدم. المصدر السابق، ص/٦٦.

(٣) للرجل: م.

على المريض، مثل النظر في الأشياء الحسنة والوجوه السعيدة والإصغاء إلى الألفاظ المحمودة وما يتلقّاه من الحيوانات المحمودة في خلقتها وأخلاقها، فمتى اتفق وجود أشياء محمودة عن طريق الكهانة والزجر عند الدخول على المريض فهو بشارة بالخير وإلاّ كان بالضدّ.

واعلم أنّا لا نقول إنّ تعلّم هذه العلوم ضروري في الطبّ لأنّ الإنسان يمكنه أن يتميّز في صناعة الطبّ من غير أن يعرف شيئاً من هذه العلوم لكنّا نقول: علمه بهذه الأشياء مما يعينه على الطبّ ويزيّده قوّة ومهارة فيه [فاعلم ذلك والله أعلم](١)

(١) العبارة بين قوسين ساقطة: ط.

الفصل الثالث

في ما يحتاج إليه الطبيب من الأخلاق والصفات

ويستعمل عليه قضايا «أبقراط»[1] للأطبّاء، وهي عشر:

أوّلها: يجب أن يكون الطبيب عارفاً بالله خائفاً منه معتقداً لأمر المعاد والثواب والعقاب، حتّى يكون إيمانه بالله وبالمعاد داعياً له إلى أفعال الخير وناهياً له عن مواقع الضرّ، فإنّ الطبيب متصرّف في الأرواح، فإن لم يكن كذلك لم يجز الاعتماد عليه.

وثانيها: يجب أن يحمدوا معلّميهم ويشكروهم على ما أفادوهم من العلوم ويكثروا برّهم كما يكثرون برّ آبائهم، فكما أنّ الأبوين كانا سبب كونه، فكذلك معلّموهم كانوا سبب شرفه ونباهته.

وثالثها: يجب أن لا يبخلوا على مَنْ أراد أن يتعلّم هذه الصناعة من المستحقّين لها، ولا يطلبون منهم جزاءً على ذلك التعليم.

ورابعها: يجب أن يجتهد الطبيب في مداواة المرضى وحُسن تدبيرهم بالأغذية والأشربة، ولا يكون غرضه في مداواتهم طلب المال، لكنْ طلب الآخرة والثواب، وإن أمكنه أن يتّخذ لهم/ [18]
الأدوية من ماله فليفعل، وإن عجز عن ذلك وصفه لهم وراعاهم[2] غدوة وعشيّة إن كان المرض حادّاً، لأنّ المرض الحادّ سريع التغيّر من حال إلى حال.

---

(1) أبقراط (٤٦٠ ـ ٣٧٠ ق.م) من أشهر الأطباء في العصور القديمة، يسمّى أبا الطبّ لأنّه سما به إلى منزلة رفيعة ومكانة عظيمة، كتب عدداً من المقالات الطبية، ونسب إليه تلاميذه عدداً أكبر من المؤلفات الطبية سمّاها مؤرّخو الطب (المجموعة الأبقراطية). النديم: الفهرست، ص ٤٠٠. القفطي: أخبار العلماء، ص ٦٤. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٤٣.

(2) رعاهم: ط.

وخامسها: لا يعطي لأحد دواءً قتّالاً ولا يصفه ولا يدلّ عليه ولا ينطق به ولا يدفع إلى النساء دواءً لإسقاط الأجنّة ولا يذكره لأحد.

وسادسها: لا ينبغي أن يفشي سرّ المريض ولا يطلع عليه غيره لا قريباً ولا بعيداً، فإنّ كثيراً من المرضى يعرض لهم علل يكتمونها عن آبائهم وأهليهم ويذكرونها للطبيب بمنزلة أمراض الرحم والبواسير[١].

وسابعها: يجب أن يكون الطبيب لطيف الكلام طلق الوجه حريصاً على المداواة، وأن لا يتكبّر على الفقير ولا يمتنع عن استماع كلامه ولا يفرّق في المداواة بين الغني والفقير.

وثامنها: لا ينبغي للطبيب أن يكون مشتغلاً بالتلذّذ والتنعّم ولا أن يستكثر من شرب النبيذ[٢]، فإنّ ذلك ممّا يضرّ بالدماغ ويملؤه فضولاً ويفسد الذهن.

وتاسعها: يجب أن يكون أكثر اشتغاله بقراءة الكتب ويلزم نفسه حفظ ما قرأه، ويجب أن يكون ملازماً للمارستانات[٣] ومواضع المرضى، كثير المزاولة لأمورهم وأحوالهم مع الأسانيذ[٤] والحذّاق

---

(١) البواسير: مرض يحدث فيه تمدّد وريدي دوالي في الشرج على الأشهر، تحت الغشاء المخاطي. الوسيط: ج١، ص ٥٦.

(٢) العلاّمة الشيرازي ينقل آراء «أبقراط» دون تعديل، والواقع أنّ الدين الإسلامي الحنيف قد حرّم تناول النبيذ.

(٣) المارستانات: (م) مارستان، أو بيمارستان، كلمة فارسية الأصل تعني المصحّة أو المستشفى.

(٤) الأستاذين: ط.

من الأطبّاء، كثير التفقّد لأحوالهم، مستذكراً[١] لما قرأه في الكتب من تلك[٢] الأحوال، فإنّه إذا فعل ذلك كانت معالجته قريبة من الصواب.

وعاشرها: يجب أن لا يأنف من المشورة وأخذ رأي مَنْ هو أفضل منه، وإذا دخل على مريض مع عدّة من الأطبّاء فإن أشار غيره إلى الحقّ أقرّ له، وإن أشار/ إلى ما ليس بحقّ لم يخجله، بل [٨ب]
نمهّد له عذراً وذلك أن يقول: الذي ذُكِر قول بعض الناس، ولكنّي أوثر أن يكون العلاج كذا وكذا، فإن لاجّهُ الناقص عرّفه الخطأ برفق، فإن لم يقبل ولاجّه وخشي جنايته على المريض بيّن للمريض ولأوليائه موضع الخطأ.

واعلم أنّ الطبيب إذا واظب على هذه السيرة والسريرة يرجى أن يحصل له الذكر الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في العقبى، ولم يعدم مع ذلك المال والجاه، هذا ما أردنا نقله من كلامه رحمه الله، ثمّ نأخذ من كلامه، بحث في بيان ضرورة الموت:

الموت[٣] هو عبارة عن انطفاء الحرارة الغريزية[٤] لانتفاء الرطوبة الغريزية، واعلم أولاً: أنّ الناس قد اتّفقوا على وجوب الموت في هذا العالَم الذي نحن فيه، إلاّ بعض القدماء من

---

(١) متذكّر: م.

(٢) ذلك: م.

(٣) الموت: ساقطة ـ ط.

(٤) الحرارة الغريزية: هي الحرارة التي خصّ بها كلّ واحد من الأعضاء لاعتداله. القمري: التنوير، ص ٧٤.

المتفلسفين فإنّهم جوّزوا[١] البقاء[٢] في هذا العالَم، حتّى إنّهم اتّخذوا[٣] لهم أدوية ووضعوها[٤] في قوارير يظنّون[٥] أنّها[٦] تخلّصهم من الموت كما حكى عنهم[٧] جالينوس[٨].

وأمّا العالَم الآخر الذي برهن في الحكمة على وجوب عودنا إليه، فقد بيّن أنّ الناس هناك في بقاء دائم، إمّا في شقاء سرمديّ أو في نعيم أبديّ أو في [أوّل][٩] الأمر شقاء وفي آخره نعيم دائم، أو في سلامة دائمة ومنتقل عنها إلى نعيم دائم، وإنّما اتّفقوا على هذا لأنّ استمرار بقاء البدن غير ممكن وأنّه منافٍ لمقتضى الحكمة.

أمّا الأوّل، فمن وجوه ثلاثة:

الأوّل: أنّ البدن مركّب من أجزاء أمكنتها الطبيعة[١٠] متباينة واجتماعها بالقسر، والقسر لا يمكن أن يدوم، فإذا زال[١١] القاسر تفرّقت الأجزاء بالضرورة.

---

(١) جوز: ط.

(٢) انتفاء: ط. - م.

(٣) اتّخذ: ط.

(٤) وضعها: ط.

(٥) ظن: ط.

(٦) انه: ط. - م.

(٧) عنه: ط.

(٨) جالينوس: (١٣١ - ٢٠١م) طبيب يوناني شهير، اشتهر بعلم التشريح والفيزيولوجيا، وألّف عدداً كبيراً من الكتب الطبية الشاملة. النديم: الفهرست، ص ٤٠٢. القفطي: أخبار العلماء، ص ٨٥. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ١٠٩.

(٩) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

(١٠) الطبيعة: م.

(١١) فإن ازال: م.

الثاني: أنّ البدن لا يمكن تركّبه/ إلاّ من جسم رطب مقارن [١٩أ] لحرارة، فيجب أن يتبخّر بالضرورة كما بيّناه في البحث المتقدّم، لكن الغذاء لا يقوم مقام ما يتحلّل منه والغذاء إنّما يكون بجسم يرد من خارج البدن والأجسام التي من الخارج إنّما تعلق البدن بأن تستحيل إلى مشابهته وذلك إنّما يكون بقوى من شأنها أن تفعل ذلك. وقد بُرهِن في الحكمة أنّها قوى جسمانية، والقوى الجسمانية أفعالها لا بدّ وأن تكون متناهية، فيكون إيرادها لبدن المتحلّل متناهياً ومنقطعاً حتّى يستولي الجفاف بالضرورة ويخرج البدن عن صلاحه للحياة.

الثالث: أنّ بقاء البدن بدون الغذاء لا يصح[١] ضرورة لكونه في هواء محلّل مع قبوله للتحلّل، وذلك يحتاج إلى قوّة غاذية، والقوة الغاذية إنّما تفعل بآلة هي الحرارة الغريزية على ما بُرهِن عليه والحرارة محللة لا محالة للرطوبات البدنية، فإن طال الزمان قوي تحليلها لتلك الرطوبات ولا يقوى إيرادها للغذاء، وذلك مؤدّ إلى الجفاف لا محالة، ويلزم ذلك الموت، وإنّما قلنا إنّ الزمان اذا طال قوّي تحليلها لتلك الرطوبات لوجهين، أحدهما: أنّ المحلل يكون قد طالت ملاقاته المتحلّل، والسبب كلّما أولاً: قوي فعله. وثانيها: أنّ المحلل إذا كان يفعل في مادّة كثيرة فإذا تحلّلت بعض المادّة قلّت فيكون المحلّل في الزمان الثاني فعلاً في مادّة أقلّ، فيكون فعله أقوى، فإنّ المنفعل قلّل قوى تأثير الفاعل فيه، وإنّما قلنا إنّ إيراد الغذاء لا يقوّي/ لأنّ القوى الجسمانية إن سلّمنا أنّها لا تضعف [١٩ب] بطول الزمان فهي محلّلة لا تقوّي، وإذا لم تزد قوّة لا يزداد فعلها

---

(١) صح: ط ـ م.

في الغذاء، وليس يمكن ١٢٢. أن يقال ها هنا إنّ الفاعل يدوم فيقوى تأثيره، لأنّ فعل القوّة الغاذية لا يدوم في غذاء واحد، والفاعل إنّما يلزم أن يقوى فعله بالدوام إذا كان المنفعل واحداً.

وإنّما قلنا إنّ الجفاف يلزمه الموت لأنّ الحياة إنّما تكوّن الحرارة الغريزية، والحرارة الغريزية إنّما تقوم برطوبة غريزية، فإذا حصل الجفاف عدمت تلك الرطوبة فأطفأت الحرارة الغريزية، إذ تلك الرطوبة لها كالدهن للسراج، ويلزم ذلك تولّد الرطوبات الغريبة التي هي كالماء، فيتعيّن على إطفاء الحرارة الغريزية من وجهين، أحدهما: بالخنق والغمز، وثانيهما بالمضادّة في الكيفية، لأنّ تلك الرطوبة تكون باردة وبلغمية[1]، وأمّا الثاني فمن وجوه أربعة:

أحدها: أنّه لو بقيت أشخاص الناس بلا نهاية لكان القوم الذين سبقونا بالوجود قد أفنوا المادة التي منها الكون، فلم يكن لنا مادّة يمكن أن نوجد منها، ولو بقيت لنا مادّة لم يبقَ مكان ولا رزق، وكنّا نبقى نحن والذين بعدنا على العدم دائماً ويبقى الأوّلون على الوجود دائماً، ولا شكّ أنّ هذا ترجيح بلا مرجّح ومنافٍ للحكمة، فوجب أن يموت السابق بالوجود ليكون لوجود المتأخر مكان.

وثانيها: أنّه لو لم يكن الموت واجباً لجاز أن يبقى الظالم
[١٠ا] المتحكّم في الدنيا دائماً/، فيدوم شرّه وإفساده، وذلك لا محالة مؤدٍّ إلى الفساد والخروج عن مقتضى الحكمة.

---

(١) بلغمية: البلغم هو خلط من أخلاط الجسم، وهو أحد الطبائع الأربعة قديماً. :الوسيط: ج١، ص ٧٠.

وثالثها: أنّ الموت لو لم يكن واجباً ولا المعاد لم يطمع المظلوم بانتصافه من الظالم، ولم يكن للظالم ما يردعه عن شرّه، ولا شكّ أنّ ذلك منافٍ لمقتضى الحكمة.

ورابعها: أنّه لو لم يكن الموت والمعاد واجبين كان الأتقياء والأخيار أشقى الناس لأنّهم يكونون قد خسروا الدنيا من غير عوض، ولا شكّ أنّ ذلك ممّا يدعو(١) إلى الفسق وارتكاب اللذّات والإعراض عمّا سواها، وهؤلاء [لا](٢) محالة فساد وشرّ، وقد ورد على الوجوه الأربعة(٣) اعتراضات كثيرة وأجوبة عنها طويلة الذيول والأذناب رأينا أن نترك الكلام عليها إلى العلوم الأصلية طلباً للاختصار.

(اعلم أنّ العلاّمة قال:)(٤)

نقول أكثر الأمراض عروضاً الحمّيات(٥) فلنبيّن وقت الموت فيها، أمّا الحمّيات ففي ابتداء تزايدها(٦) لأنّ هذا الوقت هو وقت بحرانها، وقد يتأخّر إلى وقت منتهى النوائب(٧) لانهزام الطبيعة(٨)

---

(١) يدعوا: ط. - م.

(٢) الكلمة بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

(٣) السبعة: ط. - م.

(٤) العبارة ما بين قوسين [ ] ساقطة في (م)، وقد كتبها ناسخ (ط) في الحاشية.

(٥) الحميات: (م) الحمّى.

(٦) تزيدها: ط.

(٧) النوائب: (م) النائبة، ما ينزل بالرجل من الكوارث والحوادث المؤلمة. والحمّى النائبة: راجعة تأتي كلّ يوم. الوسيط: ج٢، ص ٩٦١.

(٨) الطبيعة: القوّة المدبّرة للحيوان، وقد يطلق هذا اللفظ على الثفل الذي يخرج من الإنسان. القمري: التنوير، ص ٧٣.

عن المرض، أو في وقت الانحطاط الجزيئي، فإن قيل: كيف يتصوّر وقوع الموت في الانحطاط الجزيئي ومعنى الانحطاط استيلاء القوّة البدنية على المادة المرضية وأخذها في تلاشيها أوّلاً فأوّلاً وعند استيلاء القوّة لا يتوقّى الموت البتّة من ذات المرء على ما عرفت؟ قلنا: المراد بالانحطاط ها هنا سكون المرض لا الانحطاط المشهور، ولا شكّ أنّ هذا السكون تارة يكون لاستيلاءِ على مادّة المرض وهو الانحطاط الحقيقي، وتارة يكون لاستيلاء مادّة المرض على القوّة البدنية، وهذا هو الانحطاط غير الحقيقي، وهو المراد ها هنا، ويعرف الحقيقي من غير الحقيقي بوجوه خمسة:

١ ـ من جهة النبض من الاختلال إلى الاستواء والانتظام والقوّة في الحقيقي وفي غيره بالعكس.

٢ ـ من جهة النضج.

٣ ـ من جهة الخفّة والاستعلاء.

٤ ـ من جهة العرق.

٥ ـ من جهة الأعراض، مثل: صحّة الذهن في الحقيقي، وعلامته الموت في الخدر، غور المادة وعرق بارد وهو الحفيظ[١].

ولمّا كان حال البقاء كذلك قال الأوحد «أبقراط» في صدر كتاب (الفصول)[٢]: (العمر قصير، والصناعة طويلة)، أي بالإضافة إليه.

---

(١) نهاية الفقرة الزائدة في: ط.، وابتداؤها بعبارة: اعلم أنّ العلامة قال.

(٢) كتاب الفصول: هو سبع مقالات ويحتوي على مجمل ما أودعه «أبقراط» في سائر كتبه مثل كتاب تقدمة المعرفة، وكتاب الأهوية والبلدان، وكتاب الأمراض الحادّة، وغيرها. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٥٤.

واعلم أنّ غالب الأعمار ما بين الستين والسبعين، وقال النبي (أكثر أعمار أمّتي ما بين الستين إلى السبعين)[١]، وفي رواية تقول: (معترك المنايا ما بين الستين والسبعين)[٢]. ومن ها هنا سمّت العرب العشر التي بينهما «دقّاقة الرقاب»، وأطوله مائة وعشرون سنة، وما جاء في التواريخ وصدّقتها الكتب الإلهية من إثبات الأعمار الطويلة فلعلّه كان قبل زمان «أبقراط»، وقد اختلف العلماء في تعليل ذلك، فقال الأطبّاء: إنّ عدد أيّام السنة كان أقلّ من عدد أيّام سنتنا، وقال المنجّمون: التشكّلات الفلكية التي كانت في ذلك الوقت تقتضي ذلك العمر الطويل، وقال أرباب الملل: إنّ الحكمة الإلهية اقتضت طول العمر لقلّة أعداد أشخاص/ نوع الإنسان، [١٠ب] وبالجملة، فالكلام في هذا خارج عن غرض الطبيب، [والله أعلم][٣].

---

(١) الترمذي: ٣/ ٢٦٤. ابن ماجة: ٢/ ١٤١٥ رقم الحديث ٤٢٣٦.

(٢) صحيح الجامع الصغير: ٥٨٨١ مختصر المقاصد الحسنة: رقم ٩٥١.

(٣) العبارة ما بين قوسين [ ] ساقطة في: ط.

·١٢٦

بحث
في بيان غاية علم حفظ الصحّة

صناعة حفظ الصحّة ليست صناعة تضمن الأمان والأمن عن الموت، فإنّ ذلك محال لما بيّن من ضرورة الموت، ولا تخلّص البدن من الآفات الخارجية كالغرق والخنق والحرق والهدم والضرب بالسيف ونحوه، فالطبيب إذا لم يكن له[1] حيلة في دفع الخارجة[2] الغير ضرورية فبالأولى أن لا تكون له حيلة في دفع الخارجة الضرورية كتحليل الهواء، ولا في دفع الداخلة الضرورية كتحليل الحرارة الغريزية، ولا أن يبلغ بكلّ غاية طول العمر الذي بحسب الإنسان مطلقاً وهو مائة وعشرون سنة ـ على ما قالوا ـ فإنّ ذلك غير ممكن، لأنّ التحليل الموجب للموت الذي بُيِّنَ وجوبه مختلف باختلاف استعداد مزاج كلّ شخص، فيكون مقدار ما يجب انحلاله مختلفاً[3] في الأشخاص ولو أمكن الطبيب إبطال الاختلاف في ذلك لأمكنه دفع الموت بالكلية، وذلك بأن يبطل ذلك الاستعداد بالكلية، ويجعل المحلل بقدر الوارد وذلك صح، قال «العلاّمة» إنّ ها هنا أربع شبهات[4]:

أحدها[5]: لو كان الطبيب مفيداً حقّاً[6] وغايته حفظ الصحّة

---

(١) له: ساقطة، ط.
(٢) الخارج: م.
(٣) مختلف: م.
(٤) شبه: ط. ـ م.
(٥) وجواب أحدها: ط. ـ م.
(٦) وحقاً: ط. ـ م.

وبقاؤها لكان الطبيب الفاضل كـ«أبقراط» متمكّناً من منع الموت عن نفسه بحفظ الصحّة وإبقائها على حالها، وليس الأمر كذلك، والجواب عنها أنّ هذه الشبهة هي دفع الموت/ من غاية الطب، من [١١١] بعض الظن، لأنّ دفع الموت ليس غاية الطب، بل غاية الطب هو منع العفونة وحفظ الرطوبة الأصلية من التحلّل بقدر الإمكان، وذلك باستعمال السنّة الضرورية.

وثانيها: أنّ الطب غير مفيد لأنّ كلّ شيء من الصحة والمرض والموت بإرادة الله تعالى وعلمه وقَدَره في الأزل، والجواب أخبر في حلّها جمع من العلماء هو إمكان استعمال الطب على الوجه الصواب، كما أنّه تعالى قدّر الصحّة، قدّر استعمال الطب، وكما أنّه قدّر الموت كذلك قدّر الخروج عن واجب الطب، وجعل استعمال الطب سبباً للصحّة وعدم ذلك سبباً للموت، ولولا ذلك لكان ينبغي أن يستريح من تكلّف الغذاء والشراب.

وثالثها: أنّ الأطباء [أجمعوا][١] على أنّ أكثر قوانين العلاج وفروعه وأكثر البحوث[٢] المتعلّقة بهذا العلم حدسية تخمينية، فمتى اجتمع جمع من الأطبّاء لمعالجة مريض، وأحضر واحد وأخذ منهم فإنّ كلاً[٣] منهم يصف ما لا يصفه الآخر، ولا يحصل الاتّفاق بينهم إلاّ نادراً، وعلم يكون حاله كذلك كان خطأ صاحبه أكثر من إصابته، وما كان كذلك فهو لا حاجة إليه البتّة، لأنّ حاله حال المجرّب لشيء في شيء بغير علم ومعرفة، والتجربة خطر على ما

(١) الكلمة ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

(٢) المبحوث: ط. - م.

(٣) كلّ: ط. - م.

·١٢٨ قال «أبقراط»، والجواب: إنّ التقصير المذكور وخفاء ما يخفى من أحوال البدن حتّى صار أكثر قوانين العلاج حدساً وتخميناً ليس هو لتقصير الصناعة في نفسها، بل لعجز الطالب[1] عن إدراك فروعها وقوانينها على ما ينبغي، فلذلك صار الجمع من الأطبّاء يختلفون/ [١١ب] فيما يأمرون به المريض من المداواة لأنّ كلاً منهم قد أدرك من الأعراض ومن معرفة المرض خلاف ما أدركه الآخر، ولذلك متى جُمِع[2] بين الأطبّاء المحقّقين وقع بينهم اتّفاق على نوع واحد من المعالجة.

ورابعها: أنّا نرى الماهر من الأطبّاء والمتمكّن[3] في علمه لا يقوى على دفع جميع الآفات الواردة على البدن الإنساني، وعلم حاله كذلك لا حاجة إليه، إذ الاشتغال به يكون عناءً وعبثاً، والجواب: العجز عن دفع جميع الأعراض والآفات عن البدن ليس لتقصير الصناعة، بل لأنّ البدن في ذاته وطبعه في معرض الفساد وقبول الآفات التي لا يمكن دفعها، والله أعلم.

بل صناعة حفظ الصحّة إنّما تضمن أمرين: منع العفونة عن الرطوبة أصلاً، وحماية الرطوبة لئلاّ يسرع إليها[4] التحلّل، وذلك بأن يجعل ما ينحلّ[5] من رطوبة كلّ بدن بقدر الواجب على حسب مزاجه غير زائد عليه، وفي قوّة تلك الرطوبة إن لم يتّفق لها ولا لبدنها مفسد من خارج أن يبقى إلى مدّة تقتضي الرطوبة تلك المدّة

(١) الطالع: م.
(٢) اجتمع: م.
(٣) والتمكّن: ط. م.
(٤) إليه: ط. م.
(٥) عن: ط. م، خطأ

١٢٩

بحسب مزاجها الأوّل من غير تقدّم عليها ولا تأخر عنها، إذ رطوبات الأشخاص تختلف في الأصل لاختلاف أمزجة الأشخاص الموجبة لاختلافها في القلّة والكثرة، ولذلك صارت الأعمار الطبيعية وآجالها مختلفة، ويكون منع العفونة وحماية الرطوبة أو بقاء الرطوبة إلى المدّة المذكورة بثلاثة أمور:

أحدها: إصلاح التدبير في المآكل والمشارب، بحيث يكون الوارد مساوياً للتحلّل، لا أزيد ولا أنقص، فإنّه متى كان أزيد غمر
[١١٢] الحرارة وأطفأها/ ، ويكون حاله: حال الزيت الكثير الغامر للسراج
والوقود الكثير على النار، وإن كان الغذاء حارّاً في نفسه ولذلك صار الإفراط في استعمال الخمر يغمر الحرارة الغريزية، وإن كان أنقص لم يخلف عوضَ المتحلّل، وإليه أشار «الشيخ» بالتدبير الصواب في استبدال البدن بدل ما يتحلّل بمقدار الممكن.

وثانيها: دفع الأسباب المعجّلة للتجفيف بالتدبير البالغ من استيلاء أسباب معجّلة له مثل الهواء المفرط الحرارة والحركات العنيفة، دون الأسباب الموجبة للتجفيف كحرارة الهواء فإنّه لا يمكن المنع عنها.

وثالثها: منع العفونة وإزالتها إن تولّدت بالتدبير الوافي عن تولّد العفونة بحماية البدن وحراسته عن استيلاء حرارة غريبة داخل البدن كانت أو خارجاً، إذ ليست الأبدان كلّها متساوية في قوّة الرطوبة الأصلية والحرارة الأصلية، بل الأبدان مختلفة في ذلك بسبب اختلاف أمزجتها الموجب كلّ مزاج حرارة ورطوبة يناسبانه[١] وقوّة

---

(١) مناسبة: م.

يقتضيها إلى غاية ونهاية لا يتعدّاها، ولكلّ بدن حدّ في مقاومة الجفاف اللازم من استيلاء الحرارة على الرطوبة من أصل التكوّن يقتضي ذلك الحدّ: مزاجه وحرارته الغريزية ومقدار رطوبته الغريزية لا تتعدّى البدن ذلك ولا تجاوزه، ولكن قد يختلف البدن عن الحدّ بأن لا يصل إليه، ولذلك قال «الشيخ»: يسبق الحدّ البدن بوقوع أسباب معيّنة أو مهلكة بوجه آخر غير الأسباب المعيّنة على التجفيف وكثير من الناس تقول: إنّ الآجال الطبيعية هي هذه، وهي أن يكون انطفاء الحرارة الغريزية بانتفاء الرطوبة الغريزية، وإن كان انتفاؤها بوقوع/ أسباب معينة على التجفيف ومعجّلة له، لكنّ أكثر الناس [١٢ب] يقولون على ما سبق في أنّ الآجال الطبيعية هي أن يكون انطفاء الحرارة الغريزية [و][1] الرطوبة الغريزية بالأسباب الموجبة للتجفيف دون المعجّلة له.

والفرق بين مذهبي الكثير والأكثر أنّ ما يكون بواسطة الأسباب المعجّلة يدخل عند الكثير في الطبيعي وعند الأكثر في الاحتراقي المسمّى بالعَرَضي، وأنّ الآجال العَرَضية هي أخرى، وهي أن لا يكون انتفاء الحرارة بانتفاء الرطوبة، بل بغيره وكانت[2] صناعة حفظ الصحّة هي المبلغة بدن الإنسان هذا[3] السنّ الذي يسمّى (أجلاً طبيعياً) على حفظ الملائمات من الأسباب الستّة وغيرها ممّا له في تتميم ذلك، لأنّ حفظ الصحّة إنّما يكون باستعمال الملائمات والمشاكلات في كلّ وقت وفي كلّ سنّ، وقد وُكّل بحفظ الرطوبة

---

(١) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

(٢) كان: ط.

(٣) هذه: ط.

عن التحلّل والتعفّن قوّتان يخدمهما الطبيب:

إحداهما: طبيعية، وهي الغاذية لتخلف بدل ما يتحلّل من الذي جوهره[١] مائل إلى الأرضية والمائية لغلبتهما عليه، ولأنّ شأن هذه القوّة أن تشبه الغذاء بالمغتذي فيخلف بهذا التشبيه بدل ما يتحلّل من البدن.

وثانيهما[٢]: حيوانية، وهي القوة المحرّكة للقلب والشرايين انبساطاً، فإنّ شأن هذه القوّة أن تولّد من لطيف الدم جوهراً لطيفاً نورانياً وهو الروح الحيواني الحامل للقوّة الحيوانية التي تكون بها الحياة، ولهذا قال «الشيخ» لتخلّف بدل ما يتحلّل، والروح الذي جوهره هوائي وناري/، أي غالب عليه هذان العنصران، ولمّا [١١٣] كانت[٣] هاتان القوّتان هما المتولّيتان[٤] لتدبير البدن في حال حياته وجب على الطبيب الاعتناء بهما.

أمّا الأولى، فبأن يجعل الوارد على البدن مساوياً للمتحلّل لا أكثر ولا أقلّ، وأن يراعي تربيته وميل الشهوة إليه، وبالجملة الأمور التي تذكره في كيفية حفظ الصحّة بالغذاء.

وأمّا الثانية فبأن يجتهد حتّى [يكون][٥] الهواء الوارد على القلب نقياً من الشوائب صافياً معتدل البرد في زمان الشتاء بارداً في زمان الصيف.

---

(١) جوهر ط.

(٢) والثانية: ط.

(٣) كان: ط. م، خطأ.

(٤) المتوليان: ط. م.

(٥) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

ولمّا كان حال القوّتين المذكورتين على ما ذكرنا وقد عرفت أنّ الغذاء ليس شبيهاً بالمغتذي من كلّ وجه، ولذلك صار الغذاء الوارد على البدن والهواء الوارد على القلب لا بدّ وأن يفضل منها فضلة، ثمّ إنّ هذه الفضلة لو بقيت في البدن اجتمعت على مرّ الأيّام وغمرت الحرارة وقهرت القوّة وانغلبت[١] الأعضاء فبلطف[٢] الخالق تعالى خلق لها أوعية تجتمع فيها ومجاري[٣] تندفع منها وقوى تكسحها وتدفعها عن البدن، ولذلك قيل: إنّ البدن بمنزلة دار الملك فيها حشم وقوّام وموكّلون بالدّار وخدمة الحشم، فواحد منهم لقضاء حوائج الحشم وإيرادها عليهم، وآخر لقبض ما يرد وحبسه إلى أن يُعالَج ويهيّأ، وآخر لعلاج ذلك وتهيئته وتفريقه على القوّام، وآخر لكسح ما في الدار ممّا لا يحتاج إليه وإخراجه، فالملك ها هنا هو[٤] القوّة المدبّرة للبدن، والدار هي البدن، والحشم هي الأعضاء الرئيسة، والخدم هو الخوادم الأربع[٥] التي هي الجاذبة والماسكة/ [١٣ب] والهاضمة والدافعة، فانظر إلى لطف الله تعالى وعنايته بهذه القسمة الضعيفة، فإنّه لما سبق في علمه ضعف تركيب البدن[٦] وقبوله

---

(١) وانقلبت: ط. - م.

(٢) فليلطف: ط. - م، خطأ.

(٣) المجاري: المواضع التي يجري فيها الغذاء والفضلات إلى الأعضاء، فمنها مجارٍ واسعة، مثل الأمعاء وجداول الكبد وعروق الكلية وغيرها، ومنها ضيّقة مثل العروق والشرايين الدقيقة التي في دقّة الشعر مخالطة اللحم. القمري: التنوير، ص ٧١.

(٤) هي: ط. - م.

(٥) الخوادم الأربع: وتسمّى القوى الطبيعية الخادمة الصرفة، وهي خوادم القوّة الغاذية، خلقت لتجذب النافع من الطعام وتمسكه وتحوّله إلى قوام ومزاج صالح للاستحالة. ابن سينا: القانون، ج١، صص ٦٦-٧٢.

(٦) بدنها: ط. - م.

·١٣٣

للآفات من داخل وخارج وكَّلَ بتدبيره القوى المذكورة وهيّأ لأطعمته أوعية مخصوصة يجتمع فيها لغرض، وقد عرفته ولفضلاته مجاري مخصوصة يندفع منها، فسبحان الله أحسن الخالقين، واعلم أنّ ملاك الأمر هو ما تقوم به في صناعة حفظ الصحّة هو في تعديل الأسباب العامية الضرورية المشتركة اللازمة، إذ لا بدّ للإنسان مدّة حياته من استعمالها لأنّها متى استُعمِلَتْ على ما ينبغي كانت [من][1] أسباب الصحّة، وإلاّ فكانت أسباب المرض وأكثر العناية بهذه الأسباب هو تعديل أمور سبعة:

أوّلها : تعديل المزاج بالترويح المجدّد بواسطة الهواء وغيره.

وثانيها : اختيار لما يتناول ليتوافق[2] المتناول المتحلّل.

وثالثها : تنقية الفضول لئلاّ تزاحم المعدة وتحقنها.

ورابعها : حفظ التركيب بصيانة التركيب على المتغيّرات.

وخامسها: إصلاح المستنشق بالأشياء المقوّية للروح.

وسادسها: إصلاح الملبوس بالأشياء المنقية للحرارة والرطوبة من الأشياء المعتدلة.

وسابعها: تعديل الحركات البدنية والحركات النفسانية بأن لا يقع فيها إفراط محلّل أو تفريط مجمّد، ويدخل في الحركات بوجه ما النوم واليقظة من أنّ اليقظة شديدة الشبه بالحركة، والنوم

(١) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

(٢) ليوافق: م.

بالسكون، وأنتَ تعرف في المزاج أنّه ليس للاعتدال[١] حدّ واحد ولا للصحّة[٢] لأنّهما غير محدودين بنفسهما، بل لكلّ/ منهما غرض [١١٤ا] بين طرفي الإفراط والتفريط، والغرض كثير ها هنا أن يعرف أنّ الصحّة يجب أن تكون محتاجة في الأشخاص أيضاً بحسب اختلاف أمزجتهم، فليس يمكن لهذه[٣] الصناعة أن تجعل الصحّة في الأشخاص متساوية، ويلزم من ذلك أيضاً أنّها لا تقوى على حفظ الصحّة والشباب، وإلاّ أمكنها دفع الموت إذ إمكان بقاء الصحّة على ما يقتضيه هذا السنّ ولو أمكن ذلك لأمكن استمرار ذلك دائماً ولم يلزم الجفاف، فأمكن دفع الموت، وليس[٤] أيضاً كلّه من المزاج داخلاً في أن يكون صحّة ما أو اعتدالاً[٥]، بل الأمر بين الأمرين بأن ليس المزاج الصحّي هو مزاج واحد فقط، ولا كلّ مزاج يمكن أن يكون صحّياً، بل بعض الأمزجة كذلك، وذلك البعض كثير، والله أعلم. وإليه أشار «الشيخ» بقوله: ولمّا لم يكن الغذاء شبيهاً بالمغذّي بالفعل خُلقت القوّة المغيّرة لتغيّر الأغذية إلى مشابهة المغتذيات بالفعل بل إلى كونها غذاء بالفعل وبالحقيقة، لأنّ الغذاء بالحقيقة هو ما قد عناه على ما ينبغي لـ«أبقراط».

وأمّا غيره، فإنّما يقال له غذاء بالمجاز، وقال «الشيخ»: وخُلق لجعل الغذاء غذاءً بالفعل وبالحقيقة آلات ومجارٍ هي الدم والجذب والهضم الكافي، مع أنّه في الطبع غير مناسب للمقصود، وليعلم أنّ

---

(١) لا الاعتدال: ط ـ م، خطأ.

(٢) الصحة: ط ـ م.

(٣) هذه: ط ـ م، خطأ.

(٤) ولا: ط ـ م.

(٥) اعتدلا: ط.

١٣٥ ·

القوى وهذه الآلات ضرورية في البدن التي هي ضرورية في حفظ الصحّة ممّا يجب مراعاتها في حفظ الصحّة[١].

(١) الفقرة ساقطة في ـ م، وقد كتبها الناسخ في هامش ـ ط، وتبتدئ: وإليه أشار الشيخ. . . في حفظ الصحّة.

بحث في بيان وصايا الطبيب

قال المولى «العلاّمة» ولنقتدي بالشيخ بوصيّة منها ما ذكره «صاعد بن الحسن المتطبّب»[١] [في][٢] (التشويق الطبي)[٣]:

وهو أنّ من صفات الطبيب أن يكون معتدلاً في مزاجه، طاهراً في نفسه، متمسّكاً بدينه، لازماً لشريعته، وافر العقل، قويّ الذكاء، حسن التصوّر، معروفاً بصدق اللهجة وأداء الأمانة، مهتمّاً بما يعنيه، محبّاً لاصطناع الخير، يساوي ظاهره باطنه في أفعال الجميل، حسن الخلق، غير شره على المكسب، ولا حاسد على المال، متأدّباً بالسير[٤] والأخبار المتقدّمة، صحيح الخطّ والعبارة، مواظباً على درسه وقراءته ونظره في علوم الأوائل، شفيقاً رفيق اللسان، رحيماً/ [١٤ب] للضعفاء والفقراء، سابقاً إلى معالجتهم قبل معالجة الأغنياء، شديد العناية بجمع كتب «أبقراط» و«جالينوس»، ومن يرى رأيهما في فهمها، والبحث عن غوامضها والمذاكرة لأهلها، مشهوراً[٥] بالحذق

---

(١) صاعد بن الحسن: (توفي بعد سنة ٤٦٤ هـ/١٠٧١م)، من الفضلاء في صناعة الطب والمميّزين من أهلها، ولم تورد المصادر التي تعرّضت لترجمته تفاصيل وافية عن حياته وتحقيق شخصيّته. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٣٤٠. الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٦، ص ٢٣١.

(٢) ما ورد بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

(٣) التشويق الطبي: الكتاب الوحيد الذي وصلنا لمؤلّفه «صاعد بن الحسن» وقد قام المستشرق الألماني «أوتوشبيس Otto Speis» بنشره في بون ـ ألمانيا، عام ١٩٦٨، ثمّ نشره مكتب التربية العربي لدول الخليج ـ الرياض: عام ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦م، بتحقيق مريزن سعيد عسيري.

(٤) للسير: م.

(٥) مشهور: م.

والبراعة في صناعته عند ذوي العلم، معروف الأستاذين[١] والشيوخ، ظاهراً عليه مع ذلك علمهم وفضلهم ليصحّ نسبه[٢] إليهم مجيباً عمّا يُسأل إذا عرف، ومتوقّفاً فيما لا يعرف، حتّى ينظر ويبحث، لا يستحيي من الازدياد، ولا يملّ من الحرص والاجتهاد، غير معجَب ولا متكبّر مذكّراً بما كان مخبراً بما هو كائن، منذراً بما سيكون من أحوال[٣] مَنْ يعالجه من المرضى، ممارساً وصّافاً عفيف الطرف والبطن والفرج، كتوماً للأسرار، قليل المزاح والهزل، غير مغرى بشرب الخمر ولا مولعاً[٤] بالفسق، ويكون كثير التدرّب والعناية بمزاولة المرضى وخدمتهم والدخول إلى البيمارستانات والنظر في القوانين الطبية والارتياض بالصناعة المنطقية ومطالعة العلوم الرياضية، مثابراً[٥] على ذلك مجتهداً، حريصاً على القراءة والتصفّح، طويل الروح غير ملول ولا ضَجِر ولا متعلّق القلب بغير هذا ولا يلتذّ بشيء سواه، ولا يقوم عنده شيء من المقتنيات مقامه، ولا يقضي زماناً من عمره إذا أمكنه إلاّ فيه.

ويحتاج ـ مع ذلك ـ إلى توفيق إلهي، وحقيق بمن كانت هذه صنعته أن يمدّه الله بالمعونة ويعضده[٦] بالتوفيق، وترمقه الأبصار بالجلالة والوقار، وأن ينصره على السوفسطائيين[٧] المموّهين/ [١١٥]

(١) للأساتيذ: م.

(٢) بسببه: م.

(٣) الأحوال: م.

(٤) مولع: ط. ـ م، خطأ.

(٥) متأثراً: ط. ـ م، خطأ.

(٦) ويقصده: م.

(٧) المنسوبين إلى السوفسطائية، وهي فرقة ينكرون الحسّيّات والبديهيات وغيرها. الوسيط: ج١، ص ٤٣٣.

المغالطين، وإذا وجد الطبيب كذلك فهو الذي ينبغي أن يركن إليه، ويعوّل في علاج المرضى عليه، ويجب ـ بعد ذلك ـ أن يلزم الشروط والقوانين التي أذكرها، وأوّل ذلك أن تكون الصفات التي ذكرناها كاملة فيه كلّها، أو جلّها، وهو حريص على أن تكمل فيه، ويجتهد في فهم[١] أصول صناعة المنطق ليستخرج الدواء من طبيعة المرض بالقسمة، فيستخرج كيفيّته (أعني العناصر الأربعة)[٢] من كيفية المرض وكمّيّته من كمّيّة الاسطقسات[٣] ويستخرج سبب المرض بالقسمة، ويستنبط قوى الأدوية بالقياس المأخوذ من تأثيراتها والأعراض اللازمة لها، وبحسب تمهّره في صناعة التشريح وقوّته في صناعة المنطق يصحّ له الاستدلال على الأمراض بالقياس من الظاهر، أعني المرض على الخفي، وهو الدواء، ويجمع بين القياس والتجربة لتكمل صناعته باستخراج الدواء الموافق لإزالة المرض، فمن لزم هذه القوانين، وسلك هذا[٤] السبيل ولم يتشبّه بجهّال الأطبّاء كان هو المستحقّ أن يسمّى طبيباً.

ويحتاج بعد ذلك أن يكون عارفاً من الحساب بوجه الضرب والقسمة والنسبة من غير تدقيق في ذلك، وتضييع الزمان بما لا يحتاج إليه، ومنفعته بالحساب ليقدّر كمية الأغذية والأشربة والأدوية للمرضى بعد علم مقادير الموازين والمكاييل المختلفة بين الأمم،

---

(١) فهم: ساقطة، م.

(٢) العبارة بين قوسين ( ) ساقطة في ـ ط، وقد كتبها ناسخ ـ م، في الهامش.

(٣) الاسطقسات: (م) الاسطقس، وهو الأصل البسيط يتكوّن منه المركب، والاسطقسات: العناصر الأربعة عند القدماء وهي الماء والهواء والنار والتراب (الوسيط: ج١، ص ١٧).

(٤) هذه: ط، خطأ.

ونسبة بعضها إلى بعض، وليعلم كمية أزمان نوب الأمراض وأزمان[1] تركها بعدّ الساعات والأيّام التي يعرف منها أوقات الأمراض في الابتداء بمعرفة عدد صحيح، والتزيّد والانتهاء والانحطاط/ وأيّام البحران[2] وغير ذلك ممّا لا بدّ في معرفته من الحساب. [١٥ب]

ويعلم من النجوم ما لا بدّ منه، مثل علمه بشكل الأرض ووضعها في وسط الفلك وقسمتها بالأقاليم والمدن وأطوال البلدان وعروضها، أعني بعدها من جهة المغرب وبعدها من خطّ الاستواء، ويعرف تركيب الاسطقسات ـ أعني العناصر الأربع[3] ـ عليها وترتيب الأفلاك وحركاتها وأحوال الكواكب ومسيرانها في السنين والشهور والأيّام والساعات وحلولها في البروج وقراناتها واتّصالاتها[4] وبعدها من الشمس وقربها منها، وأوائل الشهور الشمسيّة والقمريّة، وتغيّر الزمان في الحرّ والبرد بحلول الشمس في البروج، وتعرّف طلوع النيرين[5] وغروبهما وتوسّطهما السماء والفصل الحاضر من السنة، وطبيعته واختلاف مقادير ساعات النهار والليل في كلّ يوم وكمية مقاديرها وموضع القمر من البروج وما فيه من النور سيّما في ابتداء الأمراض الحادّة، وفي وقت منها ليصحّ حكمه على البحارين التام منها والناقص والمحمود منها والمذموم، فإذا تمهّر في ذلك وأخذ

---

(١) وإن ما: ط. ـ م، خطأ، والأصحّ ما أثبتناه.

(٢) البحارين: ط.

(٣) العبارة بين قوسين ( ) ساقطة في ـ ط، وقد كتبها ناسخ ـ م، في الهامش.

(٤) وانصلانها: م، تصحيف.

(٥) النيّران: هما الشمس والقمر.

منه المقدار الذي يحتاج إليه ١٠٤ صحّ حكمه على المرضى بالعلامات(١) المنكرة والحاضرة والمنذرة، وقعت الطمأنينة إليه، وطابت الأنفس بقبول قوله وصحّت معالجته لمن يعالجه وعذر في هروبه ممّن يهرب منه، فقد قال الفاضل «أبقراط»: (إنّ علم النجوم ليس بجزء صغير من علم الطبّ).

ويعرف من الهندسة أنّ القرحة المستديرة بطيئة الاندمال لعسر نبات اللحم فيها، وما كان لها زوايا حادّة فنبات اللحم أسرع من نباتها في المنفرجة(٢)، ويحتاج أنْ يعلم أنّ الشعاعات(٣) الشمسية والبصرية تكون على خطوط مستقيمة، وليعلم كيف تسخن الشعاعات الشمسية الهواء وهي صادرة/ عن جسم نيّر غير حادّ وهو الشمس، [١١٦] ويعلم أنّ الشعاع البصري يرتسم منه عند إدراكه المدرك أي المبصر شكل مخروط رأسه مركز الرطوبة الجليدية(٤) وقاعدته نهاية الجسم المبصر من حيث تماسّه الشعاعات البصرية وتحيط به، وعلى قدر الزاوية الحادثة من هذا المخروط في الرطوبة الجليدية يرى المبصر فإن صغرت رأى صغيراً، وإن عظمت رأى كبيراً، وهذه هي الموجبة لإدراك مقادير الأجسام وأشكالها.

ويعرف من الموسيقى الحركات والنقرات ومناسبات أزمان الحركات والسكون بعضها إلى بعض وانتظامها واختلاف انتظامها، وما شاكل ذلك، ويعرف اختلاف اللحون والنغم، ويميز الصوت

---

(١) بالعاملات: ط.

(٢) المنفرّحة: م.

(٣) الساعات: م.

(٤) الرطوبة الجليدية: تسمّى حالياً الجسم البللوري أو العدسة Lens.

العريض والثقيل والأبحّ والدقيق والوسط، ويروّض أنامله ويجسّ الأوتار، فإنّه ينتفع بذلك في علم النبض جدّاً، ولنستشهد على ذلك بفصل من كلام «جالينوس» قاله في كتاب ذكر فيه مراتب قراءة كتبه[١] لما ذكر الفلسفة وصناعة الطب: (ينبغي أن تعلم أنّ الذي يقصد لأحكام هاتين[٢] الصناعتين جميعاً، ينبغي أن يكون ذهناً فهماً جيّد الحفظ[٣] شديد الحرص، محتملاً للتعب، محبّاً له، وأن يتّفق له من السعادة ما اتّفق[٤] لي في تأدّبي منذ صغري مع أبي بعلم الهندسة والحساب، فإنّه لم يزل يؤدّبني بسائر الآداب والرياضات التي تأدّب بها الأحرار، حتّى انتهيتُ من السنّ إلى خمس[٥] عشرة سنة، ثمّ إنّه أسلمني في تعليم المنطق وقصد بي حينئذٍ لتعلّم الفلسفة وحدها، فرأى رؤيا دعته إلى تعليم الطبّ، فأسلمني[٦] في تعليم الطب وقد أتت عليّ من السنين سبع عشرة سنة، وأمرني أن أدوم مع تعليمي للطبّ على ما كنتُ أخذتُ فيه من تعليم الفلسفة، ولولا أنّي شغلتُ نفسي عمري كلّه في معاني الطب والفلسفة ما كنتُ أعلم منهما شيئاً له قدر، على ما اتّفق لي من السعادة بما ذكرت من أمر أبي، وعلى أنّه/ لم يكن أحد ممّن كان يتعلّم معي إلاّ وكنتُ أسبقه [١٦ب]
إلى تعلّم ما كنتُ أتعلّمه). فهذا دليل واضح من قول هذا الحكيم،

---

(١) كتاب في مراتب قراءة كتبه: مقالة واحدة، عرض «جالينوس» فيه بيان ترتيب قراءة كتبه، كتاباً بعد كتاب، وترجمه إلى العربية «حنين بن إسحق العبادي» (ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ١٣٤).

(٢) هاهتين: م، تصحيف.

(٣) بحفظ: ط. ـ م، خطأ.

(٤) نفق: م، خطأ.

(٥) خمسة: ط. ـ م.

(٦) فسلمني: م.

· ١٤٢

على أنّ الحاجة داعية لمن أراد أن يتعلّم صناعة الطب إلى تعلّم المنطق، وجمل من العلوم الرياضية.

ويحتاج الطبيب بعد علم ذلك ضرورة إلى معرفة القوانين التي لا بدّ منها، من ذلك أن يعرف فِرَق الطبّ[١] واعتقاد كلّ فرقة منها، ويعلم ما الذي تصحّح به الفرقة القياسية اعتقادها، وماذا يتوجّه لها الطعن على غيرها؟ ويعلم تركيب الاسطقسات[٢] واستحالتها، وتركيب الأجسام الطبيعيّة منها، واختلاف أمزجتها، ويكون بصيراً بأمر الأعضاء وخلقتها وتشريحها وعددها ومقاديرها ووضعها ومنافعها، ويعرف الأخلاط[٣] ومزاجاتها وأيّها منها تتولّد وأين ومتى، وما المنفعة في تولّدها وكم أصنافها وما الطبيعي منها وما العَرَضي، وما القوّة الحالّة فيها والأرواح الموكلة بتدبيرها، والأفعال الصادرة عنها، ويعلم الأمور الطبيعية والتي ليست بطبيعية والضرورية منها، وطبائعها، وما يحدث عن كلّ واحد منها إذا استعمل على ما ينبغي أو على غير ما ينبغي، وهذه الأمور كيف تحفظ أو تحدث الصحّة والمرض.

ويكون بصيراً بعلم الأمراض وأقسامها واختلاف أنواعها

---

(١) من المعروف أنه كان ثمّة ثلاث مدارس طبية يونانية: الأولى أصحاب القياس Dogmatistes: يعتمدون على الملاحظة والمنطق. والثانية أصحاب التجارب: Empiriques: يعتمدون على نتائج التجربة العملية العلاجية. والثالثة أصحاب الحيل Methodistes: يعتمدون على مقارعة المرض بأي وسيلة كانت لشفائه.

(٢) الاستقصاءات: م، تصحيف.

(٣) الأخلاط. (م) الخلط، وأخلاط الإنسان في الطب القديم: أمزجته الأربعة، وهي: الصفراء والبلغم والدم والسوداء. (الوسيط: ج١، ص ٢٥٠).

وأسبابها والعلامات الدالّة عليها والسليمة منها والمهلكة، وما يمكن منها أن يبرأ وما لا يمكن فيه ذلك، ويكون عارفاً للبحارين وأيّامها [و](١) ما في تقدمه المعرفة فيما يعلم النبض والبول وما يتبع ذلك، جيّد الفراسة بصيراً بطريق الاستدلال على نوع المرض حسن المساءلة(٢) عمّا يجب مطرحاً للسؤال عمّا يحتاج(٣) إليه، حسن
[١١٧] التأنّي والتلطّف/ في حفظ الصحّة ومعالجة الأمراض، عارفاً بطريق القياس إلى استخراج قوى الأدوية ومنافعها وجميع أفعالها وما يتعلّق بها وبتركيبها، وما يحدث لها بعد التركيب من المزاج والقوى والتأثير في بدن الإنسان، ويكون كثير الأسفار والتنقّل في الديار باحثاً عن العلوم طالباً لملاقاة ذوي الفضل كثير السؤال والاستقصاء عن كتب الأوائل من الحكماء ممّا يحتاج إليه، شديد الحرص على جمعها(٤) واقتنائها، وإذا ملكها كان حرصه على قراءتها وفهمها والمواظبة عليها وملازمته لها أشدّ من حرصه على طلبها وتملّكها، إذ الغرض من تملّك الكتب التفهّم ومن ادّخار العلوم التعلّم، وإلاّ كان مالكها حماراً يحمل أسفاراً، ولا يستثقل(٥) حمل التعب والنَّصَب والحرص والاجتهاد والسهر للمطالعة والقراءة وتكرار ما تعلّمه ولا يثق بذكره ظنّاً منه أنّه لا ينسى ما قد قرأه وفهمه، فإنّ النسيان يعرض لكلّ إنسان.

ويصرف همّته في أسفاره إلى أن يعرف اختلاف أمزجة البلدان

---

(١) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

(٢) المسألة: م.

(٣) وردت(لا يحتاج) في: ط، م، والصحيح ما أثبتناه.

(٤) جميعها: ط. م، خطأ.

(٥) يشتغل: م.

والأهوية التي بالطبع والتي بالعرض، ويعرف ما يختصّ بكلّ موضع من حيوان ونبات وبحار وجبال وأنهار، وكيف أمزجة كلّ موضع وأخلاقهم وعاداتهم وأهويتهم وأغذيتهم ومشاربهم وصناعاتهم وما يتجدّد من أمراضهم في فصل فصل، وبماذا يداوون مرضاهم ويمتحن ذلك هل هم مصيبون فيه أم مخطئون، فلينظر خطؤهم[١] منهم أو من أطبّائهم ويفتّش ويبحث عن أسباب هذه الأمور كلّها، ويعمل بحسبها، ولا يقنع بذلك حتّى يستشهد بأقاويل المتقدّمين من الأطبّاء، فإن خالف ذلك/ فلينظر من المخطئ، ولا يغفل مع هذا [١٧ب] الاستقصاء عن الأدوية المفردة ومعرفة صورها وأسمائها وقواها وتمييز جيّدها من رديئها وسليمها من مغشوشها، فإنّه ربّما وصف أدوية ودلّسها الصيادلة على من يشتريها منهم رغبة في أخذ ثمنها، ولا يبالون نفعت المريض أم ضرّته أو قتلته، وإذا وصف الطبيب دواءً غريباً فيجب أن يأمر مشتريه[٢] أن يعرضه عليه ليسلم من حلول[٣] الخطأ بالمريض وينسب ذلك إليه واعتذاره عند من لا يفهم له عذراً، وهذا باب[٤] عظيم لو وصفت فيه ما رأيتُ من الأغلاط والعجائب لطال القول بذكره. وفي جميع هذه الأحوال فليجتهد الطبيب في التباعد عن السوفسطائيين[٥] ليسلم من لحنهم وأغاليطهم وتمويههم.

---

(١) خطأوهم: ط، م، تصحيف.

(٢) مشيرته: م، تصحيف.

(٣) طول: ط، م، والصحيح ما أثبتناه.

(٤) بان: ط، م، خطأ.

(٥) السوفطائية: م، تصحيف.

ومن الأدب والقوانين التي ينبغي أن يلزمها الطبيب في منزله، وبين العوام في الأسواق وعند المرضى وفي البيمارستانات[١] ليعتادها وتسهل عليه وتجري له مجرى الخلق الطبيعي، أن يكون في بيته مكبّاً على النظر في العلوم التي ذكرناها أنّه يحتاج إليها مؤثراً لها على اللذيذ من المطعم والمشرب والمنكح مراعياً لما يحتاج أن يراعيه من إعداد[٢] [الأدوية][٣] واختيارها وإصلاحها، كثير التفكّر في أحوال من بين يديه من المرضى، ناظراً فيما يحتاج أن يدبّرهم قبل[٤] أن يدخل إليهم يحاسب نفسه كلّ يوم فيما فعل معهم ووصف لهم فإن علم أنّه مصيب مضى على ما هو عليه، وإن أخطأ وقصّر في بعضها تلافى ذلك وأعدّ له ما يوافقه، ولا ينبغي أن يكون عجولاً منهوّراً فيضع الشيء في غير موضعه، ولا جباناً عاجزاً عن فعل ما يجب أن يفعل فيفوته ما يحتاج أن يتعب في استدراك ما فرّط فيه، ويكون قليل
[١١٨] النّهم/[٥] والشّرَه على الأكل والشرب واتّباع الشهوات، غير مخلّط في تدبيره وليس وإن أهمل أمره أو خلط في مطعمه ومشربه لضرورة داعية أو لشهوة مفرطة يجب أن يزهد فيه لأجلها أو يعاب في فعلها، مع أنّا بهذا القول لا نطلق إجازة ذلك، قال بعض الحكماء: (قبيح بالملك أن يكون ظالماً، فذلك داعٍ إلى فساد مملكته ورعيّته، وقبيح بالزاهد أن يكون فاسقاً، وذلك مفسد لدنياه وآخرته، وقبيح بالطبيب أن يكون مخلّطاً وذلك مفسد لصحّته وصناعته).

---

(١) المارستان: م.

(٢) اعدادها: ط، م، خطأ، والصحيح ما أثبتناه.

(٣) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

(٤) نبقبل: ط، م، خطأ.

(٥) النهم: م.

وإذا عدم الطبيب الصحّة كان ذلك ممّا يطلق فيه الألسن بالوقيعة والذمّ وأورثه[١] فيها خصالاً منها: حياؤه وخجله إذا سُئِل عن سبب ذلك، ومنها[٢] أنّ القلوب تنفر منه لأنّ الطبيب إذا لم يمكنه[٣] حفظ صحّته ودفع مرضه فبالحري[٤] أن لا يمكنه ذلك في غيره، ومنها أنّ معيشته تفسد فلعن الله تخليطاً يوجب تفريطاً وشهوة تجذب هفوة، ولا ينبغي أن تبلغ به الحميّة المفرطة إلى أن تضعف قوّته ويرقّ جلده ويهزل بدنه ونقلّ شهوته ويصفرّ لونه ويكون ذلك سبباً لحدوث أمراض مزمنة أو مهلكة بعد أن يقيم[٥] بأسوأ حال أكثر من عمره، ويكون مشيه بين السريع والبطيء، قليل التلفّت كثير التردّد[٦] والسلام على من يستحقّه، طويل الروح، مبشّراً بالخير، ضاحك السنّ.

---

(١) ارثه: م.

(٢) ومنها: مكررة، ط.

(٣) يمكن: ط، م، خطأ.

(٤) فبالتحري: م، تصحيف.

(٥) يفهم: ط، م، تصحيف.

(٦) التردّد: ط، م.

ولا يبلغ به الانبساط والبشاشة إلى أن يدقّ الأبواب ويتطفّل[١] على المرضى فيتهاونون به وتسقط هيبته ولا يُطاع أمره، ولا يكون من الفظاظة والتكبّر إلى الحدّ الذي يُخاف منه ويمقت، ولكن يكون بين الحالين. ولا يمضي إلى المرضى حتّى يُستدعى، فإنّه أجلّ له وأرفع لمنزلته/[٢]، فإن ظهر له من المريض أو من أهله زهد فيه فلا [١٨ب] يُعاود عليهم[٣]، فإذا دخل على المريض فليقعد قريباً منه بحيث يرى وجهه ويقابله ويسمع كلامه ويسأله[٤] عمّا يجب أن يسأل عنه وينصت له ولا يقنع بقوله حتّى يستشهد عليه بقول من يخبره أمره ويدبره ويستقصي عنه في مواضع متفرّقة، فإنّه ربّما استحيا[٥] وفزع[٦] من يخبر حال المريض أن يكذب قوله إن كان قد أخفى شيئاً أو كتم شيئاً ممّا قد استعمله أو نسيه، وربّما كان العليل لا يحسن أن يصبر عمّا يجد إمّا لسوء تصرّفه في العبارة أو لغموض العلّة، فإن ظهر للطبيب من المريض أو ممّن يليه تلجلج أو بهرجة[٧] في القول أو أحسّ بمغالطة أو مخالفة لما يأمر به فليهرب، فإنّ الخطأ يُنسب إليه لا إليهم، وليبحث عمّن دخل إليه من الأطبّاء وما أشاروا به، ولينظر

---

(١) ويطفل: ط، م.

(٢) بمنزله: ط، م، تصحيف

(٣) إليهم: ط.

(٤) ويسال: م.

(٥) استحلى: ط، م. خطأ.

(٦) فزع: م، تصحيف.

(٧) تهرجه: ط، م، تصحيف.

مع مَن الصواب، ولا يحمله حبّ الغلبة أن لا يدخل تحت الحقّ، فإنّ المنصف مَنْ كان الحقّ صديقه في أي جهة كان، ولا يصف للمريض شيئاً[١] حتّى يجيد البحث والسؤال والاستقصاء، ويستدلّ بالدلائل والعلامات على المرض، فحينئذٍ يصف بنصح واجتهاد ما يعلم[٢] أنّه في الغاية من المداواة[٣]، فإن قصر حال المريض عن ذلك فليلتمس ما يقرب مأخذه ويسهل ثمنه ولا يتخلّف في المنفعة عمّا يحتاج إليه، وليبشّر المريض بالعافية ويقوّي نفسه ما قدر عليه، وليعلّق ذلك بشرط وهو قبوله لأمره ولا يطيل الجلوس عند المريض ولا يتحدّث عنده بما لا يحتاج إليه ولا ينفعه، فإن سأله القعود عنده والمهلة فلا يقعد إلاّ لما يعلم أنّ فيه صلاحاً للمريض. وبالجملة فليلطف التخفيف، فإنّه أحلى لموضعه في قلوب الناس.

[١١٩] فإذا فارق المريض/ فليكثر تفكّره في حاله وما يجب أن يدبّره في المستأنف، ولا يلزمه عيب إن هرب من ظهور علامات مهلكة، فإنّ ذلك ممّا يدلّ على براعته في تقدمة المعرفة.

ويواظب على الدخول في البيمارستانات[٤] والخدمة فيها والتصفّح لغرائب الأمراض التي يجدها فكثيراً ما يشاهد في هذه المواضع أمراضاً لم يسمع بها ولا رآها في المسطور، بل ربّما كان يظنّ امتناع وجودها مع[٥] أنّ الأمراض وإن تفنّنت واستغربت من

---

(١) شيء: م، خطأ.

(٢) وردت (ما لا يعلم) في - م.

(٣) المادَاواة: ط.

(٤) المارستانات: م.

(٥) وردت (مع ما) في ط، م، والصحيح ما أثبتناه.

تركيب الأسباب فأنواعها وأجناسها محصورة في القوانين محفوظة في الأصول، وإذا رأى شيئاً من هذه الأصول فليثبته في دستوره لينتفع به هو أو غيره.

وإذا دخل في البيمارستانات[١] فليقعد في الموضع الذي يستحقّه ويتجمّل به، وليتردّد بالسكينة والوقار ويحسن أيضاً أسماعه لما يشتكي إليه المريض ومن يهمّه أمرهم مع رفق بهم وتوقف عليهم في إفهام ما يصفه إليهم وإن[٢] أمكنه أن يعالج بالغذاء (فلا يقرب الدواء وأن يعالج بالدواء)[٣] فلا يقرب الحديد إلاّ فيما لا بدّ منه، ويصف لكلّ مريض على حسب[٤] حاله وإمكانه ليسهل إليه تحصيله، ولا يذكر له دواءً معدوماً[٥] ولا يذكر له اسماً مجهولاً أو غريباً، ولا يكون حنقاً عليهم ولا مكافئاً لهم بقبيح ربّما ظهر منهم إليه بتقصير في مجازاة له بجميل، فإنّ «أبقراط» يقول في (الوصايا)[٦]: (إنّ كثيراً من المرضى نعم، أهل لأن نتوانى عنهم فخاصّة من لم يفعل ما يؤمر به إلاّ أنّه لا ينبغي أن نؤاخذهم بسوء صنيعهم إلينا ولا نصرف وجوهنا عنهم وخاصّة من كان منهم/ سيّئ الحال). [١٩ب]

وقال بعد ذلك: (وليس ينبغي لنا أن نعاقب مَن كان على هذه الحال فنصف له غير ما يوافقه، فإنّ هذا جهل في صناعة الطب غير ملائم لنا، بل ينبغي لنا وبحقّ أن نحكم علاجهم وأيّ امرئ أعطاه

---

(١) المارستانات: م.

(٢) وإذا: ط.

(٣) ما بين قوسين ( ) ساقطة في ـ م.

(٤) حسب: ساقطة، ط.

(٥) معلوماً: ط، م، خطأ، والصحيح ما أثبتناه.

(٦) الوصايا: من الكتب المنحولة لأبقراط. ابن أبي أصيبعة ـ عيون الأنباء ـ ص ٥٥.

الله علماً يشفي به المرضى وحباه بذلك فبلغ من قساوة قلبه أن لا ينصحهم[١] ولا يشفق عليهم إنّه لبعيد من كلّ خير بعيد من الطبّ والتشبّه[٢] بأهله).

وقال أيضاً: (وأمّا أنا فآمر من أراد مزاولة هذه الصناعة والقرب منها أن يعالج المرضى برأفة ورحمة وشفقة [و][٣] نصيحة، لا يتوانى عنهم عند الشدائد ولا يخذلهم[٤] في وقت حاجتهم إليه، ويكون بجميع المرضى رحيماً وعليهم شفيقاً ولهم ناصحاً، ويحسن القيام عليهم[٥] ويصحّح الصفات لهم ويجتهد فيما ينفعهم وإن كانوا فقراء، فإنّه يدرك بذلك شرف الدنيا والآخرة ويكون محموداً، وإن اتّفق له فقير مريض غريب فينبغي له أن يعالجه ويقوم بتدبيره وينفق عليه من ماله إن أمكن لأنّه واجب عليه وله فيه زين ورفعة لأنّ من كان من الناس رحيماً بهم شفيقاً عليهم فهو من أهل صناعة الطب متّصل بها محبّ لها، ومن كان غريقاً في حومة قلّة[٦] العلم لا يعرف شيئاً من هذا ولا يحسنه فلا ينبغي أن يسمّى طبيباً وإنّما يوفق أهل هذه الطائفة بحدودهم وهم يظنّون أنّهم لا يعاقبون بذلك في المعاد، واعلم أنّ فيما وصفتُ هؤلاء، منفعة للطبيب الماهر، وذلك أنّهم إذا أساؤوا في أفعالهم ومخالفتهم الحقّ مُدِح الطبيب الماهر الناقد البصير إذا قيس بالجاهل الذي هو طبيب الاسم/ فقط) فهذا [١٢٠]

---

(١) وردت (يصحبهم بنصحهم) في ـ ط، والصحيح ما أثبتناه.

(٢) والتشبيه: م.

(٣) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

(٤) يجد لهم: م، تُصحيف.

(٥) وردت (لهم عليهم) والصحيح ما أثبتناه.

(٦) فله: ط، م.

فصل من كلام الفاضل[١] «أبقراط» نقلناه ليشهد بصحّة ما قدّمناه، ومن اللازم الواجب على الطبيب أن لا يصف شيئاً من السموم والأدوية القتّالة ولا يذكرها البتّة ولا يصف دواءً [يسقط][٢] الأجنّة ولا يتكلّم إلاّ بما فيه جلب منفعة أو دفع مضرّة، فإن فعل شيئاً من ذلك فإنّ الله يكافئه في الدارين، ويجب أن يتباعد من[٣] كلّ فساد ودسّ، وبالجملة فلا يفعل ولا يتكلّم إلاّ بما لا يستحيي أن يظهره للناس ويكتم أسرار المرضى فإنّ كثيراً من الأمراض لا يجوز أن يذكرها الطبيب لغير أصحابها، كالبواسير والأمراض المتعلّقة بالأرحام ونحو ذلك.

هذه هي الوصايا التي ذكرها «صاعد بن الحسن» [في][٤] (التشويق الطبي)[٥] ولا يخفى أنّ ما ذكره من أنّه يلزم الطبيب أن يعرفه غير لازم.

(١) الأوحد: م.
(٢) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.
(٣) في: م.
(٤) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.
(٥) التشويقي. م، تصحيف.

١٥٢
وصية لابن هُبَل[1]

ومن الوصايا[2] ما ذكره «ابن هُبَل» في تضاعيف فاتحة كتابه المسمّى بـ(المختار)[3] [وهو][4] كتاب جليل: (وهو أنّه لمّا كان الطبّ من أنفس الصنائع وأشرف العلوم وذلك لأنّ موضوعها هو بدن الإنسان، وغايتها وهي حصول الصحّة أفضل أحوال الإنسان، كان القدماء من الحكماء يحتاطون في حفظها وصيانتها عن[5] غير أهلها، وكان من عادة الفرس واليونان[6] أن يوقفوا الصنائع والعلوم على الأبناء فلا يتعدّى أحد صناعة أبيه وكان هذا يوجب نقصان الصنائع وذهاب العلوم، إذ[7] كان العالِم الفاضل الذكي ربّما ولد الأبله البليد، وبالعكس، فيمنع المستعدّ، فيضيع فيه التعب، فلمّا كان زمان «أفلاطون»[8] أنكر هذه السنّة ومنع منها وشبّه هذا الفعل

(١) ابن هُبَل: (٦١٠ هـ/١٢١٣م): طبيب أديب شاعر، اشتهر بصناعة الطب، وكان علاّمة زمانه، وله شعر حسن وألفاظ بليغة. (ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ـ ص ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨)، (معجم المؤلّفين: ج٤، ص ٢١).

(٢) المصايا. م.

(٣) المختار في الطب: صنفه ابن «هُبَل» سنة ٥٦٠ هجرية بالموصل وهو كتاب جليل يشتمل على طب نظري وعملي، وقد نشرته جمعية دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن (الهند) سنة ١٣٦٣هـ.

(٤) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

(٥) من: م.

(٦) يونان: ط، م، خطأ.

(٧) إذا: م.

(٨) أفلاطون: (٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق.م) أحد أعمدة الحكمة السبعة، طبيب وفيلسوف يوناني، له كتب طبية وفلسفية. (النديم: الفهرست، ص ٣٤٣)، (القفطي: أخبار العلماء، ص/١٣)، (ابن ابي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٨٠ ـ ٨١).

[٢٠ب] بالبذر الواحد المتكرّر على أرض[1] واحدة، فإنّه/ يفسد ويستحيل.

وأمّا «أرسطاطاليس»[2] فإنّه كتب ينكر هذه السنّة ويقول: (إنّ العلوم لا توقف على الوارث، فإن الوارث لم يتجشّم الكسب فيجهل أسبابه فهو أيضاً يجهل أسباب الحفظ، بل الواجب ترك العلوم والصنائع وقفاً على المستعدّين لها المطبوعين فيها، فمن مال طبعه إلى صنعة أو علم مُكّن من الاشتغال به، وقد كان من القدماء من يصوّر أرباب الصنائع بصورهم وهيئاتهم على حيطان البيوت ويدخل الصبيان إليها ويعرضها على طبائعهم، فمن استحسن صورة وهيئة صانع أو عالم اشتغل بصناعته أو علمه.

وأمّا الصناعة الطبية، فلشرفها وعظم خطرها كان الحكماء يختارون لها التلامذة بطريق الفراسة، فيختارون من كان حَسَن الصورة متناسب الأعضاء، معتدل المزاج، طاهر الأخلاق، منتظم الأحوال، صادق الأحلام، ويتّخذونهم كالأولاد والتلاميذ بعضهم لبعض كالإخوة، لئلاّ يفوت المعلّمين نصيبهم الذي لأجله كانوا يخصّون بالتعليم أولادهم، ويأخذون عليهم العهود والمواثيق في صيانتها وحفظها من غير أهلها ولزوم قواعد الحكمة. فمن ذلك أن يكون تعلّمه إيّاها طالباً بها وجه الله وحسن ثوابه، وأن لا يطلب عليها جزاءً من المخلوقين، فكانت هذه الصناعة من آداب ملوكهم

---

(١) هذا: م.

(٢) أرسطوطاليس: فيلسوف يوناني من كبار مفكّري البشرية، كان معلّم «الإسكندر المقدوني» وأوحدَ في الطب، وغلب عليه علم الفلسفة، أهمّ مؤلّفاته (المقولات - الجدل - الخطابة - السياسة - ما بعد الطبيعة... وغيرها). (النديم: الفهرست، ص ٣٤٥)، (القفطي: أخبار العلماء، ص ٢١)، ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٨٦).

وفضائل أعيانهم، فكانوا غنيين عمّا يضطرّون إليه في حياتهم من ذخائرهم وأموالهم، فلمّا أفضت هذه الصناعة إلى الضعفاء وأرباب الحاجة جعلوا أرزاقهم في صناعتهم لئلاّ تتوزّع خواطرهم في أبواب المكاسب فتذهب الصناعة وتضعف قواعدها، إلاّ أنّهم أكّدوا أن لا[1] يلتمسوا من المرضى إلاّ/ أن يعطوا من غير طلب، وأن [١٢١] يستعينوا بما يصل إليهم من أغنيائهم على مداواة الضعفاء والذين يتعذّر عليهم تحصيل الأدوية، وأن يلقوا المرضى بالبشاشة والهشاشة والإيناس، وأن يتوفّر الطبيبُ على مَنْ يستطيع أن يفي بواجب تدبيره منهم، ويمشي إلى ضعفائهم ولا يتكبّر على فقرائهم ولا يستنكف عن مداواة مَنْ قد أنهكته الأعلال وكثرت به الجراحات والمواد[2] استقذاراً له وأنفة منه، ولا يغربُ في ذكر الأدوية ومن المشهورات ما يقوم مقامه إظهاراً لفضله وستر ما له في كشفه ثواب.

وأن يكون ناصحاً فيما يتوخّاه من عمل الصناعة، متقرّباً بنصحه إلى الله تعالى لا إلى الخلق، فما أحسن ما قيل في (صحيفة السفراء)[3]:

(يا أيّها الإنسان اكتم صنيعكَ عن عيون البشر، فإنّ له عيوناً من عمرة ملكوت السماء تبصره وتجازي عليه).

وأن لا يصفوا الأدوية لإسقاط الأجنّة، ولا ما يمنع الحَبَل لقطع النسل، إلاّ أن يدعو[4] إلى ذلك أمر عظيم يُخشى منه هلاك

---

(١) لا: ساقطة، ط.

(٢) المواد: (م) المدّة، وهي القيح. (الوسيط: ج٢، ص ٨٥٨).

(٣) الصغرى: ط.

(٤) يدعوا: ط، م، خطأ.

المرأة في الحمل والوضع، وأن لا يعطوا السموم لغرض أو سخط، ولا ينحلوها ولا يعلّموها ولا يتعلّموها، إلاّ في معرض مداواة مَن لعلّة يشفى منها، وكذلك يأخذون عليهم العهود في حفظ الأسرار، فإنّهم يطلعون ما لا يطّلع(١) [عليه](٢) الآباء والأولاد من أحوال الناس، وأن يلزموا العفّة وغضّ الطرف، وإذا دخلوا على بيوت الناس لا تكون هممهم مصروفة إلاّ بما يعود بمصالح المرضى، وأن يتطهّروا ويتزيّنوا ويتطيّبوا كيما يجد المرضى عند مشاهدتهم الراحة منهم وأن يحسنوا سؤالهم وتطييب قلوبهم ولا يؤيسوا(٣) المرضى في أمراضهم المعروفة(٤) الخطر(٥) من العافية، فيتعجّلون(٦) منهم سقوط
[٢١ب] القوّة وضعف الرجاء الذي وراءه من جانب الله تعالى/ علم ما لا يعلمون، فليس في طاقة البشر الاطّلاع على جميع [الأسرار أي](٧) أسرار الخليقة ومعرفة حسن نظام العالَم، فقد طالما خرج الطبيب من عند المريض وهو ميئوس منه، فعاد وقد فتح الله له أبواباً من الصحّة وخرج من عند آخر ورجاؤه فيه أوثق من وثوقه بقوّة بدنه واستقامة صحّته، ثمّ قضي عليه.

فما أحسن ما قال (الأستاذ) ﷺ:

(لا يجوز للطبيب أن يسلم المريض إلى الهلكة بغالب الظنّ

---

(١) يطلعون: ط، م.

(٢) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

(٣) يؤنسوا: م.

(٤) المعرفة: ط، م. تصحيف.

(٥) الخطرة: م.

(٦) فيتعجّلوا: ط، م، خطأ

(٧) ما بين معقوفتين [ ] ساقطه، ط.

الذي إن صدق فما ضرّ تردّده[١] إليه، وإن كذب فكمن دفن حيّاً مسكوتاً).

فمثل هذه الوصايا وما شاكلها من أفعال الخير كانوا يتعمّدون فيها التأكيد على المتعلّمين وأن [لا][٢] يبخلوا بها على الطالبين المستحقّين.

(١) بردة: ط ـ م، تصحيف.

(٢) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

157

وصيّة لابن زهر

ومن الوصايا وصيّة «ابن زهر الأندلسي»[1] واسمه «أبو العلاء»[2]، لابنه «أبي بكر زهر بن زهر»[3] ذكرها «ابن مطران»[4] في (بستان الأطبّاء)[5] وزاد عليها في بعض أشياء، وأشار إليها بقوله وصيّة «ابن زهر» لابنه:

(بذكر الله تعالى تصحبك السلامة، ما أنفذ إليك جملاً وهو أنّ

---

(١) ابن زهر الأندلسي: الطبيب العربي الأندلسي، أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر بن زهر الإيادي، المولود في إشبيلية، والمتوفّى فيها سنة (٥٥٧ هـ)، من أسرة أندلسية توارثت علم الطب وحملت لواءه في الغرب الإسلامي، مارس الطب واشتهر به، كان بارعاً في التشخيص والعلاج. من أشهر مؤلّفاته: التيسير في المداواة والتدبير (ابن أبي أصيبعة: عيونّ الأنباء، ص ٥٢١).

(٢) أبو العلاء: المقصود به «أبو مروان» ابن «أبي العلاء» المتوفّى (٥٢٥ هـ/ ١١٣٠م)، وذلك لأنّ الوصيّة المذكورة منقولة من كتاب (تذكرة) لأبي مروان، ذكر بها لابنه أبي بكر أوّل ما تعلّق بعلاج الأمراض، انظر: ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٥٢١، وهو خطأ من الناسخ.

(٣) أبو بكر زهر بن زهر: (ت ٥٩٠ هـ)، أخذ صناعة الطب عن أبيه، واشتهر في أقطار الأندلس وغيرها من البلاد، خدم دولة الملثّمين والموحّدين. (ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٥٢١).

(٤) ابن مطران: (ت ٥٨٧ هـ/ ١١٩١م) طبيب مشهور من دمشق، خدم بصناعة الطب الناصر صلاح الدين الأيوبي، صنّف العديد من المؤلّفات. (ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٦٨٥)، (أحمد عيسى: معجم الأطبّاء: ص ١٣٥ ـ ١٣٦).

(٥) بستان الأطبّاء: صنّفه «ابن المطران» بعنوان: (بستان الأطبّاء وروضة الألبّاء) جمع فيه ما وجده من ملح ونوادر وتعريفات مستحسنة ممّا طالعه أو سمعه أو نسخه، وقد قام بتحقيقه الدكتور «عبد الكريم أبو شويرب»، ونشرته جمعية الدعوة الاسلامية العالمية (طرابلس ـ ليبيا) عام ١٩٩٣م.

معظم أطبّاء وقتنا هذا ليس يقبلون في أدويتهم إلى ضدّ الجهة[١] التي مال إليها المزاج بقدر ذلك الميل، حتّى إنّهم ربّما طفقوا فأورثوا[٢] المريض ضدّ العلّة التي كانت به وقبل ذلك أحدثوا سوء مزاج[٣] واضطراباً واختلالاً في القوى وسقوطاً فيها، وكم من مرّة أعانوا أسباب الموت، وحسب الطبيب أن يقتصد في علاجه على دون ما يحسبه تخميناً أنّه يحتاج إليه، فإذا شاء الزيادة زاد وكمّل في أيّام كثيرة مع أمن[٤] وثقة ما كان يعمله في أيّام يسيرة مع خوف وتوقّع سوء عاقبة. وربّما غلط الطبيب ـ ومن المعصوم من الغلط ـ في معرفة سبب المرض هل هو حار أو بارد، فظنّه بارداً والسبب حار[٥] وظنّه حارّاً والسبب بارد[٦]، مثل وجع يشكوه المريض في المعاء إذا مسّه البرد يزيد وهو مع ذلك عن/ خِلط حارّ صفراوي، وإنّما يحرّكه[٧] [١٢٢أ] البرد لما جبلت الطباع عليه من أنّ كلّ مقبّض بارد فهو يهيّج الأوجاع، وإن كان سبب الوجع حارّاً، إذ كلّ مسخف[٨] وإن كان حارّاً فهو يكسر سَورة الوجع. لي: (انظر إلى قوله مسخف فإنّه لم يقل مسخّن لأنّ القضيّة كلّيّة والتسخيف يقلّل ما في العضو من مادّة، فيوجب راحة، إلاّ أن يعود عوض ما تحلّل) ويكثر قلّة تسكين أوّلي لا بدّ منه إلى أن يجذب العضو مكانه إن جذب ومنه الماء الفاتر.

---

(١) الجهلة: م، تصحيف.

(٢) فارثوا: ط، تصحيف.

(٣) مزاجاً: ط، م. خطأ.

(٤) أمر: م.

(٥) حارّاً: ط، م. خطأ.

(٦) بارداً: ط، م. خطأ.

(٧) تحرك: ط، م. تصحيف.

(٨) مسخّف: سخّف الجوعُ فلاناً: أضعفه وأهزله (الوسيط: ج١، ص ٤٢١).

وانظر إلى قوله مسخف ولا تعمق بنظرك إلى الحادّ الشديد الحرارة، فإنّه ليس مسخّفاً بل محلّلاً[١] ومبخّراً ومجفّفاً وجاذباً وما شاكل ذلك، فإنّ التسخيف يكون بالحرارة الفاترة وهي مدفونة.

قال الشيخ «أبو العلاء»:

(وإن كان سبب الوجع حارّاً فتحيل الطبيب عادته في أدويته [إلى][٢] التطفيف وغلط في سبب العلّة وطفّف في علاجه وهو غالط، أي بليّة يجلب على المريض فأيّ فضيحة يفضح نفسه وحسب الطبيب أن يكون دواؤه في الدرجة الأولى من مفردة أو مجموعة يؤلفه وينظر كيف موقع الدواء من العليل، فإن تبيّن له ولو نفع يسير في اليوم الأوّل أو الثاني أو الثالث كان على طمأنينة وثقة، قوّى أدويته قليلاً قليلاً وكان أمره بين يديه وقدّامه ويستقبل منه ما يشاء، ولو لم يكن الطبيب يخاف الغلط البتّة لكان الجزم له في أن يغيّر البدن إلى الاعتدال بتدريج، وتذكّره رجلاً أصابه البرد حتّى حصر[٣]، ثمّ رأى أن يسخن بدنه بالنار دفعة ما الذي يصيبه؟ ولأنّ هذا عن سببين قويين ظاهرين ينكشف للإنسان أمره، فأمّا ما يصيب البدن من الاضطراب عند تنقّل المزاج دفعة فيخفى إلاّ عن الفرد من الناس، فإنّ في عرضه الدرجة/ الواحدة [٢٢ب] من درجات الأدوية لموضع انتقال وإن كان من الخطأ العظيم الانتقال من الدرجة الأولى إلى آخر الثانية دون توسّط، وما قلته لك في المفردات افهمه في المزدوجات، كما يجب لك أن تفهم ما قلته لك في

---

(١) متحلّلاً: م.

(٢) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

(٣) حصر: حصره المرض أو الخوف، منعه من المضيّ لأمره، وفي معنى آخر: حصر فلان: احتبس ما في بطنه من فضلات. (الوسيط: ج١، ص ١٧٨).

القوى الأولى وفي القوى[1] الثواني وفي القوى الثوالث، مع الانفراد والازدواج، والمسهّل من أعظم ما تصرف وهمك إليه، فإنّه وإن كانت الأدوية المنحرفة عن الوسط سموماً، فالدواء المسهل مع أنّه كاد يكون قتّالاً فإنّه يضارع السموم في قوّة الحرافة[2] عن الوسط، ويضارع الأدوية القتّالة في أنّه يجذب الأخلاط من الأوردة[3]، وإنّما يخالفه في أنّ الأدوية القتّالة منها ما يحيل البدن في جملة جوهره، ومنها ما يسهّل الدم ويحيل جملة البدن مع إسهاله الدم الذي به قوام الطبيعة، وهو مركز الحياة، كالزيت للقنديل، وسائر الأدوية المسهلة المأمونة تسهّل الأخلاط، فاجعل في نفسك للأدوية المسهلة درجات في قوّة الإسهال وضعفه ودرّج[4] فيما تسقيه من دواء مسهل من أوّل الدرجة الأولى إلى آخرها، وإيّاك أن تتعدّى إلى الثانية وإن كان الأطبّاء لم يجعلوا المسهلة درجات في قوّة الإسهال فإنّ من حزم الطبيب أن يضع لها درجات في نفسه ليرتبط له ما يحتاج إليه، وحسبكَ لقويّ البدن الأزبّ[5] الملزز اللحم أن تسقيه ما يكون إسهال مجموعه في آخر الدرجة الأولى، ومع ذلك لا تسقِ مسهلاً حتّى تقطع الأخلاط، ولا تسقِ مسهلاً من غير أن تتقدّم فتخلط به ما يقوّي المعدة كالمصطكي[6] والأنيسون[7]

---

(١) القواني: ط، م. تصحيف.

(٢) الحرافة: حدّة في الطعم تحرق اللسان والفم. (الوسيط: ج١، ص ١٦٧).

(٣) الأدوية: م، تصحيف.

(٤) وجد: ط، م. تصحيف.

(٥) الأزبّ: القصير الضخم البطن والألية. (الوسيط: ج١، ص ١٥).

(٦) المصطكي: صمغ أصفر تفرزه شجرة المصطكي. (شهابي - ص ٤٤٨).

(٧) الأنيسون: من اليونانية، نبات سنوي زراعي من فصيلة الخيميات، بزره من التوابل. (شهابي، ص ٢).

والأفسنتين[١]. وما يحجب المضرّة عن الأمعاء كالمحبطالي يعني السبستان[٢] والكثيرا[٣] ولبّ الفستق[٤] مع أنّه يحجب/ ويقطع المضرّة [١٢٣]
عن الأمعاء، يقوّي المعدة ويمنع إخلال الأدوية المسهلة بالكبد، والزيت أيضاً صالح بسبب أنّ الطباع تألفه، ولبّ الجوز[٥] يحجب الأدوية المسهلة ويعينها بعض المعونة[٦] بتنقيحه، فإن كان الزمان حارّاً فاكتفِ بسقي الأدوية المسهلة بعد شرب المقطّعات والملطّفات من غير مذيب تخلط بالمسهلة كالملح والدار فلفل[٧]، وأمّا كيف يُستعمل في الزمان الحار فبتوسّط بالماء وبالإكثار من عود السوس[٨] والعنّاب[٩]، ومع ما في العنّاب من الحجاب بالترطيب فإنّ فيه نفعاً للرئة والصدر بخصوصيّته، وأمّا إن سقيتَ الدواء في البرد فلا بدّ من المذيبات المقطّعات وسقي الدواء في الحرّ والبرد خطر يجب تجنّبه، إلاّ عند

---

(١) الأفسنتين: من اليونانية، عشبة معمّرة تنبت برية تزرع لعطرية في جميع أجزائها، تُستعمل في الطب للهضم والإدرار في جميع أجزائها. (شهابي: ص ٢).

(٢) السبستان: من الفارسية، شجر له ثمر مخاطي كان يُستعمل لتليين الصدر، ويُستعمل ثمره من دبق الطيور. (شهابي: ص ٦).

(٣) الكثيرا: نبات من القرنيات، يُستخرَج منه صمغ مشهور، ويسمّى أيضاً (قتاد). (شهابي: ص ٣٠٣).

(٤) الفستق: جنس أشجار مثمرة من الفصيلة البطمية يزرع لثمره. (شهابي: ص ٥٥٤).

(٥) الجوز: شجرة مثمرة من الفصيلة الجوزية. (شهابي: ص ٧٨٣).

(٦) العونة: ط، تصحيف.

(٧) الدار فلفل: ثمر شجرة الفلفل. (شهابي: ص ١١٠).

(٨) السوس: نبات عشبي مخشوشب معمّر برّي طويل الجذور عميقها، تُسحق جذوره السكّرية وتُستعمل في الطب، ويُصنع منها شراب معروف. (شهابي: ص ٤٢١).

(٩) العنّاب: شجر مثمر من الفصيلة السدرية، له ثمرة نووية حلوة تؤكل. (شهابي: ص ٣٨٨).

الاضطرار، وأمّا في البرد فلجمود الأخلاط، وأمّا في الحرّ فلإفراط اليبس، إذ لا بدّ مع ما يستفرغ من الأخلاط الدموية أن يستفرغ من رطوبة الجسم الطبيعية شيء، فلذلك يخلق الإكثار من الأدوية المسهّلة للأبدان.

وتذكره أن لا يغفل عن تقوية الأعضاء وإن احتجتَ إلى تسخيفها فيما هو معتدل إلاّ في التجفيف فتجفيفه نشّف قليلاً فإنّ الأعضاء متى أُغفِل فيها ذلك وخاصّة الرئيسة منها هلك العليل.

وتذكر خصوصيّة الجوهر ولا تنسَهُ من أنّ الخلّ يوصل الأدوية إلى الطحال[1] والعسل والسكّر يوصلانها إلى الكبد، والسكّر أوفق للمعدة والمثانة، فإنّ عود السوس له خصوصيّته في شبه مزاج الإنسان، فلا تغفله، وتذكّر العنّاب للرئة لمشابهتها بما[2] هو مستكن[3] فيها من الرطوبات، وبهذا السبب صار الخلّ يوصل الأدوية إلى الطحال، بما فيه من الحموضة الشبيهة بحموضة السوداء[4] التي مقرّها[5] الطحال، وكذلك تفعل/ الحلاوة بالكبد، لأنّ الدم [٢٣ب] حلو، وأمّا المثانة فيوافقها عود السوس لأنّه يسكّن حدّة ما[6] يمرّ بها

(١) الطحال: عضو يقع بين المعدة والحجاب الحاجز في يسار البطن، تتّصل وظيفته بتكوين الدم وإتلاف القديم من كريّاته. (الوسيط: ج٢، ص ٥٥٢).
(٢) لما: م.
(٣) مستكين: ط، م.
(٤) السوداء: أحد الأخلاط الأربعة التي زعم الأقدمون أنّ الجسم مهيّأ عليها، بها قوامه ومنها صلاحه وفساده، وهي: الصفراء والدم والبلغم والسوداء. (الوسيط: ج١، ص ٤٦١).
(٥) مقعرها: ط. - م. تصحيف.
(٦) بما: م.

من البول، وأمّا الدوقو[١] فإنّه يسرّع الأدوية إلى الكلى، لأنّه مدرّ البول، ولأنّها تلتذّه.

وأمّا العقارب[٢] فإنّها تفعل مثل ذلك بخصوصيّتها في أضرارها، فتسرع بالأدوية نحوها، فإذا كانت نزرة[٣] يسيرة لم تصل إلاّ وقد استحالت، فتبقى الأدوية ولا يكون لأضرارها[٤] أثر. وكذلك الذراريح[٥]، وليس ينكر أن تكون العقارب ضدّ الذراريح وكلاهما مضرّ بتلك الأعضاء، فإنّهما يفعلان ذلك بخصوصيّة جوهرهما لا بمزاجهما.

واعلم أنّ المسهّلات كلّما غسلتها نقص إسهالها، وكلّما دقّقتها كانت بأن تقتل أليقَ منها بأن تسهل، وإن كانت مأمونة أدرّت البول، والمقبّضات كلّما غسلتها زدتها إمساكاً.

لي[٦]: أي للطبع، وكلّما دققتها كان فعلها أكثر وامسكت حينئذٍ البول زائداً متى رمتَ تسكين وجع عن أي سبب كان من داخل أو خارج فاستعمل الدواء فاتراً (فالحرارة تحمله إلى الأعضاء أو تسقيه فاتراً)[٧] والدابغ بارداً في قوام مياه الآبار والمفتّح سخناً

---

(١) الدوقو: من اليونانية، وهو بزر الجزر البري، حبّه يسمّى قميلة بالشام (تصغير قملة). (أحمد عيسى: ص ٢٦).

(٢) العقارب: (م) عقرب، دويبة من العنكبيّات ذات سمّ تلسع. (الوسيط: ج٢، ص ٦١٥).

(٣) بذرة: م، تصحيف.

(٤) أضرارها: ط، تصحيف.

(٥) الذراريح: (م) ذُراح، حشرة حمراء أعظم من الذباب منقّطة بسواد، تطير، وفيها أنواع، تُقْتَل وتجفّف وتُسحَق وتُستعمل في الطب. (الوسيط: ج١، ص ٣١٠).

(٦) لي: ساقطة، م.

(٧) العبارة بين قوسين ( ) ساقطة: م.

والمحلّل أسخن من الجالي قليلاً.[١٦٤]

متى سقيتَ الدواء المسهّل لتنقية الرأس ففي[(١)] ماء: سخّن واخلط به ماءً يسيراً أنضجت فيه زبيباً[(٢)] أو مزجت به يسير رُبٍّ[(٣)].

لي: يريد رُبَّ العنب.

قال: ويكون قبل سقيه بأربعة أيّام، ومتى رمتَ تفتيح سُدَّة فاستعمله سُخناً، ومتى خشيتَ غشياً فاسقِها بماء بارد، و[في][(٤)] الأورام استعمل الرّوادع وبعد ذلك اخلط المحلّل معه ويكون المحلّل قليلاً، وفي آخر الأمر يكون المحلّل من الروادع[(٥)] إذا كان التفتيح مرادك فاغسل العضو بما يجلو كالماء والعسل، وإن كان في الأذن فبسكنجبين[(٦)] قد طبخ فيه جفت بلّوط[(٧)] ويسير/ [١٢٤] اسطوخودوس[(٨)] وبخار البابونج[(٩)] لتسكين وجع الأذن، فإن كان

---

(١) وفي: ط، م.

(٢) زبيباً: جفيف العنب خاصّة ويسمّى العنجد والكشمش، صنف من الزبيب لا حبّ له. المعتمد في الأدوية المفردة: ص ١٩٣).

(٣) رُبّ: عصارة التمر المطبوخة، وما يُطبَخ من التمر والعنب. (الوسيط: ج١، ص ٣٢١).

(٤) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

(٥) الرادع: م.

(٦) سكنجبين: شراب مركّب من حامض وحلو. (الوسيط: ج١، ص ٤٤٠).

(٧) بلّوط: من شجر الأحراج، له ضروب متعدّدة. (شهابي: ص ٥٨٩).
وجفت البلّوط: هو القشر الرقيق المستبطن للقشر. (شرح أسماء العقار: ص ١٢).

(٨) اسطوخودوس: نبات من الفصيلة الشفوية جميع أنواعه عطرة من أجلّ الأفاويه، وهي بريّة، وتُزرع للرائحة والتزيين، يستخرجون منها دهن الخزامى بالتقطير. (شهابي: ص ٤٠٥).

(٩) البابونج: من الفارسية، جنس نباتات عشبية طبيّة من الفصيلة المركّبة، ذو زهور صفراء وبيضاء. (شهابي: ص ٤٤٨).

الوجع عند ورم فقطِّر زيت البابونج مع زيت الورد، فإن كان عن ريح بخارية فاكتف ببخار البابونج ودخان العود(١) ومن أدوية الأذن الجفت بما ذكرتُ لك والورد والبابونج والشبث(٢) والسكنجبين لها خصوصية، فاستعمل كلاً مفرداً أو مضافاً.

وكثيراً ما يحدث في حضرة مراكش(٣) - من عظام بلاد المغرب - أوجاع نحو الكبد شديدة جدّاً يتبعها يرقان(٤) فلا يخطر ببالك أنّ ذلك في الكبد، إذ لا قوّة حسّ لها وإنّما هو فيما يجاورها من الجوهر العصبي، فمتى وقع لك - والله العاصم - فبادر إلى الفصد(٥) وجنّبه الحلاوة، واسقه طبيخ الدرقو والكشوث(٦) واجعل من كلّ واحد بحسب الوقت وما يظهر لك من العليل وكمّد الموضع في أوّل الحال بطبيخ البابونج والنرجس(٧)، فإذا سكن الوجع فادهن الموضع بدهان البان(٨) فاتراً، وخُذْ في إسهال الصفراء

(١) العود: شجر له عود راتنجي إذا أحرق سطعت له رائحة جميلة. (شهابي: ص٣٧).

(٢) الشبث: بقلة سنويّة من التوابل. (شهابي: ص ٢٩).

(٣) مراكش: مدينة مغربية بسفح الأطلس الأوسط، أسّسها «يوسف بن تاشفين» عام ١٠٦٢م، وازدهرت في عهد الموحّدين، غنيّة بآثارها. (المنجد: ص ٥٢٨).

(٤) يرقان: هو انتشار الخلط الصفراوي على سطح البدن وظهوره على الجلد. (مفيد العلوم: ص ١١٣).

(٥) الفصد: إخراج مقدار من دم الوريد بقصد العلاج. (الوسيط: ج٢، ص ٦٩٠).

(٦) الكشوث: جنس نباتات طفيلية من فصيلة المحموديات، سوقها صفر أو شقر، خيطية طوال، تلتف على مضيفها وتنشب فيه زوائد ماصّة لا ورق لها، وأنواعها كثيرة. (شهابي: ص ١٨١).

(٧) النرجس: جنس زهر من الفصيلة النرجسية ومن الرياحين الطبّيّة، وهو معروف. (شهابي: ص ٤٨٥).

(٨) البان: شجر يسمو ويطول، أوراقه هدب وثمرته فيها حبّ أبيض، منه يُستخرج دهن البان. (المعتمد في الأدوية: ص ١٧).

بالمحمودة[١]، والنزلات في ذلك البلد كثيرة، فاحملهم على شمّ العنبر[٢] واللاذن[٣] والسندورس[٤] واجعل في الذرور[٥] على الرأس البسباسة[٦] والإذخر[٧] والدارصيني[٨] إن كان الهواء ليس بكثير البرد، وإن كان شديد البرد فعليكَ بالفودنجات[٩]

وكثيراً ما يحدث هناك أورام في الساقين وما بينهما، فمتى وقع مريض في هذه العلّة، فإن كان الخلط في حال الانصباب والجولان ولم يستقرّ بعد فاستفرغ البدن من الخلط المورم بالمسهل، واحمل على الموضع ما يردع كالأقاقيا[١٠]، وإن كان قد استقرّ فحاول ردعه واستفرغ البدن الاستفراغ العام بالفصد، وإذا كان ما استقرّ في أسفل

---

(١) المحمودة: هي السقمونيا، نوع يستخرجون منه صمغاً راتنجياً شديد الإسهال. (شهابي: ص ١٥٨).

(٢) العنبر: مادّة لا طعم لها ولا ريح إلاّ إذا سُحِقت أو أُحرِقت. (الوسيط: ص ٦٣٠).

(٣) اللاذن: هو طلّ يقع على أشجار وحدائق. (المعتمد في الأدوية: ص ٤٤٠).

(٤) السندورس: صمغ شجر من رتبة المخروطيّات، يُتداوى به. (الوسيط: ج١، ص ٤٥٤).

(٥) الذرور: ما يُذرّ في العين وفي الجرح من دواء يابس. (الوسيط: ج١، ص ٣١٠).

(٦) البسباسة: شجرة من فصيلة جوز الطيب لها بزور وأغلفة عطرية منبّهة. (شهابي: ص ٤٩٧).

(٧) الإذخر: نبات عشبي يُستعمل كالشاي. (شهابي ص ٢٨).

(٨) الدارصيني: من الفارسية، بمعنى خشب الصين، ويعدّ قشرها من أجود أنواع القرفة التجارية. (شهابي: ص ١٣٧).

(٩) الفودنجات: (م) الفوذنج، من الفارسية، وهو نعنع الماء أو حبق الماء، وينبت حول الأنهار. (شهابي: ص ٤٥٦).

(١٠) الأقاقيا: سنط عربي أو القرظ، ثمر يكثر في جزيرة العرب والحبشة، ويُستخرج منه صمغ مشهور. (شهابي: ص ٣).

[٢٤ب] البدن فليس يجيبك للاستفراغ بالمسهل بل إلى/ تحريك غيره للانصباب إليه، وامنع من تصريف العضو الوارم، ولكن في دعة، وكثيراً ما يصيب الناس في تلك البلاد أمراض الحصاة[١] وهي إنّما تكون بما يتراكم من ثقل البول الأرضي، وأدوية الحصاة كثيرة معلومة كالسنبل[٢] والمحلب[٣] والسُّعْد[٤] وبزر البطّيخ[٥] والحجر اليهودي[٦] وأمثالها، بما يضيق هذا الموضع عن ذكرها، ولكن اجعل قصدكَ ما يقطع، واحذر ما يُسخّن بقوّة وما يجفّف بشدّة، فإن احتجتَ إلى أدوية من هذا القبيل فاحجبها ببزر البطّيخ.

لي: أي امنعها عن المضرّة بإصلاحها بما ذكر.

وعود السوس وصمغ القراسيا[٧] نافع، وهو مأمون في ذلك، ولا تستفرغ دماً إلاّ عند الاضطرار، ولا تسقِ دواءً مسهلاً في غير الاعتدال إلاّ عند الاحتياج الشديد وقد أخذت الأخلاط في التعفّن فإنّها لن تجيبك إلى الخروج وتستفرغ ما يضرّ العليل استفراغه، ومتى رأيتَ من الطبيعة حرصاً على إتيان أمر على طريق البحران

---

(١) أمراض الحصاة: خثورة البول في المثانة حتّى يصير كالحصاة. (الوسيط: ج١، ص ١٨١).

(٢) السنبل: جنس نباتات عشبية معمّرة أزهارها على شكل عناقيد أو سنابل بيضاء أو حمراء أو ورديّة وجذورها غلاظ، تُستعمل لأغراض طبية. (شهابي: ص ٧٦٦).

(٣) المحلب: نوع ينبت برياً وثمره يقع في الطيب وله ضروب. (شهابي: ص ٧٢٣).

(٤) السعد: الخنجان البري - ريحان القصارى، له أنواع برية وبستانية. (شهابي: ص ١٨٤).

(٥) البطيخ: نبات عشبي حولي من الفصيلة القرعية يُزرَع لثمره. (شهابي: ٧٨٧).

(٦) الحجر اليهودي: في شكله شبيه بالبلوط، زيتوني الشكل. (المعتمد في الأدوية: ص ٨٧).

(٧) القراسيا: شجر مثمر له ثمار بيضية خضر إلى السواد. (شهابي: ص ١٢٩).

فأعنها عليه، وأمّا في الأمراض الحادّة فلا بأس بأن تستفرغ الخلط وقد بدا الاضطراب، فإنّ الخلط للطافته يسرع إلى الإجابة للخروج.

وتذكّره ما يُحدِث الماء البارد في الأخلاط من الفجاجة في الحمّيات العفنة ولا يتّجه إلاّ في الحمّى المحرقة[١] الدائمة وهو أمر عظيم مخوف.

وهواء مرّاكش جافّ، فكثيراً ما يحدث فيه الذبول، فلا تقصّر في أن تحمل مَن تخاف عليه على الاستحمام بالماء العذب الفاتر في ابزن[٢] يكون في هواء معتدل، والادّهان بالماء وزيت الورد نافع ممّا يتوقّع منه.

واعلم أنّه قد يحدث بسبب يبس الهواء سعال ليس له إلا شمّ قلوب الخيار[٣] والفقّوس[٤] يعني القثاء[٥] والدلاّع[٦] يعني بطيخ الحبش، وشمّ القصب[٧]. وأن يخلط بماء الشراب للأدوية/ درهم [١٢٥] من سكّر، وأن يمسك في الفم عود سوس مجرود[٨] مغسول.

---

(١) الحمّى المحرقة: حمّى دائمة إلاّ أنّها تزداد اشتعالاً والتهاباً فيما بين كلّ يومين. (القمري: التنوير، ص ٦٧).

(٢) ابزن: حوض من المعدن ونحوه للاستحمام. (الوسيط: ج١، ص ٢).

(٣) الخيار: نبات سنوي عشبي مشهور من الفصيلة القرعية يُزرع لثماره. (شهابي ص١٧٧).

(٤) الفقّوس: نوع من القثاء المستطيل. (الوسيط: ج٢، ص ٦٩٧).

(٥) القثاء: نباتات عشبية حولية من الفصيلة القرعية. شهابي: ج١، ص ١٧٧.

(٦) الدلاّع: نبات عشبي حولي من الفصيلة القرعية، يُزرَع لثمره. (شهابي: ص٧٨٧).

(٧) القصب: نبات مائي من الفصيلة النجيلية، له سوق طوال، ينمو حول الأنهار، وقد يُزرَع. (الوسيط: ج٢، ص ٧٣٧).

(٨) مجرود: مقشور. (الوسيط: ج١، ص ١١٥).

لي: انظر إلى قوله مغسول لأنّه يزيده بالغسل رطوبة، وهذا وقت أنبّهكَ فيه على أسباب السعال، فالسعال إمّا لآفة في جوهر الرئة أو لسوء مزاج فيها، أو لمادّة في أفضيتها تعلق بجرمها وتسدّ سُبُلها أو لسوء مزاج يقلقها أو لسوء مزاج ينالها من الهواء المتنفّس أو لبرد يصيب الصدر من خارج بحيث تبلغ كيفيّته إلى الرئة، وبالجملة من كلّ سوء مزاج قويّ ينالها من داخل أو خارج، وكثيراً ما أحدث خرقاً في الرئة، فيقع المريض فيما لا يخلص منه، وكذلك تجب المبادرة إلى علاج السعال وملاطفة العرض ما دام السعي في دفع السبب، وقد يكون السعال لمزاحمة المعدة الرئة لإفراط امتلائها أو لورم يكون فيها أو لمزاحمة الحجاب[١] أو الغشاء[٢] إذا ورم أحدهما، أو الكبد أو الطحال وقد يكون بسبب الانتفاخ الاستسقائي[٣] أي نوع كان منها إذا أفرط الانتفاخ. وقد يكون بسبب ما ينصب من الرأس إلى الرئة أو ينحدر نحوها من الأعضاء ومن أغرب أسباب السعال لمجرب[٤] أنّه يكون عند ميل الأخلاط إلى داخل، وهذا يكون في النادر لمن فزع فزعاً مفرطاً أو انتقل من التدثّر إلى التعرّي في الهواء البارد، وقد يكون عند رفع الأثقال الصلبة على الظهر فإنّ الأوردة تنضغط فيرجع الدم الى داخل البدن وقد يكون في موضع صلب لمن عهد الفرش الوطئة وعن الباس الدروع يسبب ضغط الأوردة[٥] من خارج وعن شيء يمرّ في منخرق

---

(١) الحجاب: المقصود به الحجاب الحاجز الذي يفصل بين الصدر والبطن. (الوسيط: ج١، ص ١٥٦.

(٢) الغشاء: هو الصفاق او الغشاء الشفاف المبطن للتجويف البطني. Peritoneum (المورد: ص ٦٧٥).

(٣) الاستسقاء: انتفاخ البطن وغيره من الأعضاء. (مفيد العلوم: ص ١٢).

(٤) لمجرب: ساقطة، ط. (٥) الأورام: ط، م.

الهواء كما يحدث في الشرق[١]، وهذه الأسباب كلّها يعرفها عوام الأطبّاء الأساة[٢]: سوء المزاج وانصباب الأخلاط إلى باطن/ . [٢٥ب]

وكثيراً ما يحدث في البلاد الجافّة أوداج[٣] البواسير وإذا تمادت أحدثت انحلال القوّة والاستسقاء وأمراضاً كثيرة، فلا ينبغي [أن يتكاسل][٤] في علاجها أوّل حدوثها، كما أنّه لا ينبغي إذا طالت مدّتها وكانت زمانة[٥] أن تقطع، لكن ينبغي أن يكون ما يجري من الدم شيئاً[٦] بعد شيء ويقصد تليين الطبيعة بالبقول[٧] [و][٨] المحمودة[٩] وأن يستنجى بعد الاستنجاء المعلوم بماء قد طبخ فيه اسطوخودوس حتّى يحمرّ[١٠] ويسير من[١١] بابونج، وأمّا في أوّل ما يحدث فسكّن الورم ثمّ استعمل الأدوية القويّة القبض جدّاً، ولكن

---

(١) الشرق: يقال شرق فلان بالماء: غصّ. (الوسيط: ج١، ص ٤٨٠).

(٢) الأسيبن: ط، م. والأساة: (م) الآسي هو الجرّاح والطبيب. (الوسيط: ج١، ص ١٨).

(٣) أوداج: (م) الودج، عرق في العنق وهو الذي يقطعه الذابح فلا تبقى معه حياة. (الوسيط: ج٢، ص ١٠٢٠).

(٤) العبارة ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

(٥) زمانة: مرض يدوم. (الوسيط: ج١، ص ٤٠١).

(٦) شيء: ط، م. خطأ.

(٧) البقول: جملة النباتات العشبية التي يغتذي الإنسان بها أو بجزء منها. (شهابي: ص ٤١١).

(٨) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

(٩) المحمودة: هي السقمونيا، وهو نوع يستخرجون منه صمغاً راتنجياً شديد الإسهال. (شهابي: ص ١٥٨).

(١٠) احمرّ: ط، خطأ.

(١١) من: ساقطة، ط.

بسبب أن لا تنفر الطبيعة منها فاعجنها بطبيخ الخبازي[١].

أو من كانت به أوداج[٢] البواسير فإيّاك أن تسقيه دواءً محرّكاً لها، واخلط في أدويته ما يسكّن ومُرْهُ أن يستنجي كلّ مرّة ـ بعد استنجائه المعلوم ـ بجملة الدواء الذي أصف وهو: بزر خطمي[٣] وبابونج وخبازي، أعني من كلّ واحد منها جزء ويطبخ الجميع فيما يغمره من ماء عذب حتّى تتغيّر أوصاف الماء أجمع، ويُستنجى به فاتراً بسبب حدّة الأخلاط فإنّها تلذع المقعدة وخاصّة لمن يشكوها.

وأذكّركَ أنّ الأدوية يعرفها كلّ أحد، وإنّما الغلط في وجوه تصريفها، فهذا يجب أن تسحق فيه الأدوية جيّداً وأن تستعمل بالخلّ لتزيد لطفاً، وهذا يستعمل جريشاً[٤] ويُلَتّ بدهن أو شمع ليغلظ وهذا يستعمل دهناً وهذا يُصَبّ على العضو وهذا يُستعمل صحيحاً كبزر قطونا[٥] وهو المعلوم فيه لأنّه إذا سُحِق يسجح ويقتل وقد يُسحَق لتصرّف تلك الآفة التي تحدث بالسحق في منفعة مثل أن تخلط في أدوية الرعاف والقاطعة للدم من الجراح الكبار، وهذا يستعمل ذروراً وهذا يُعجَن، وحينئذٍ يستعمل كما الذرور على مقدّم الرأس مراراً من الجوهر المائي، وكلّ هذا مسطور في الكتب،
[١٢٦] أعني: الكلام الذي/ يخرج عنه وينتج منه.

---

(١) الخبازي: نبات له أنواع برية وأنواع تُزرع لأكل ورقها مطبوخاً أو لزهرها. (شهابي: ص ٤٣٩).

(٢) أرواح: ط، م. تصحيف.

(٣) خطمي: جنبة قوية مدوّرة الأوراق زغبة الساق أزهارها كبيرة زاهية ملوّنة. (شهابي: ص ٢٢).

(٤) جريشاً: لم ينعم دقّه. (الوسيط: ج١، ص ١١٧).

(٥) قطونا من السريانية أو عشبة البراغيث وأنفع ما فيه بزره. (شهابي: ص ٥٥٨).

وكثيراً ما يُستعمل العسل من [غير][١] إخراج رغوته بسبب الاستعانة بها، وكثيراً ما تُحرَق الأدوية لتفيدها كيفيّة متكرّرة[٢] ليعمل بعضها في بعض، وتستقيم الكيفية التي تحدث من مجموعها، وكثيراً ما تترك المشروبات حتّى تأخذ في الغليان ليستعان بذلك في إيصال القوى إلى الرأس، وقد يكون التعفّن معيناً لنا فيما نحتاج إليه من الأدوية المفتّحة، فافهم أنّ التفتيح من أعوان[٣] الأشياء وقد نستعين بالإسهال إذا أردنا قطعه بما شأنه أنْ يحدث الإسهال، فتخيّل شاباً تمكّنت منه الحمّى فرطوباته تذوب وتندفع بالإسهال، فلستُ أعرف في علاجه مثل غمسه في الماء البارد. أو تخيّل هواءً حارّاً ورجلاً سخيف البدن قد برد باطن جسمه حتّى صار لا يستمرئ غذاءه[٤] لبروز حرارته إلى خارج كيف يكون الوجه في علاجه؟ أمّا أنا فلا شيء عندي أنجح من حيث [صبّ][٥] الماء البارد عليه.

وتخيّل من سُقي دواءً مسهلاً[٦] فألقى الدواء أخلاطاً غليظة والهواء بارد وقد أصابه كرب واضطراب وأوجاع في المعاء والمعدة، فالمعلوم عند الناس أنّ التدثّر باللباس يقطع الإسهال، ولكن إذا كان ما ذكرته إليّ فليس للطبيب حيلة إلاّ إدخال هذا الرجل الحمّام وغمسه في أبزن ماء حارّ، فإنّه حين ما يفعل به ذلك تنطلق بطنه وتجيب

---

(١) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

(٢) منكرة: م، تصحيف.

(٣) أعوان: (م) العون، المعين في كلّ شيء. (الوسيط: ج٢، ص ٦٣٨).

(٤) غذاءه: ط، م. تصحيف.

(٥) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

(٦) مسهل: ط، م. خطأ.

أخلاطه إلى الخروج ويستريح من الأوجاع والكرب.

وتخيّل [مَنْ][١] سُقيَ دواءً والهواء بارد وأخلاط بدنه رقيقة فأفرط الدواء عليه وضعفت قواه وزاد الإسهال به فليس له إلاّ[٢] إدخاله[٣] في الإبزن الحار فإنّ الإسهال يرفع.

أمّا الأوّل فلأنّ الحمام أذاب أخلاطه فأطلقها، وأمّا الثاني فلأنّ حرّ الماء جذبها إلى خارج البدن فارتفع الإسهال/، وليس ينكر [٢٦ب] أن يكون سبب واحد يعقب عرضين متضادّين في جسمين مختلفين.

وانظر شراب الورد والسكنجبين والنيلوفر[٤] فإنّ الناس مجتمعون على أنّها تسكّن الحرارة وبعضها يكثّف وبعضها يلطّف وبعضها يسخّف وبعضها يغلظ وكلّها تبرّد وكثيراً ما تزيد في الحرارة وتشعلها، وتخيّل أنّكَ قد سقيتَ هذه الأشربة مفردة أو مجموعة لسبب[٥] مزاج قد انحرف إلى الحرّ قليلاً لا يشكّ أحد[٦] أنّها كلّها تبرّد.

وتخيّل رجلاً حادّ المزاج يابس الكبد قد وقع عند طلوع شعري العبور[٧] في الحمّى المحرقة ودبّت في جميع جسمه وسقيته هذه

---

(١) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.
(٢) ساقطة: م.
(٣) ادخال: ط، تصحيف.
(٤) النيلوفر: نباتات مائية من الفصيلة النيلوفرية، فيه أنواع تنبت في الأنهار والمناقع وأنواع تُزرع في الأحواض لورقها وزهرها. (شهابي: ص ٤٢٨).
(٥) ليس: ط، م. تصحيف.
(٦) أخو: ط، م. تصحيف.
(٧) شعري العبور: كوكب نيّر يطلع عند شدّة الحر وفي التنزيل العزيز: (وأنّه هو ربُّ الشعري) وهما شعريان: الشعري العبور والشعري الغميصاء. (الوسيط: ج١ ص ٤٨٤).

الأشربة إمّا مفردة أو مجموعة فإنّك ترى ذلك الجسم قد زادت حرارته على ما كانت واشتغلت بهذه الأشربة أضعافاً كثيرة بسبب ملاءمة[١] الحرارة للانقلاب إلى الخلط الصفراوي إذ ليس بين الحلو والمرّ درجة.

واعلم أنّ جذب المغناطيس للحديد ليس لأنّ مزاجه مشابه لمزاج الحديد ولا فرار الخلّ من الحجر المبغض له لأنّ مزاجه مخالف لمزاج هذا، بل كلاهما بحسب الجوهر، وهذه لما جهلت سميت خاصيّة، وكلّ شيء يكون من فعل الجوهر فهو أتمّ فعلاً وأكثر ظهوراً ممّا يكون بالقوى.

وتخيّل ما تفعله النار بالتبن من سرعة الاستحالة إلى النار لكونه مملوءاً هواءً، فالجزم في الأمراض القويّة بحسب ما يوافق المرض بالمزاج أو بالجوهر، وأن لا يغفل الطبيب عن اعتبار أمر الجوهر فإنّ له تأثيراً عظيماً.

وتذكّر أنّ من الأدوية المسهلة ما لا يؤثّر في أفراد من الناس ويؤثّر[٢] فيهم ما دونها في القوّة، فمتى وقع لك ذلك بأن سقيت دواءً ولم يظهر له تأثير فلا[٣] تزد منه واسقِ سواه إمّا بقربه وإمّا بعد
[١٢٧] أيّام، وتذكّر منع الذي تسقيه الدواء من التعشّي قبله/ فإنّ الطعام لا يكون ما يحدث عنه بالحقيقة صفراء أو سوداء أو بلغماً، بل يكون مقصّراً[٤] عن الدرجة، فإذا سقيت الدواء اشتغلت الطبيعة عن هضمه

(١) ملائم: م، خطأ.

(٢) ويؤثرهم: م، تصحيف.

(٣) فلم: ط، م. تصحيف

(٤) وانق: م، تصحيف.

ولا تجيب للخروج فيبقى، مع أنّ طرق الأمعاء تكون مسدودة، وكذلك الأعضاء يفعل فيها المسهل شبه ما يفعل الغسل بالثياب، فتضعف عمّا لم تكن تضعف قبله أو زدتَ ذلك عليها في مرّة أو مرّتين، وكذلك ينبغي أن يكون الغذاء لطيفاً قبل أخذ الدواء وبعده.

مطلب استعمال المسك[١] في الدواء وفي ذلك خطر من وجه

وأمّا المسك في الدواء فغلط أمر جزافي فيه، وهم فعلوا ذلك لتقوية الأعضاء عموماً وللرأس خصوصاً، ونسوا أنّه إذا وصل إلى الأعضاء الرئيسة، فكما يستفرغ الخلط ويقوّيها بذاته، يضعفها بما تحمله من قوّة الأدوية المسهلة إليها وخاصّة إن كان من الأدوية البعيدة عن الطباع، فربّما كان عضواً من الأعضاء الرئيسة ضعيفاً لم يؤمن عليه القتل والهلاك.

(١) المسك: ضرب من الطيب يتّخذ من ضرب من الغزلان. الوسيط: ج٢، ص ٨٦٩.

بحث في خواص الأشياء

وكذلك الخمر قد كان كثير من الناس يسقي بها الدواء المسهل لينحدر مع ما يصعد مع أخلاط الرأس، وما يتوقع من آفاته أكثر ممّا هو عليه من كونه حراماً. ولو كان نافعاً لامتنعت من أن أجعله مركباً للمسهل، وليكتفِ الطبيب بأن يسقي المسهل بماء قد أخذ في الغليان قليلاً وإنّ في ربّ العنب من ذلك لكفاية.

وتذكر خصوصية جوهر الباقلاء[١] في اضطراب الدماغ وإفساد الذهن وإنّ للصبر[٢] خصوصية في أضرار المعدة وإنّ للإهليلج[٣] خاصيّة بنفع المعدة وإنّ للحنظل[٤] خاصيّة في أضرار الكبد، وإنّ للكمّثرى[٥] خاصيّة في قطع العطش وإنّ للسان الثور[٦] خاصيّة في إتلاف/ الخلط السوداوي ومحو أثره، وإنّ للعنبر خاصيّة في إحداث [٢٧ب] ضعف الكبد، وإنّ للتين خاصيّة في إحداث القمل، وإنّ للجوز

---

(١) الباقلاء: نبات عشبي زراعي سنوي مشهور، تؤكل الخضر مطبوخة وكذلك حبوبه. (شهابي: ص ٨٨).

(٢) الصبر: عصارة شجر مرّ. (الوسيط: ج١، ص ٥٠٦).

(٣) إهليلج: من الفارسية، جنس شجر تستعمل ثماره لتنظيف جهاز الهضم مسهلة. (شهابي: ص ١٢٧).

(٤) الحنظل: نبات معترش من الفصيلة القرعية ثمرته في حجم البرتقالة ولونها، فيها لبّ شديد المرارة، كان يستعمل في الطب للإسهال. (شهابي: ص ١٥٢).

(٥) الكمّثرى: شجر مثمر مشهور من الفصيلة الوردية. (شهابي: ص ٥٣١).

(٦) لسان الثور: جنس نبات بعض أنواعها تنبت في الحقول وأخرى تُزرَع لزهرها. (شهابي: ص ٢٨).

خاصيّة في إحداث البكم والتردّد في الكلام، وهذا يفعله بجملة جوهره وبجملة مزاجه، لولا أنّ الوقت يضيق وحركتك تستعجل لكشفت عن ذلك جليّاً، وإنّ للرمّان[١] خاصيّة في منع الأخلاط من التعفّن والتغيّر الرديء كما للزبيب خاصيّة في الإنضاج، وإن قلت إنضاجاً فلا تأخذ ذلك في كلّ إنضاج يميل إلى صلاح، كإنضاج البلغم إلى الدم أو فساد كإنضاج الدم إلى العفونة، لكن خذه على طريق العلاج والنجاح، وهو الميل بالخلط إلى ما هو أنفع لذي الخلط.

واعلم أنّ للّوز[٢] خاصيّة في حفظ جوهر الدماغ وأنّ للسمسم[٣] خاصيّة وإنّ كان مزاجه قريباً من مزاجه بأنّه قد يحيل الدماغ ويملأ الرأس والنخاع فضولاً ويحيل جوهر الأعضاء ويبخر الفم وينتن العَرَق ويعقّم النساء، وربّما أحدث الأدرة[٤] وتعظيم الجوف وبالجملة مفسد، وأمّا اللوز فإنّه يحفظ الأعضاء ورطوبتها حفظاً بديعاً من غير أن يُحدِث فيها رطوبة غريبة ويحفظ على الأعضاء تماسكها، وأنّ الورد له خاصيّة في حفظ الرئة وخاصّة المربّى منه، وأنّ العنّاب ينفع الرئة بمزاجه وجوهره.

---

(١) الرمّان: شجر مثمر من الفصيلة الآسية، له ضروب. (شهابي: ص ٥٦٨).

(٢) اللوز: شجر مثمر مشهور من فصيلة الورديات. (شهابي: ص ٢٧١).

(٣) السمسم: نبات حولي زراعي دهني من القبيلة السمسمية، ودهن بزره يسمّى الشيرج أو السيرج. (شهابي: ص ٦٥٤).

(٤) الأدرة: انتفاخ الخصية لتسرّب سائل في غلافها أي الخصية المنتفخة. (الوسيط: ج١، ص ١٠).

منافع الريحان[1] وأنّه هو الآس[2]

وأنّ الريحان يشدّ النفس ويقوّي الأعضاء ويقطع الإسهال أكثر من جميع الأدوية يعني الآس، وتذكّر أنّ كلّ قابض ففيه ما يسهل جَرَماً[3] وأنّ كلّ مسهل ففيه ما يمسك قبضاً إلاّ الريحان فلا قوّة مسهلة فيه.

وتذكّر نفع العود الهندي للمعدة بتقويته وأنّه يذهب نتن الفم، وتذكّر بُعدَ مزاجه عن مزاج/ الخوخ[4] وكلاهما يقطعان البخر يقيناً، [٢٨أ] وتذكّر أنّ الحرشف[5] يعطّر رياح أرفاغ[6] البدن، وتذكّر أنّ النرجس شمّه يذهب بصرع الصبيان، وقد جرّبته بعد نظر مراراً فوجدتُ شمّه ما ذكره «جالينوس» في الفاوانيا[7]، وتذكّر أنّ المحمودة إذا سقيتَ منها كثيراً أمسكت، وأنّ شحم الحنظل ليس مجابه الكثيرا كما زعموا، وأنّ لبّ الفستق أليق من الكثيرا، بكثير حتّى إنّ لبّ الجوز

---

(١) الريحان: نباتات عطرة من فصيلة الشفويّات. (شهابي: ص ٦٠).

(٢) الآس: جنبة من الفصيلة الآسية، منها أنواع تنبت بريّاً وأخرى تُزرَع للتزيين ولرائحتها العطرة. (شهابي: ص ٤٨٣).
ونلاحظ أنّ النوعين مختلفان، ولكن سابقاً كان (الآس) اسمه المشهور عند عامّة المغرب (الريحان). انظر: (شرح أسماء العقار: ص ٥).

(٣) جَرماً: لا بدّ ولا محالة، أو حقاً. (الوسيط: ج١، ص ١١٨).

(٤) الخوخ: شجر مثمر مشهور من الفصيلة الوردية، فيه ضروب. (شهابي: ص٥٣٠).

(٥) الحرشف: بقل معمّر من المركّبات الأنبوبية الزهر، ينبت بريّاً ويُزرَع. (شهابي: ص ١١٢).

(٦) أرفاغ: (م) الرفغ، كلّ موضع يجتمع فيه الوسخ من البدن. (الوسيط. ج١، ص٣٦١).

(٧) الفاوانيا: أو عود الصليب، جنس أعشاب أو جنيبات للتزيين من الفصيلة الشقارية ولها أصناف جميلة. (شهابي: ص ٥٣٥).

خير منه، وهذه تجربة لي بعد نظر، فاستعمل الحنظل معهما.

وتذكّر أنّ حجاب الحنظل والخربق[١] ـ عن جدّك ـ عن زهر النيلوفر ودهن اللوز جيّد له، والجزم حجبه بالنيلوفر ودهن اللوز.

وقد ذكرتُ لكَ نتفاً[٢] قد سنحت ببالي، وقد فوّضت ذلك إليك وفيها من التذكرة والتنبيه ما أرجو أن يكفيك ممّا عندكَ من تقدّم قراءة ودربة ومشاهدة، ولم يبقَ ما أحملك عليه إلاّ أنّ أذكركَ كمية ما يُسقى من الأشربة المسهلة الواصلة معها بحول الله، وكيف تسقيها وأنا أقدّم لك مقدّمة وأمثّل لك مثالاً: الطبيب بمنزلة رجل، والدواء المسهل بمنزلة سراج، والبدن بمنزلة بيت فيه كتّان[٣]، فإنّ دخل الرجل بسراجه متحفّظاً يوشك أنّ يتخلّص ولا يحرق البيت، وإنّ دخل بصلف واستهزاء وطمأنينة وثقة بكلّ شيء [لم][٤] يقرب من سلامة البيت. وأقسم لك بالله أنّني ما[٥] سقيتُ قط دواءً مسهلاً إلاّ ويشتغل بالي قبله بأيّام وبعده بأيّام، لأنّها سموم وكيف حال مدبّر السمّ ومسقيه لطلب المنفعة بالسمّ؟ وليس إلاّ التحفظ والرجوع إلى الله تعالى بالدعاء والإخلاص.

---

(١) الخربق: من السريانية، جنس شجر من الفصيلة الشقارية. (شهابي: ص ٣٣٦).

(٢) نيفاً: م، تصحيف.

(٣) كتاب: م.

(٤) ما بين معقوفتين [ ] ساقطة: ط.

(٥) ما: ساقطة، ط.

مطلب بيان أوزان المسهل ومقداره[١]

وأنا آخذ في ذكر الكمية: حنظل نصف أوقية[٢]، إهليلج نصف أوقية، بسفايج[٣] أوقية بمثله ماء غلي[٤] فيه من زهر البنفسج/[٥] [٢٨ب] درهماً، ومن القرنفل[٦] نصف درهم، ويكون الماء ضعف المحتاج حتّى يعود الماء إلى الكمية المحتاجة، ثمّ يُصَفّى ويُسقى مع بعض الأشربة بعد خلطه معه بليلة، فإنّ كان الوقت حارّاً فأكثر البنفسج قليلاً وزدْ شيئاً من صندل[٧] فإنّ لم يكن حارّاً فكما تقدّم، وإنْ كانت[٨] المعدة ضعيفة فزد من المصطكي وحبّ الرازيانج[٩] في هذا كلّه والحاضر أبصر من الغائب والله أسأل توفيقك وأن ينهج لك طريقاً وأنّ تصحبك السلامة في كلّ حال.

مثال ذلك: أوّل الأوليّ ما يُستفرَغ الذي في المعدة من أي خلط كان فيخرج معه الثفل ولا يشعر به إلاّ القليل من الناس،

---

(١) العبارة ما بين قوسين ( ) ساقطة: ط.

(٢) أوقيّة: سبعة مثاقيل ونصف، أو عشرة دراهم وخمسة أسباع الدرهم. (القمري: التنوير، ص ٩١).

(٣) بسفايج: أو كثير الأرجل، نوع نباتي من السراخس. ((شهابي: ص ٥٦٧).

(٤) اغلي: ط، م.

(٥) البنفسج: جنس زهر معمّر من الفصيلة البنفسجية، أنواعه وضروبه كثيرة. (شهابي: ص ٧٧٧).

(٦) القرنفل: شجر تعدّ أزهاره المجففة قبل تفتّحها من التوابل المشهورة. (شهابي: ص ١٩٨).

(٧) صندل: شجر خشبه طيّب الرائحة يظهر طيبها بالدلك أو بالإحراق. (الوسيط: ج١، ص ٥٢٥).

(٨) كان: ط، خطأ.

(٩) الرازيانج: من الفارسية ويُعرَف بالشمرة، جنس بقول من الفصيلة الخيمية. (شهابي: ص ٢٦٨).

ولهذه الدرجة عرض، فمن عرض ذلك ما يسهل الذي في جوهره[١] المعدة من الأخلاط التي هو لها مسهل فينحدر مع الأثفال ويشعر به أكثر الناس، وبعد ذلك بما يزيد عليه حتّى بلين أكثر ولينه لا يُعْرَف حتّى ينظر جيداً كما سال بماء حارّ ويحتاج في ذلك إلى قياس.

والثانية ما يسهل أكثر حتّى يشعر به الإنسان ولو كان من أهل الغباوة وليس له لين الثفل بل زائداً عليه، ولهذا[٢] غرض يزيد فيه وينقص.

وأوّل الثالثة ما يسهل إسهالاً يكرب الإنسان ويتكلّف له ولهذا[٣] غرض آخر ما يضعف.

والرابعة ما يسهل بعنف وشدّة وقد جعلت لك مثالاً فتدبّره وإنّ كان لم يتقدّم أحد بنهج هذه الطريقة وإنّ أمهلني الأجل نهجتها بعون الله وحوله.

المقدّمات التي جرت عادة الأطبّاء أدام الله تأييدهم بأخذها

وهي ما أصف لك: كزبرة البئر[٤] وعود السوس من كلّ واحد خمس أوراق، بزر دوقو وإذخر من كلّ واحد أوقية، قنطوريون[٥]
[١٢٩] ربع/ أوقية. تُرَضّ الأدوية وتنقع ليلة في حدود عشرين رطلاً[٦] من

(١) جوهر: ط.
(٢) ولهذه: ط، م. خطأ.
(٣) ولهذه: ط، م. خطأ.
(٤) كزبرة البئر: نوع نباتي من السراخس ويسمّى شعر الغول وشعر الجبار. (شهابي: ص ٩).
(٥) قنطوريون: جنس نبات من فصيلة المركبات الأنبوبية الزهر، فيه أنواع تُزرَع لزهرها وفيه أنواع بريّة كثيرة بعضها يؤكل ورقه. (شهابي: ص ١٢١).
(٦) رطل: معيار يوزن به أو يُكال، يختلف باختلاف البلاد، وهو اثنتا عشرة أوقيّة. (الوسيط: ج١، ص ٣٥٢).

ماء، وترفع بالغدوات على نار ليّنة حتّى يعود الماء إلى عشرة أرطال، ويُطبَخ إلى أنّ يصير شراباً وإنّ احتجتَ أنّ تزيده تقطيعاً فضع فيه عند عقده رطلين من خلّ حاذق صادق الحموضة والمأخوذ منه كلّ يوم أوقيّتان[١] بخمس أواق من ماء فاتر، ويكون الغذاء بقلبه[٢] سلق[٣] أو قريص[٤] فإنّ عدمها فبهذه البقول الموجودة، واليوم الذي يأخذ الدواء في غده يكون ـ الغذاء بقلبه ـ في أوّل الطعام، والصواب الاقتصار عليه[٥] وأنّ لا يتعشّى تلك الليلة البتّة.

هذه آخر التذكرة المعروفة بـ(الوصيّة)، ولا يخفى ما فيها من الفوائد، وإنّ اشتملت أيضاً على زوائد، هذا ما قالوه.

---

(١) أوقيتين: ط، م. خطأ.

(٢) بقلبه: أي ضمنه، وقلب كلّ شيء: وسطه ولبّه ومحضه. (الوسيط: ج٢، ص٧٥٣).

(٣) سلق: بقل من الفصيلة السرمقية، يؤكل ورقه مطبوخاً. (شهابي: ص ٦٥).

(٤) قريص: جنس نباتات عشبية من الفصيلة القراصية، لها شوك على شكل شعور دقاق. (شهابي: ص ٤٩٠).

(٥) عليها: ط، م.

(وصية العلامة)[1]

وأنا أقول: ينبغي للطبيب:

أولاً: أن يكون رفيقاً[2] ورعاً خاشعاً متواضعاً شفيقاً على المرضى، وَصولاً لذوي القربى يكون أمر من ولّي مداواته منه ببال، ولا يغفل عنه بحال، كَتوماً للأسرار مجانباً صحبة الأشرار، وافياً بوعده، حافظاً لعهده، صادقاً في مقاله، مقتصداً في إنفاق ماله، نظيف الثياب، لطيف الخطاب، عفيف النفس، ذكيّ الحسّ، صائب الرأي، صادق اللهجة في العرب.

والثاني: حاضر[3] الخاطر، حَسَن الباطن والظاهر، جميل الصورة، جيّد المشورة، معتدل الجسم[4]، صحيح الجثّة، كثير الإنصاف، قليل الجُزاف، طيّب العشرة، صافي الدخلة[5]، نقيّ الجيب، أمين العيب، العدل طريقته، والحقّ حقيقته، غير معجب بنفسه ولا مترفّع على أحد من أهل جنسه، ولا يستبدّ[6] برأيه إذا ارتأى، ولا يتعدّى الحقّ إذا رأى، لا يترفّع على الجهّال وأن يتواضع[7] له بقدر ما رفعه الله عليه، ويتأنّى لزوال ما خامر[8] نفسه

---

(١) العبارة بين قوسين ( ) ساقطة: م.

(٢) فنقاً: ط، م، تصحيف.

(٣) خاطر: م.

(٤) الجملة ط، م، تصحيف.

(٥) الدخلة: باطن الأمر، (الوسيط: ج١، ص ٢٧٥).

(٦) يستبدل: ط، م، خطأ.

(٧) ينطامن: ط، م، تصحيف.

(٨) خطر: م، تصحيف.

بما هو أعلم به منه حتّى ينقله من الشكّ إلى اليقين ومن الحيرة إلى
[٢٩ب] التبيين/ ، لأنّ مكافحته قسوة، وإرشاده سياسة.

قال «أرسطو»: (ليس الخيّر من العلماء مَنْ رأى الجاهل بمنزلة الطفل الذي هو أسير[١] وبالرحمة[٢] جدير، وليس يستحقّ الغلظة لوضوح (عذره بالنقص)[٣]، فواجب أن يعذر ولا يعذر نفسه في التأخير عن هدايته واحتمال المشقّة في تقويمه، فإنّ أفضل ثمار العالم تقويمه الجاهل).

وينبغي أن يكون جميل المنظر كريم المخبر ودوداً على الناس بصيراً عند القياس، لا خاشعاً ولا منّاعاً[٤] منوّعاً ولا ماجناً عابثاً[٥]، ولا ناقضاً للعهود ناكثاً، لا يتكلّم فيما لا يعنيه ولا يصاحب مَنْ يعوقه[٦]، يحضر النادي، ويلبّي المنادي، ويجيب الداعي، ويواسي المُعْدم، ويكرم الزائر الملمّ، وإذا جُشّم لمداواة مريض سارع إليه، وواظب إليه، أميراً كان أو فقيراً، موسراً أو معسراً، لا تغلبه شهوته، ولا تهمّه لذّاته، فإنّ في الحكمة القديمة: (إن مَنّ عليه بطنه فهو في حدّ البهيمة)، لا يتلجلج في الخطاب، ولا يتمجمج في الكتاب، لا يضجر إذا عورض في مسائله، فإذا سمع الحقّ قبله عن قائله، لا يغضب ولا يشغب[٧]، ولا يضحك

---

(١) بوامير: ط، م، تصحيف.
(٢) بالوحمة: م، تصحيف.
(٣) العبارة بين قوسين ( ) وردت (عذرنا لنقص): ط، م.
(٤) جماعاً: ط.
(٥) عائقاً: ط، م. تصحيف.
(٦) يخونه: ط.
(٧) يشعث: م.

مِنْ غير عجب، ولا بمشي إلى غير أدب، لا يسرع إلى جواب دون أن يتأمّل، ولا يعثر بخطاب إن التبس عليه[١] وأشكل، بل يكون دفّاقاً على المشكلات، بحّاثاً عن المعضلات، الحقّ ضالّته إلاّ الغلبة عليه، كما قال الحكيم «أفلاطون»: (اختر أن تكون مغلوباً وأنتَ عالِم[٢]، ولا تختر أن تكون غالباً وأنتَ ظالم، وأن تكون مصروف الهمّة إلى مطالعة كتب الطبّ والحكمة). كما قال أيضاً: (إن لم يتهيّأ لك البلوغ من تلقاء نفسك مبلغ القدماء، فينبغي لك أن تستغني بغنائمهم، وذلك أنّهم قد خلّفوا لك خزائن من العلم في كتبهم، فافتحها وتدبّرها وأغنِ/ نفسكَ بها، ولا تكن كأعمى في يده جوهرة [١٣٠] وهو لا يعرف حسنها، ولأنّ الطبيب أحد الأربعة الذين[٣] يبنى عليهم[٤] المدن[٥]، ويحفظ بهم البُدُن، فإن فقد واحد منها لم يرَ للعالم التئام، ولا لأمور البريّة نظام، فحقّ أن يكون هذا المطلوب مجرّباً، وفي جميع أحواله مهذّباً، حتّى إذا تسلّط على الأرواح والمهج، سلك في حفظ نظامها أعدل النهج، ولم يكن عليها جانياً، بل مداوياً شافياً، فكثير من الناس من عوّل على طبيب متهوّر وجاهل مقصّر، لعنايته بأمره، أو رعاية لحقّه وصحبة له قديمة، ووسيلة إليه عظيمة، فجلب إليه أعلالاً عجزت الطبيعة عن تلافيها،

---

(١) إليه: ط، م. خطأ.

(٢) عادم: م، ساقطة ـ ط.

(٣) التي: ط، م. خطأ.

(٤) عليها: ط، م.

(٥) يذكر الطبيب «صاعد بن الحسن»: كلّ بلدة فاضلة تحتاج إلى سلطان عادل وطبيب عالم ونهر جارٍ وسوق قائمة، فطوبى للبلد الذي كملت فيه هذه الصناعات (التشويق الطبي: ص ٥٨).

والطبيب الحاذق في مداواتها، وإنّما أدّاه إلى تفضيله قلّة تحصيله وحسن ظنّه به، وكثير من الناس مَنْ عوّل على جاهل لفراهة مركبه ولا لنباهة أدبه، فأتلف عليه روحه، وأدخله ضريحه، ولو خلاه والطبيعة لعاد صحيحاً وعاش سليماً، ونعوذ بالله من عمى القلب، فإنّ عمى العينين ليس يضرّ إذا كان القلب بصيراً والخاطر حاضراً والنفس ذكيّة والقريحة صافية.

وقد رأينا أمراضاً تطاولت وأزمنت وفاتت العلاج وتفاقمت بعد أن كانت هيّنة ومداواتها ممكنة لقلّة معرفة الأطبّاء الجهلة وسوء تدبيرهم لمداواتها وعدم توفيق المرضى بوقوعهم في أيديهم وتسليطهم على أنفسهم وأهليهم. ويجب على العقلاء أن يختبروا(١) الأطبّاء حتّى يتميّز عندهم المهرة منهم عن الجهلة، ولا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة، فإذا أردتَ أن تختبر طبيباً، فاخبر أولاً سيرته، وتأمّل طريقته، إن وجدتَه فيها مُرضياً فاتّخذه وليّاً، وإن كان بخلاف ما
[٣٠ب] تهواه فملْ عنه إلى سواه، ثمّ ألقِ عليه/ من جزئيّات الطب مسائل، فإنْ حلّ عقدتها ومحّض زبدتها وأوضحها ببيان(٢) وأتى لها ببرهان، فأحسنْ ظنّكَ بنبله وتمسّك بذيله، وإن قصّر في الجواب ولجلج في الخطاب، فلا تعوّل عليه، فإنّ فهمه سقيم وصوابه عديم، وينبغي أن تعتمد منهم على ممارس الأعلاّء(٣)، وصاحب الأطبّاء في زمان حداثته وسنّ شبيبته إلى وقت شيخوخته، فلم يصرفه طلب اللذّات وتتبّع الشهوات عن اقتناء ما شرّف نفسه وقوّى بالعلم أنسه، فإنّ من

---

(١) يخبروا: ط، م. تصحيف.

(٢) ببيانها: م.

(٣) الأعداء: ط، م. خطأ.

اعتاد أمراً لزمه، ومن عُني بشيء أعطاه حكمه، فطالما قيل: العادة أخت الطبيعة وطول الأيّام يؤكّدها.

تعين الطبيب

إذا وجدتَ من الأطبّاء مَنْ طالت حنكته وكثرت تجربته فقدّمه على مَنْ كان دونه، إنّ رأي الشاب أهدى إلى الصواب إذ القوى فيه متزايدة وأفعالها فيه كاملة متناهية، ورأي الشيخ (محمود) لطول تجاربه وكثرة تكشّفه في الأمور وتقلّبه.

و«جالينوس» يقول: (إذا احتجتَ إلى المشورة في طارئ عليك فاستبر به ببداية الشباب وردّ إلى المشايخ بعقبه وأحسن الاختيار فيها) انظر في كتب الطبيب ومصنّفاته، فإن وجدتَها سديدة[١] العبارة لطيفة الإشارة غزيرة المعاني، متقنة الأصول والمعاني، فاحكم بتمهّره، وإن وجدتّها ظاهرة الخلل كثيرة الزلل فلا تشكّ في تهوّره، لأنّ الكلام إذا لم يطابق لفظه معناه ولم يوفَ حقّ ما أدّاه قلّت[٢] فائدته ولم تبن[٣] معرفته ولم يعهِ السامع ونفرت عنه المسامع.

عقيدة الطبيب

تأمّل سيرة الطبيب، فإن وجدتَه ذا حياء ودين وورع متين فاستصلحه لنفسك، وإن وجدتّه يطعن على السنّة ويعلن نقض الشريعة فأسئ به ظنّك.

---

(١) شديد: ط.

(٢) قلّ: ط، خطأ.

(٣) تبين: م.

قال «أوميرس»(١) الحكيم: (مَنْ طعن على السنّة استهدف للعامّة، ولكلّ محمود من الأمور مقدّمة، ومقدّمة كلّ المحمودات
[١٣١] الحياء، ولكلّ(٢) مذموم/ من الأمور مقدّمة، ومقدّمة كلّ المذمومات القِحة)(٣).

طريقة الطبيب

إذا رأيتَ الطبيب ميّالاً إلى الشهوات مؤثراً طلب اللذّات مولعاً بسماع القيان زيراً للنسوان، مغرماً بشرب الخمر ونغمات الزمر، فلا تثقنّ به.

قال «سقراط»: (الميل إلى الشهوات رأس الفضائح، وشرّ ما ابتلي(٤) به الرجال مصاحبة النساء، فإنّهن صدقاء(٥) القلوب).

إذا رأيتَ الطبيب في مجلس طرب فافحص عن شأنه، فربّما حضر لأرب أو لاكتساب أدب، فقد قيل لـ«جالينوس»: لِمَ تحضر مجالس الطرب والملاهي؟ فقال: (لأعرف مزاج القوى والطبائع في كلّ حال من منظر ومسمع ومحسن، فإن [كان](٦) حضوره(٧) لشيء مما قاله جاز له، وإن كان بخلافه لم يُرَخَّص له فيه، وعُدَّ ذلك من مساوئه.

---

(١) أوميرس، أو هوميروس: أعظم شعراء اليونان وأشدّهم تأثيراً في أدباء الغرب في مختلف العصور، نظم الإلياذة والأوديسّا، يُرَجَّح أن يكون عاش في القرن الثامن قبل الميلاد. (القفطي: أخبار العلماء، ص ٤٩).

(٢) وكلّ: ط.

(٣) القباحة: م.

(٤) بتلي: ط، م. تصحيف.

(٥) صدقاء: (م) صديق. (الوسيط، ج١، ص ٥١١).

(٦) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

(٧) حضروه: م.

وقد قيل لـ«فيثاغورث»[١]: (لِمَ قلتَ إنّه لا ينبغي أن يؤتى قليل الشهوة[٢] ولا كثيرها)، قال: (لأنّ كثيرها تلف، وقليلها دناءة).

إذا ناظرت الطّبيب فرأيتَه يقف لك على سبيل المناظرة ويطلق لك سنن المذاكرة ولا يعدل عن محجّة الإنصاف ولا يسرع إلى الانتصاف[٣] ولا يقطع في كلامك دون أن يسمع منك ويعي عنك فحينئذٍ يجيبك به فصلاً ولا يطلب عليك فضلاً، فاعلم أنّه فاضل وفي علمه محصّل. فإنّ «جالينوس» يقول: (كلّم خصمكَ ما دام على سنن المناظرة، فإذا عدل فاثبت مكانك، فإنّه لا يزيد عليكَ إلاّ ما يقدح في قولك).

و«أفلاطون» يقول: (لا تتكلّم بين أحد من الناس دون أن تسمع كلامه وتقسْ ما في نفسك من العلم إلاّ ما في نفسه أكثر، فأمسك وحصّل في نفسك ما هو به يفضل عليك، ولا تغترّ بطبيب مكثار ولا بمتشدّق مقدار، يتفاصح بلسانه ويعجز عن بيانه، إذا نطق نطق بمحال ولا يبالي بحال/، يظنّ سفهه حلماً وجهله علماً، يجلس [٣١ب]
إلى الأماثل فيقول ما لم يعلم، ولا يتصوّر معناه ولا يفهم ولم[٤] يَدْرِ أنّ السكوت أليقُ به وأسترُ لعيبه، فتُعَدُّ سقطاته وتلتقط غلطاته[٥] ويُحكى عنه في كلّ محفل ومحضر ومغيب ومشهد).

---

(١) فيثاغورث (٥٨٢ ـ ٥٠٧ ق.م) فيلسوف يوناني مشهور، يرى أنّ جوهر الأشياء هو العدد، وله نظرية تُعرف باسمه. (النديم: الفهرست، ص ٣٤٢)، (القفطي: أخبار العلماء، ١٧٠)، (ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٦١ـ٦٢).

(٢) الشهوات: م.

(٣) الانتصاف: أخذ نصفه. (الوسيط: ج٢، ص ٩٢٦).

(٤) لا: ط.

(٥) أغلوطاته: ط.

ولو بلغه قول «أفلاطون» عسى منعه، حيث يقول: (ردُّ أمس الذاهب أيسر من ردّ كلمة قد أخذت مثواها في مسمع العاقل).

لا تثقنّ[١] بطبيب[٢] كذوب، فإنّه يريكَ الباطل حقّاً والكذب صدقاً، ويصوّر لك من أكاذيبه ما يُدار عقلك ويولّد جهلك، وإن الكذب عار لا يُقبَل وشنان لا يُتَقبَّل ولا يُحوَّل.

وما أحسن ما قال «جالينوس» في كتابه «في الأخلاق»[٣]: (كفاكَ موبّخاً على الكذب علمك بأنّك كاذب). إذا رأيتَ الطبيب يبخل بما يعلم ولا يبدله أو لا يعلم، ناعلم أنّ ذلك لقصور وعجز عن تصوّره[٤]، فإنّ ثمرة العلم لا يجنيها إلاّ طلاّبه ولا يلتذّ بها إلاّ أصحابه و«أرسطوطاليس» يقول: (الحكمة المستورة بمثابة الكنز المستور[٥] الذي لا يُنْتَفَعُ به وإنّما يُنتَفَع بالحكمة إذا أذيعت وجُعِلت في أهلها ووضعت).

إذا رأيتَ طبيباً أجمع أطبّاء العصر على تفضيله واتّفقوا على تعظيمه وتبجيله فلا تحيز عليه، إذ لإجماعهم أثر واتّفاقهم عليه محضَر ومخبَر، ولولا نفاسته لم يظهر عليهم رئاسته.

إذا رأيتَ طبيباً داوى أعلاّء كثيرين فأصاب في مداواتهم وأجاد

---

(١) بنفس: ط، م. خطأ.

(٢) بطيب: م.

(٣) كتاب الأخلاق: أربع مقالات، وغرض جالينوس فيه أن يصف أصناف الأخلاق وأسبابها ودلائلها ومداواتها، نقله «حبيش بن الأعسم» إلى العربية. (النديم: الفهرست، ص ٤٠٥)، (القفطي: أخبار العلماء، ص ٩٢)، ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ١٤٧).

(٤) تصويره: ط.

(٥) المستورة: ط، خطأ.

في معافاتهم[١] ومعالجاتهم وبرئوا على يده ونالوا العافية بسعيه وجهده فعوّلوا[٢] عليه، فإنّ ذلك لفضل فيه وعلم بما يدّعيه.

إذا كان الطبيب عارفاً بقوى الأدوية وطبائع الأغذية والدرجات[٣] التي تتفاوت فيها وتتفاضل والمنافع والمضار التي[٤] تتفاوت فيها وتتفاضل/، والمنافع والمضار التي يصدر عنها وتحصل [١٣٢] والأبدال التي تُقام مقامها عند عدمها وزوالها ومقاديرها عند استعمالها وجودة تركيبها عند اتّخاذ المعاجين التي يحتاج إليها كلّ حين وذلك حريّ بأن يُعَوّل عليه ويُحسَن إليه.

إذا كان الطبيب يميّز بين الألوان ويقف على كيفيّاتها بطريق الاستدلال[٥] ويحكم من الألوان بما يحدث في بدن الإنسان والفرق والنبض ويفرق بين بعضها بالبعض وكيفيات الحركات وما حدث من النبضات والقرعات ويستدلّ على أحوال القلب وما هو عنه بالغيب وبصحّة الأنفاس على قوّة الحواس وبحسن السحنة على وفور الصحّة فأخلق[٦] به أن يكون مكرماً ولفضله مبجّلاً معظّماً.

إذا كان الطبيب يخبر عن حال المريض بتقدمة المعرفة بما يحدث بعد مدّة من سلامة أو عطب أو بحران جيد أو مرض معاود فهو أهل لأن لا ينكر له فضل.

---

(١) معاناتهم: ط، م.

(٢) فعول: ط.

(٣) والدرجة: م.

(٤) الذي: ط، م.

(٥) الاستبدال: م.

(٦) فاحلف: م، تصحيف.

١٩٢

إذا وصف الطبيب أجناس الحميات وعرف المفردات من المركبات ووقف على الأعراض والكيفيات وداوى كلّ واحدة منها بأحسن المداواة فحقّ له أن يكون في الفضل بأعلى[١] الدرجات.

إذا تحقق الطبيب صورة الأخلاط وتأمّل أحوالها على الاحتياط وعرف الغالب منها من المغلوب والصحيح من الموؤوف وما يحدث في كلّ واحد منها عند غلبته وخروجه عن الاعتدال في كيفيته وكميته وإعادته إلى سلامته وإزالة مضرّته فهو حريّ بأن يسمّى فاضلاً وطبيباً كاملاً

(١) على: ط، م، خطأ.

بيان الاعتماد على الطبيب

لا يعتمد على طبيب أعمى فإنّه يخفى عليه السحنات والألوان التي تدرك بها المبصرات، ولا على أصمّ فإنّه يتصوّر غير ما يُقال ويعيا عليه الجواب والسؤال، وقد يُحكى أنه دخل طبيب أصمّ على مريض يعوده، فقال كيف/ رأيتَ نفسكَ البارحة؟ قال: بشر، فقال: [۳۲ب] الحمدلله، ومَنْ جاءَكَ اليوم من أصحابنا: فقال: الكلب، فقال. هو خير، صديقي وأخي ومعي كان يقرأ، فما وصف لك؟ قال سمّ الموت، فقال جيّد مبارك وبهذا أردتُ أن أشير.

ولا على أبكم، فإنّه يريد أن يعرب فيعجم، ويُفصِح فيفضح، ولا على المتهوّر العجول فإنّه كثير الفضول. وشرّ ما استعمل الطبيب في صناعته قلّة التأنّي وقهر الطبيعة بازدحام الأدوية وتغذية المرضى لا في أوانها وتنقية الأبدان في غير أوقاتها.

وقد أجمع الحكماء والأطبّاء على استعمال الرفق وتجنّب الخرق فإنّ العجلة في الأمور لمذمومة عند الجمهور.

فـ«أرسطوطاليس» يقول: (ينبغي للعاقل أن يستعمل الرفق فيما يلتمسه ومجانبة العجلة في ما يرتاده، فإنّ العَلَق بهدونه وسكونه يلحق بما لا يلحق البعوضة باضطرابها وفرط صياحها).

وإذا كان الطبيب تهوله الأعراض [التي][1] تحدث عند البحارين ويفزع ممّا يحدث عنها في الأحايين[2] وينذر بغير ما

---

(۱) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

(۲) الاجانبين: ط، م.

يظهر، فلا يشكّ في نقصه، فإنّ الكامل ها هنا يتوقّف والناقص وجل خائف، فكما أنّ المتهوّر مذموم وكذلك الجبان ملوم.

إذا رأيتَ الطبيب متهاوناً بالحمية في مداواة العلّة مساعداً للمرضى في شهواتهم موافقاً إيّاهم على تخليطاتهم فاعلم أنّه غبيّ ناقص لأنّ بالحمية تُنال الصحّة وتُزال العلة والحمية رأس المداواة وعمدة المعالجات.

قال النبي ﷺ: (البطنة رأس كلّ داء، والحمية رأس كلّ دواء، وأعطِ لكلّ بدنٍ ما اعتاد)(١). و«جالينوس» قد قسّم الحمية(٢) على قسمين، فقال: (الحمية حميتان خاصية وعامّية، أمّا العامّية فأنْ(٣) لا تغتذي أبداً إلاّ مع الشهوة، وأمّا الخاصية فأنْ تنظر الاسطقس الغالب عليه فتقابله بضدّه).

ما ذُكِر في مواضع أخر من قوله: (ساعد المرضى في بعض
[١٣٣] شهواتهم) فليس ذلك حكماً وقولاً/ جزماً.

وإذا رأيتَ الطبيب مستبداً برأيه غير عامل بقوانين الطب ودساتيره ولا مستشيراً أهل صناعته فيمن يتولّى من مداواته، وتراه يخترع من تلقاء نفسه تراكيب الأدوية وتصانيف الأغذية من غير أن سبقت بها التجربة وأجمعت على استعمالها الأمّة، فاعلم أنّه مموّه مزخرف، لأنّ «جالينوس» يقول: (رأي من وازاك في المعرفة أمثل

---

(١) لم يصحّ هذا عنه ﷺ، وهذا الحديث من كلام طبيب العرب «الحارث بن كلدة» ولا يصحّ إلى النبيّ. (ابن القيم: زاد المعاد، ج٤، ص ١٠٤).

(٢) الحمية: أصلها المنع، واقتصر بها الأطبّاء على المنع ممّا يؤكل ويُشرَب من الأشياء الضّارة بمرض مريض. (ابن الحشاء: مفيد العلوم، ص ٣٦).

(٣) فلان: ط، م، تصحيف.

من رأيك(١) لنفسكَ لأنّه خلو (من هواك)(٢) فاستعن برأي مَنْ سبقكَ بالمعرفة وتقدّم عليك في الأمور بالتجربة، ولا تهزأ بخطأ غيرك، فإنّ المنطق لا يملكه أحد، واقبل الخطأ بنوع الصواب الذي في جوهرك، فصيّر العقل والحقّ أمامك فإنّكَ لا(٣) تزال حرّاً بهما).

إذا كان الطبيب يعجل بسقي الدواء قبل أن يعلم مواقع [الداء](٤) ويعلم مقادير العلّة فيقابلها بالأدوية ولم يتأمل أولاً أحوال الأمزجة(٥) ولم يعرف الخاصية منها من العامية فيتعمّد حينئذٍ لإصلاح ما فسد وردّ ما فقد وحفظ الأمور التي تتمّ بها الصحّة ويُنال منها الراحة، فهو جاهل جانٍ ناقص ليس له ثانٍ.

و«جالينوس» يقول: (ينبغي لكَ أنّ تقدّر حال الأمراض فتقابلها بضدّها، ولن يحصل لك العلم بذلك إلاّ بعد أنّ تعرف الأمزجة الخاصية فإن اشتبه عليك مرض من الأمراض ولم يكن للوقوف على سببه سبيل لا بالحدس(٦) الصناعي ولا بالحدس(٧) المقرّب وتكافأت الأدلّة فاترك العليل مع الطبيعة، ولا [تحدث](٨) في أمره استفراغاً ولا غيره، واعدل إلى حفظ القوّة بالأغذية المعتدلة على مقتضى الشهوة وحسب الضعف والقوّة.

---

(١) لرأيك: م.

(٢) ما بين قوسين ( ) مكرّرة في: ط.

(٣) لا: ط، م.

(٤) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

(٥) وردت (الأدوية) في: ط، م. وما أثبتناه هو ما يستقيم به سياق الجملة.

(٦) بالحدث: م، تصحيف.

(٧) بالحدث: م، تصحيف.

(٨) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

إذا لم يحسن الطبيب إيراد ما تعلّمه وسعى فيه وعلّمه غير مفصح عمّا أراده ولا بالغ مرتاده، إذا نطق لم يسمع منه ببيان، وإذا نمق لم يساعده بنان، فاعلم أنّه مقصّر، لأنّ «أفلاطون» يقول: (كلّ علم/ من العلوم أو قول من الأقوال فصاحبه محتاج إلى أن يكون [٢٣ب] فيه شيء من شجاعة توزر فلا تشتّت نظامه وقبح صدره).

إذا رأيتَ الطبيب غير معنيّ بحفظ صحته ولا مقتصداً[١] في مطاعمه ومناكحه ولا عامداً[٢] إلى ما يعود بمنافع البدن ومصالحه، فاعلم أنّه ممّن أنكر الطبّ وجهله، ولو عرفه لاستعمله[٣]. و«سقراط» يقول: (إنّ الذي يغلط من قبل الحقّ حقيق بأنّ يغتفر له، وأمّا الذي يغلط من بعد علمه فإنّه لا يستحقّ أن يُغفَر له).

مَنْ عوّل من الأطبّاء على التجربة وأغفل النظر في الأدلّة والقياسات الصحيحة ولم يرَ تصفّح الكتب القديمة فهو[٤] ظاهر الخلل كثير الزلل، لأنّ التجربة خطر ولم يرخّص فيها وحدها بشر، غير نفر من الأوائل صار أصلهم مرفوضاً ورأيهم منقوصاً، وكذلك صاحب القياس وحده إذا لم تنضمّ إليه تجربة لم يعرف منه دربة[٥] لأنّ القياس والتجربة كليهما[٦] بضاعة أهل الصناعة.

من اقتصر على مطالعة الكتب ومصنّفاته ولم يزاول المرضى في

---

(١) مقتصد: ط، م، خطأ.

(٢) عامد: ط، م، خطأ.

(٣) يستعمله: م.

(٤) وهو: ط، م.

(٥) ردبة: م، تصحيف.

(٦) كلاهما: م.

معالجاته لم يسلم قطّ من آفانه.

إذا رأيتَ الطبيب يجيبه بالفظاظة وينظر إليهم بالغضاضة ويستطيل عليهم بلسانه ويفضّل نفسه على فضلاء زمانه ويكثر إعجابه بفضله، فلا تشكّ في جهله، فإنّ العجب خليقة السفيه[١] ومذموم عند الفاضل النبيه، ألم تسمع وصيّة «أوميرس» الحكيم الشاعر حيث يقول: (لن تنل واحكم تبتل، ولا تكن معجباً فتمتهن).

مصادقة الطبيب جلوة للحسنى، ومصاحبته نافعة لذوي الحجى، فإنّ الحكيم حكم عليك وفرض، حيث قال: (صانع الطبيب قبل أن تمرض، ولئن يراكَ طبيبك حبيباً خير من أن يراك جانباً غريباً).

ألم تقرأ في كتب الأدب وما مرّ بكَ من أمثال العرب: (اعمل عمل من طبّ لمن أحبّ) فلولا أنّ صداقته نفع عاجل وخير شامل لم تُضرَب الأمثال ولم يسبق بها الأعوام والأحوال/. [١٣٤]

ولا تعوّل على طبيب ممراض، فإنّه لخدمة[٢] العلم غير مرتاض، ولو قدر [على مداواة][٣] غيره لقام أوّلاً بتدبير أمره ولم يرضَ لجسمه آلاماً وأنْ يعيش طول عمره مسقاماً كما قال الشاعر [من الكامل]:

وإذا الطبيب رأيتَهُ متمرّضاً

هل يستطيع لغيره تصحيحا

---

(١) السفينة: م، تصحيف.

(٢) تخدّمت: ط، م، تصحيف.

(٣) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

مطلب مداواة بالأشياء الكريهة

ومن الآداب التي يجب أن يتأدّب بها الطبيب أنّ لا يصف بصفات يخرج فيها عن حسن الأدب ولطافة الكلام، لا سيّما عند الأكابر، فإنّ كثيراً من الجهلة منهم قد يصف بصفات كذلك[١]، من ذلك أنّه يصف لمن به[٢] خوانيق[٣] زبل الكلاب أو نجو[٤] الأطفال، أو يصف لمن حدث به رعاف[٥] أنّ يسعط بروث الحمار، أو لمن حدث به الكلف[٦] أنّ يطلي وجهه بخرؤ العصافير، أو لمن حدث به قولنج[٧] أنّ يتناول خرؤ الدبّ أو خرؤ الدجاج أو خرؤ الديوك، أو لمن غلب عليه المرة السوداء [بول][٨] أصفر سليم، أو لمن غلب[٩] عليه الأخلاط الغليظة اللزجة حبّ المنتن[١٠]، ولمن به عسر بول أو حصاة أن يتناول شيئاً من الخراطين[١١]، ولمن يسيل لعابهم من الأطفال أنّ يطعم فأراً مشويّاً. وهذا كلّه ممّا لا يصلح أنّ

---

(١) ساقطة: م.

(٢) ساقطة: ط.

(٣) خوانيق: (م) خانقة، ورم يحدث في الحنك واللهاة والمبلغ. (القمري: التنوير، ص ٥٦).

(٤) نجو: ما يخرج من البطن من ريح وغائط. (الوسيط: ج٢، ص ٩٠٥).

(٥) رعاف: سيلان الدم من الأنف. (القمري: التنوير، ص ٥٦).

(٦) الكلف: كمودة وكدودة يحدثان في لون الوجه، ويعرض في الأكثر للنساء الحبالى. (المصدر السابق: ص ٦٢).

(٧) قولنج: احتباس الطبيعة ووجع شديد في القولون. (المصدر السابق: ص ٥٨).

(٨) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

(٩) ساقطة: ط.

(١٠) حب المنتن: دواء مركّب أنواعه كثيرة. انظر: (ابن سينا: القانون، ج٣، ص٣٩١).

(١١) الخراطين: ديدان طوال تكون في طين الأنهار. (الوسيط: ج١، ص ٢٢٨).

يوصف لمتقزّز(١) ولا لكبير، لأنّ أحوال هؤلاء لا نقصر عن أدوية أجلّ قدراً أو أحسن موقعاً من هذه، وإنْ عزّ وجودها وكثر ثمنها، مع أنّ جميع ما وصفناه فيه منافع عدّة، وللطبيب الحاذق الماهر متّسع في اختيار موادّ الأدوية وتغيير أسمائها والحيلة فيما لا بدّ من استعماله منها. وأنّ لا يمثّل لمتقزّز بمثال يعافه كما يحكى أنّ بعض المتقزّزين شكا إلى بعض المتخلفين منهم غثياناً فقال له: خُذْ مقدار رأس فأرة جلنجبيناً(٢) وألقِ عليه ملء محجمة(٣) من ماء وحرّكه حتّى يصير مثل المخاط فاشربه، فما استتمّ الصفة حتّى تقيّأ الرجل على المكان.

وأنّ لا يصف لامرأة قثاء الحمار(٤) أو قضيب الإبل أو عصا الراعي(٥) أو خصى الثعلب(٦) وأشباه/ ذلك. [٣٤ب]

وأنّ لا يصف المحقنة وكيفية استعمالها، ولا ما شاهد عند المرضى ممّا تدفعه(٧) الطبيعة كأنواع البول والبراز ونفث الدم أو المدّة(٨) أو ما يتعلّق بالجراحات والقروح وما شاكل ذلك، وأنّ لا يسأل عمّا لا يعنيه أي يهمّه، كما يحكى أنّ بعض المتخلّفين منهم

---

(١) لتقزز: م.

(٢) جلنجبين: من الفارسية، بمعني عسل الورد. (شهابي: ص ٦١٩).

(٣) محجمة: القارورة التي يجمع فيها دم الحجامة. (الوسيط: ج١، ص ١٥٨).

(٤) قثاء الحمار: نبات عشبي من القرعيات، تنبت بريّة في بلاد الشام، وهي شديدة الإسهال. (شهابي: ص ٤٦٨).

(٥) عصا الراعي: نبات عشبي من الفصيلة البطباطية، تأكل الطير بذوره. (شهابي: ص ٥٦٧).

(٦) خصى الثعلب: نبات معمّر من الفصيلة السحلبية. (شهابي: ص ٥٠٩).

(٧) وردت (لا تدفعه) في: ط، م. والصواب ما أثبتناه.

(٨) المدّة: القيح. (الوسيط: ج٢، ص ٨٥٨).

دخل على بعض ظرفاء الكتّاب فسلّم عليه وقعد وابتدأ يسأله عن حاله وقال له: ما تجد؟ قال: ألماً. قال: وما هذا الألم؟، قال: حمّى. قال: وممَّ حَممْتَ؟ قال: من عقر الخفّ. قال: وَلِمَ عقركَ؟ قال: لبستُهُ وكانَ ضيّقاً. قال: لِمَ لبستَهُ وهو ضيّقٌ؟ قال: لحاجة ضروريّة مضيتُ. قال: وأينَ كانت الحاجة؟ قال: في الديوان. قال: ولمن هي؟ قال: للسلطان. قال: وما هي؟ قال: لا أقول لكَ. قال: ولمَ لا تقول لي؟ قال: لأنّك ضعفان دبر القفا قُمْ عنّي إلى لعنة الله ما أشدّ فضولك!!

طريق العلاج

وأنّ لا يعالج بالدواء الغذائي ما أمكنه بالغذاء الدوائي، ولا بالدواء المفرد القويّ ما أمكن بالدواء المفرد الضعيف، ولا بمركّب مجرّب قليل الأجزاء ما أمكن بالدواء المفرد القوي، ولا بكثير الأجزاء ما أمكن بقليل الأجزاء، وأن لا يستفرغ من طريق أقوى إذا أمكنه من طريق أخفّ، كالقيء والحقنة من الفصد والحجامة.

(مطلب في المداواة بالأسهل)[١]

قال «ابن مطران» في (بستان الأطباء): (وأنّ لا يقدم على استعمال الأدوية القوية ما وجد محيصاً)، ثمّ قال: (واعلم أنّ تعويض الدواء القويّ بدواء أقوى[٢] ليس بطبّ، وإنّما الطب أنّ تفعل في التعويض أمرين، أحدهما: أنّ تخرج من المادة ما كنتَ تخرجه بالدواء القوي، والآخر أنّ يكون ذلك بأفعال مساوية لقوّة الدواء الذي أردتَ إبطال عنفه وأضراره بالقوى، مثال ذلك رجل

---

(١) العبارة ما بين قوسين ( ) ساقطة: م.

(٢) القوي: ط،م.

اجتمع في معدته بلغم كثير لاحج، فالواجب استفراغه من أقرب الطرق على ما علمت في القانون/ الطبي وهو القيء، والأدوية [١٣٥] المقيئة لمثل هذا الخلط قوية عنيفة بالقوّة، فلك استعمالها ذلك التعويض عنها بلطف الصناعة وحسن توصّلك فيها. أمّا استعمالها فهو الأصل، أعني مداواة الخلط بالدواء المقاوم. وأمّا التعويض عنها فكسقيكَ المريض جرعاً من ماء حارّ شديد الحرارة وتصبرك عليه حتّى تمضي ثلاث ساعات ثمّ تسخينكَ معدتَه ببعض الأدهان المسخنة القليلة القبض جداً، كالزيت[١] المطبوخ فيه اللاذن وقوة قليلة من المصطكي لينضج ما في المعدة ويرقّقه ويحرّك المعدة للقيء بإسخانها وترقيق الحاصل فيها، ويسخن اليدين والرجلين للمواصلة والمناسبة التي بينهما وبين المعدة إذا سخنت تنفّخت الأطراف وإذا حدث الغثيان ومُسّحت الأطراف وفيها فرق ولطف وسهل القيء ثمّ تسقيه ماءً فاتراً وزيتاً، وأمّا الفاتر فلتغثيته واختلاطه بما في معدته من ذلك البلغم المتهيّئ، فيرقّ ويسهل خروجه وليكثر ما في المعدة بالاستكثار منه، فيكون خروجه أيضاً أسهل. وأمّا الزيت فلتغثيته وإرخاء المعدة وتسبيله[٢] بما فيه من قوّة الملح وتلطيفه المادة وإعانته على إطلاق طبيعته التي أنت محتاج إليه عقيب القيء، فإنّك مأمور في عقيب القيء باستعمال شيافة[٣] محركة للطبيعة في أصحّ الأحوال، فهذا تدبير يقوم لك مقام الكندش[٤] والخربق وجوز

---

(١) وردت (فالزيت) في: ط، م. والصواب ما أثبتناه.

(٢) تسهيله: م.

(٣) شيافة: اسم لما يتحمّل في مقعدة. (القمري: التنوير، ص ٧٩).

(٤) الكندش: نبات من الفصيلة القرنفلية، تستعمل جذوره في تنظيف الثياب. (شهابي: ص ٣٢٢).

القيء[١] في استفراغ الحاصل وتكرير هذا التدبير يقوم مقامها في استفراغ المادة من بعد وتكون قد أمنت غائلتها.

غير أنّ في الآحاد يجب أنّ تستعمل تلك الأدوية إذا اجتمعت شرائط في مثلها يجب أنّ يستعمل لقوّة القوّة وسعة الصدر وقصر الرقبة وسهولة القيء ونضج[٢] المادة فهذا من الطبيعة[٣]، ومن الطبيب ترياق الفاروق[٤] وكون الحقنة[٥] مطبوخة مهيّأة، فإنّه إن توانى في ذلك إلى أنْ يطبخ الحقنة فربّما اختنق العليل. وأنّ لا يعالج - على ما قال «جالينوس» في (أغلوقن)[٦] - من غير أنّ يبتدىء بالنظر في الأجناس العالية التي لا يجد أعلى منها وينتهي إلى نوع الأنواع التي لا يجد أسفل منه إلى الشخص كالحمّى الغب[٧] الغير خالصة، فإنّ جنسها الأول وهو الأعلى أنّها مرض، وجنسها الثاني أنّها[٨] مرض حادّ، وجنسها الثالث أنّها[٩] حمّى، وجنسها الرابع

---

(١) جوز القيء: شجر طبي عظام من فصيلة اللوغانيات يستخرج منه الاستركنين. (شهابي: ص ٧٠٢).

(٢) وتصبح: م.

(٣) وردت (الطبيب) في: ط، م. والصواب ما أثبتناه.

(٤) ترياق الفاروق: هو مركّب يقاوم السموم، والفاروق منها هو الكبير، وهو ترياق الأفاعي. (ابن الحشاء: مفيد العلوم، ص ٢٥).

(٥) الحقنة: مياه مطبوخة مع الأدوية والأدهان. (القمري: التنوير، ص ٧٨).

(٦) كتاب إلى أغلوقن: في التأتي لشفاء الأمراض، مقالتان من نقل «حنين بن إسحق» وغرض جالينوس فيه معرفة الأمراض ودلائلها قبل مداواتها. (النديم: الفهرست، ص ٤٠٣). (ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ١٣٤).

(٧) الحمّى الغب: هي مع نافض تنوب يوماً ويوماً لا، فإنّ نابت كلّ يوم سمّيت شطر الغب. (القمري: التنوير، ص ٦٧).

(٨) انه: ط، م.

(٩) انه: ط، م.

أنّها عفونة، ونوعها الخامس أنّها حمّى من عفونة الصفراء ونوعها الذي ليس بعده نوع[١] أنّها حمّى غب خالصة.

والأحسن أنّ يُقال يجب أنّ تنظر هل المرض ينشأ[٢] منها أو لا، حارّاً أو لا، بمادة أو لا، والمادة بخلط واحد أو لا، والواحد صفراء أو لا، والصفراء متعفن أو لا، والمتعفّن داخل العروق أو خارجها، فالحرارة المنبثّة في البدن من تعفّن الصفراء خارج العروق هي حمّى الغب الخالصة.

قال «ابن مطران» في (بستان الأطباء): فيقع الاستدلال بما ذكره «جالينوس» على المداواة هكذا، إمّا أنّها مرض فيجب أنْ تُزال كما تُزال الأمراض، وإمّا أنّها مرض حارّ فيجب أنْ يبدل مزاجه إلى البرد، وإمّا أنّها حمّى فيجب أنْ يُنظَر فيها نظر الحميات، وإمّا أنّها حمّى عفن فيجب أنْ يستفرغ مادّتها، وإمّا أنّها من غير الصفراء خاصّة، فيجب أنْ تستفرغ الصفراء العفنة خاصّة، وإمّا أنّها حمّى غب خالصة فيجب أنْ تبرّد تبريداً أشدّ من تبريد غير الخالصة، وأنْ لا تعجّل في معالجة مَنْ في بدنه امتلاء من أخلاط فجّة لزجة غليظة، بل نتثّبت منها، إذ هناك نتبيّن فضل العالم على الجاهل، وذلك لأنّ المنضجة لتلك المواد تسخّنها[٣] وتذيبها/ وترقّقها [٣٦أ]
فتخرجها[٤] إلى مكان أوسع فيصير سبباً إمّا لخنق الحرارة الغريزية[٥]

---

(١) وردت (وهو الشخص) والصواب ما أثبتناه.

(٢) منشأ: ط، م.

(٣) وتسخينها: م.

(٤) فتحرجها: م.

(٥) الحرارة الغريزية: معنى غريزية: طبيعية، والمراد بها الحرارة الجارية في جميع البدن من القلب في الشرايين ويسمّيها الأطبّاء الروح الحيواني، وبها تكون الحياة. (ابن الحشاء: مفيد العلوم، ص ٣٣).

وانطفائها (لضيق المكان وإمّا لشقّ الأوعية وفرزها، بل الواجب أنّ يستعمل في هذا المكان أولاً الإمساك عن الطعام فإنّه يعطف الحارّ الغريزي)[١] على ما في البدن من تلك الفضلة فيغذّى بها والقدر الذي يسخّنه الجوع بها[٢] تغنيه الحاجة إلى الغذاء فلا يخشى منه ما كان يخشى والقوّة واحدة: غذاء لا يضعف بخلوّ واستفراغ كما في غيره، فإذا أمنت ذلك المشار إليه رجعت إلى المنضجات والملطفات والمقطّعات بقدر حتّى إذا حصل النضج استفرغت لما يجب، وهذا باب عظيم في العلاج.

حذاقة الطبيب في علاجه

وأن لا تغذّيَ[٣] مريضاً إلاّ على هذه الصفة وهو أن تطلب له وقت انحطاط نوبته [أو][٤] قبل أخذها بمدّة ينصرف فيها ما غذوته بثقة[٥] واحتياط، فإنّ كانت النوبة غير مفارقة فاغذُ المريض في وقت انحطاط النوبة الجزئية، فإن كان المرض لا يفتر ولا ينقص أصلاً فيجب أنّ تغذوه في الوقت الذي فيه، في وقت صحّته ويعتبر فيه الزمان.

---

(١) العبارة ما بين قوسين ( ) ساقطة: م.

(٢) بما/ م.

(٣) يغذوا: ط، م.

(٤) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

(٥) سعة: م.

قال صاحب (المعالجات البقراطية)[1]: (لمّا [كانت العلّة][2] تزيد وتنقص بحسب الأسباب الفاعلة لها وبحسب الزمان والوقت من السنة وتختلف مداواته بحسب عادة المريض وصناعته وجب أن يعرف الطبيب جميع ذلك حتّى يمكنه القضاء والعلاج).

معرفة الطبيب

ويجب عليه إذا دخل على المريض أن يعرف أولاً أيّام المرض بالعدد ويسأل عن السبب ويستخرج نوع المرض ثمّ يسأل عن حركاته ويميز بين حركة يومه وحركة اليوم الآخر الذي يليه واليوم الذي بعده، فإن رأى حركة هذه الأيّام واحدة ولبث الحمّى إن كانت العلّة حمّى لبثاً واحداً علم أنّ العلّة قد انتهت كانت هذه الأيّام قليلة أو كثيرة، فليس يمكن أن يُحجَب الابتداء والتزيّد والانتهاء في ثلاثة أيّام بل في يوم واحد فيداويه على حسب انتهاء المرض.

وإذا أراد أن يعرف قِصرَ المرض من طوله نظر إلى النبض باستقصاء وحصّل منه/ نوع النبض وإلى قارورته[3] وبرازه فيحصل [٣٦ب] منها صلاحهما من فسادهما، ثمّ يعرف ذلك في اليوم الثاني

---

(١) صاحب المعالجات البقراطية: هو «أبو الحسن أحمد بن محمد الطبري»، عاش في القرن الرابع الهجري، وكان طبيب الأمير «ركن الدولة الحسن بن بويه» صاحب أصبهان وهمذان، وكتابه (المعالجات البقراطية) قاصداً بهذه التسمية السلوك في سبيل «أبقراط» اليوناني في وضعه العلل، وقد صدر هذا الكتاب مطبوعاً بالتصوير عن المخطوط الأصل عن معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في إطار جامعة فرانكفورت ـ ألمانيا ـ ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م. (ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٤٢٧).

(٢) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

(٣) المقصود بها قارورة البول.

والثالث، فإن رأى في النبض زيادة صلاح مثل أن يكون ضعيفاً فيقوى أو صغيراً فيعظم أو سيّئ الوزن فيَحْسُن وزنه أو مختلفاً غير منتظم فينظم على أي نوع كان من الاختلاف، أو يكون متفاوتاً فيتّزن، ثمّ ينظر إلى قارورته وبرازه فإن تغيّر إلى الصلاح مثل أن تكون القارورة حادّة فينحطّ يسيراً أو فجّة فيظهر النضج أو سيّئة القوام فيحسن قوامها أو كريهة الرائحة فتزول الكراهة، وفي البراز بأن يكون متقطّعاً فيلتئم، أو يكون متفرّقاً فيجتمع، فيعلم في اليوم الثالث أنّ المرض قصير، وبعكس ذلك يعرف طول المرض، وهذه الأشياء ممّا لا يحتاج أن يسأل عنها المريض.

سؤال الطبيب

وأمّا ما يُسأل من الطبيب فهو أنّ يسأله هل يجد وجعاً في شيء من أعضائه ثابتاً أو متحركاً، فإن ذكر وجعاً في عضو من أعضائه علمت أنّ معظم المرض في ذلك العضو وأنّ الفضل[١] الذي ينصبّ على عضو[٢] في الحمّى فاستفدت[٣] من هذا السؤال أنّه يجب تقوية ذلك العضو إمّا بالنطول[٤] الحار أو البارد أو بالتضميد بحسب ما يوجّه مزاج المريض وجوهر مرضه، ثمّ تسأله هل ينام نوماً مستوياً[٥] أو يهتزّ في نومه وينام على غير ترتيب، فإن

---

(١) العضل: م. تصحيف.

(٢) العضل: م. تصحيف.

(٣) فاستقذفت: ط، م. خطأ.

(٤) النطول: كلّ ما أغليت فيه الأدوية أو كان ماءً قراحاً وصبّ على العضو فاتراً أو غمس فيه شيء من الصوف أو خرق كبار ووضع على العضو. (القمري: التنوير، ص ٧٦).

(٥) مستوٍ: ط، م. خطأ.

ذكر نوعاً وادعاً[١] وهدوءاً فيه تيقّنتَ أنّ مزاج دماغه لم يتغيّر تغيّراً أثّر في نومه فاستفدت[٢] من هذا السؤال مع تزيّد المرض[٣] أنّه يبرأ سريعاً وأنّ قوّته لا تنحلّ، لأنّ القوّة تنحلّ من مريض بالسهر والألم والاستفراغ المفرط وخبث نوع المرض، ثمّ يسأله عن شهوته فإنّ صحّة الشهوة تدلّ على سلامة أعضاء الغذاء وصحّة/ القوّة وأنّ [١٣٧] الفضول تنحلّ في البدن وتحتاج الطبيعة إلى عوضها وفي ذلك سلامة حركة المريض.

معمولات الطبيب

ويستعمل الطبيب في مداواته عندما يريد استخراج أسباب المرض هذه القوانين الستّة، وهي: الهواء المحيط، والحركة والسكون، والنوم واليقظة، والمأكول والمشروب، والاستفراغ والاحتقان، والأحداث النفسانية. فإنّ الأسباب لا بدّ[٤] من أن تكون حينئذٍ بعض الستّة عوناً لها أو عليها، فيقصد في تغيير ما يمكن تغيّره من هذه الستّة، ثمّ عند سقيه الدواء وإطعامه الغذاء وتدبيره لإزالة المرض يعتبر قوانين ستّة أخرى، وهي: السنّ، والمزاج، والبلد، والوقت من السنة، وعادة المريض، وصناعته، فإذا عرف هذه الستّة كانت مداواته بحسب ذلك في مقدار ما يُسقى ويُطعَم وإقدامه على ذلك أو تركه، ولا يغفل عن هذه الأشياء الأربعة أيضاً، فإنّ بها تتمّ المعالجة، وهي: تعديل المرقد بحسب ما

---

(١) مودعاً: ط، م.

(٢) فاستقذفت: ط، م. تصحيف.

(٣) مرض: ط، م. خطأ.

(٤) حينئذٍ: م.

توجيه العلّة، وتطييب روائح الموضع الذي يرقد فيه، وتجويد الأدوية والأغذية واختيارها، واختيار الخادم أو الخادمة، فإنّ المعالجة لا تتمّ إلاّ بها، هذا ما ذكره من الوصايا.

لا بدّ من الوصية

ومن الوصايا التي لا بدّ منها في كلّ مرض حفظ القوّة، لأنّها[1] ملاك الأمر في الجميع، لأنّها التي تقاوم المرض، وإذا ضعفت تعسّر وتعذّر انتهاضها، ولهذا قيل: الطبيب كالتاجر والقوّة رأس ماله والصحّة الربح، ويستحيل حصول الربح المتصوّر مع فوات رأس المال ونقصانه، وقيل: المرض سفر والمريض مسافر ومنتهاه المقصد، والقوّة مركب، وزمان المريض مسافة؛ والغذاء زاد، ففي قرب المسافة لا يُحمَل الزاد، والكثير منه في بُعدها يُحمل في الأوائل كثيراً، وكلّما قَرُب من المنتهى قلّل لئلاّ ينضمّ[2] إعياء [٣٧ب] الحمل إلى إعياء السير من/ غير حاجة.

بيان فساد تدبير الطبيب

وعلم أنّ [كثيراً ما][3] يعرض للطبيب ما يفسد تدبيره، وذلك إمّا لخطأ يَعرض منه أو من المريض أو ممّن يدبّره أو من أصول تعرض له من خارج، فأمّا ما كان من الطبيب فكاستعماله الغذاء والدواء على غير ما ينبغي، وذلك إمّا في الكمية فبأنْ يتناول المريض من ذلك أكثر أو أقلّ من مقدار الواجب، وإمّا

---

(١) لأنه: ط، م.

(٢) ينهضم: م.

(٣) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

في الكيفية فكاستعمال التسخين في موضع التبريد وبالضدّ أو الترطيب في موضع التجفيف وبالضدّ، وإمّا في الوقت فكاستعماله الشيء قبل الوقت الذي يحتاج إليه أو بعده، وإمّا في جهة استعماله فكما إذا استعمل شيئاً من ذلك على غير الجهة التي يجب، مثاله أن يقيء مَنْ كانت أمعاؤه ممتلئة من الفضول ويحقن من كانت الأخلاط طافية في معدته، أو يستعمل دواءً مجهولاً غير الدواء الذي يحتاج إليه أو دواء قد فسد وبطلت قوّته، أو يضيف إليه ما يفسد طبيعته ويغيّر فعله.

غلطات جهّال الأطبّاء

وربّما عرض خطأ أو غلط في تصحيف ونحوه، كما صحّف بعضهم قول «جالينوس»: ولا يُفصدُ متخم، وشنّع عليه بأنّه لِمَ منعَ في تدبير الأصحّاء فصد المنجّمين.

مطلب تصحيفات الجهّال

وكما صحّف بعضهم نبض الذبول[1] بنبض الديوك، وقال: (عندي كتاب فيه نبض الديوك) وكما صحّف بعضهم (الحِسّ البصري) بـ«الحسن البصري»[2]، وقال: (إنّه كان فيّماً[3] بجميع العلوم، فقيل: ومن أين يقول هذا؟ فقال: أما ترى أنّ الشيخ «أبا

---

(١) نبض الذبول: هو النبض المنحني المائل إلى جانبه، وهذا النبض بصاحب أصحاب حمّى الذبول فسمّي نبض الذبول. (ابن سينا: القانون، ج١، ص١٢٧).

(٢) الحسن البصري (ت ٤٣٢هـ/١٠٤٣م): من سادات التابعين وكبرائهم، ومن العلماء المشاهير، توفي بالبصرة. (ابن خلّكان: وفيات الأعيان، ج٢، ص ٦٩).

(٣) فيه: ط، م. خطأ.

الفرج عبدالله الطبيب»[١] مع جلالة قدره يقول في موضع من شرح التعليم الأوّل: (والحسن البصري يشهد بذلك)، حتّى قيل له: (يا هذا، إنّما قال الرجل الحسّ البصري يشهد بذلك).

وكما صحّف بعضهم قول «الرازي»[٢] في (الحاوي)[٣]: (وعرض له ذلك في اليوم الثالث عشر البول)، وتعجّب منه من أنّ
[١٣٨] كيف/ لا يبول ثلاثة عشر يوماً، حتّى نُبِّهَ عليه.

وكما صحّف بعضهم نسخة بعض الأطبّاء (ولا يأكلن إلاّ بالدراريج)[٤] وما شاكل ذلك بالذراريح، واعترض عليه بأنّك كيف تأمر الناس بأكل السمائم؟

وكما صحّف بعضهم (ولا يدمن الأكل) بقوله (ولا بدّ من الأكل)، وقال: (ما أعجب قول الرجل هذا كأنّا ما علمنا بهذا).

---

(١) أبو الفرج عبدالله الطيب (ت ٤٣٥هـ/١٠٤٣م): والأصح «ابن الطيب»، من كبار الفلاسفة والأطباء في زمنه، كان يعلّم الطب في البيمارستان (العضدي) ببغداد، له العديد من الكتب الفلسفية والطبية. (القفطي: أخبار العلماء، ص ١٥٠). (ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٣٢٣).

(٢) الرازي، أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (ت ٣١٣هـ/٩٢٥م): طبيب المسلمين غير مدافع وأحد المشهورين في علم المنطق والفلسفة، له مؤلّفات عديدة منها: المنصوري، التقسيم والتشجير، دفع مضارّ الأغذية.. وغيرها. (النديم: الفهرست، ص ٤١٥)، (القفطي: أخبار العلماء، ص ١٧٨)، (ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٤١٤).

(٣) الحاوي: من أروع الكتب الطبية الإسلامية، فيما يخصّ الطب السريري والعملي، ترجمه إلى اللاتينية «فرج بن سالم» سنة (٦٧٨هـ/١٢٧٩م) وكان من أوائل الكتب الطبية المطبوعة في أوروبا، وقد نشرته مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند سنة (١٣٧٥هـ/١٩٥٥م).

(٤) الدراريج: (م) الدراج، نوع من الطيور يدرج في مشيه. (الوسيط: ج١، ص٢٧٨).

وكما صحّف بعضهم قول «جالينوس» في المقالة الثالثة من (الميامر)[١]: أنّ الغسل ينقص من مرارة الصبر، بقوله: أنّ الغسل يُنقص من حرارة الصبر، وضحك وقال: أمّا يستحي جالينوس من هذا؟ كيف ينقص العسل من حرارة الصبر وهو حارّ؟! حتّى قيل له: إنّه الغسل لا العسل.

وكما صحّف بعضهم: خرؤ كلب، بقوله: جرو كلب، فأخذه في كمّه وهو يصيح، فقيل له: ما تصنع بهذا؟ فقال: إنّه يقع في الدواء، فقيل له خرؤ كلب، فرمى الجرو من كمّه ولعنه ورماه بالحجر وقال: والله مذ أخذته بكل كيف أعمل به.

وكما صحّف بعضهم: (وما كان سببه قيء مرة) و (ما كان سببه في مرّة).

وكما صحّف بعضهم قول «جالينوس»: (إنّ صناعة النجوم محالفة[٢] لصناعة الطب)، بقوله: (إنّ صناعة النجوم مخالفة لصناعة الطب)، وشنّع على من يقول: إنّ صناعة الطبّ تحتاج إلى شيء من صناعة النجوم.

وكما صحّف بعضهم قول «الرازي» في (المنصوري)[٣] (وكل

---

(١) الميامر: هو النصف الثاني من كتاب «جالينوس» (تركيب الأدوية)، وصنّف فيه الأدوية بحسب المواضع أي الأعضاء التي فيها المرض، ونقله إلى العربية «حبيش ابن الأعسم». (ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ١٤٣).

(٢) ورد في الهامش: ط، م. ما يلي: المحالفة بالحاء، المصاحبة والمرافقة، وبالحقيقة المقاربة.

(٣) المنصوري: من أشهر كتب الرازي الطبية، وهو عشر مقالات، وقد نشره معهد المخطوطات العربية ـ الكويت، بتحقيق «حازم البكر الصديقي» عام (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م).

يوم بزيت في الهاون)، بقوله: (وكل ثوم بزيت في الهاون).

وكما صحّف بعضهم: (وليكن غذاؤه فرخاً أو قطاً[١])، وقال: والله إنّ هذا لعجب، كيف يأمر هذا الناسَ بأكل السنانير[٢]؟

وكما صحّف بعضهم: (ويسقى بزر بنج[٣] بسكّر)، بقوله: (بزرنيخ بسكّر)، فسقى المريض زرنيخاً/ وقتله. [٣٨ب]

وكما صحّف بعضهم (شنج[٤] محرق) وقال: ومِنْ أينَ لنا (شيخ محرق)؟ وكما احتاج بعضهم إلى (ألسنة العصافير)[٥] فاشترى عصافير[٦] واستخرج ألسنتها من رؤوسها.

وكما ظنّ بعضهم أنّ (عروق الصبّاغين)[٧] هي العروق التي تكون في أبدان الصبّاغين. إلى ذلك من تصحيفاتهم القبيحة وظنونهم الكاذبة.

---

(١) قطا: نوع معروف من الطيور.

(٢) السنانير: (م) سنّور، حيوان أليف من الفصيلة السنورية ورتبة اللواحم من خير مأكله الفأر، وهو أهلي وبرّي. (الوسيط: ج١، ص ٤٥٤).

(٣) بنج: جنس نباتات طبية مخدّرة من الفصيلة الباذنجانية. (شهابي: ص ٣٥٩).

(٤) شنج: هو الحلزون البحري الكبير، يُحرَق ويُسحق ويُكتَحَل به. (المعتمد في الأدوية المفردة، ص ٢٧٣).

(٥) ألسنة العصافير أو الدردار: جنس شجر حرجي وتزييني من الفصيلة الزيتونية. (شهابي: ص ٢٧٧).

(٦) عصافير: ط، م. خطأ.

(٧) عروق الصبّاغين أو بقلة الخطاطيف: نبات برّي من الفصيلة الخشخاشية من النباتات الطبية. (شهابي: ص ١٢٧).

وجوب الطبيب

ولنرجع إلى ما كنّا فيه، فنقول: فالواجب على الطبيب أنّ يُحسن تقدير الأغذية والأدوية في الكمية والكيفية والوقت وجهة الاستعمال واختيار المواد، لأنّه من ها هنا يدخل عليه الغلط، فما عرض له ذلك عن تعمّد منه أو بجهل به فهو ملعون ومُبعَد لأجله من أهل هذه الصناعة، بل يجب أنّ يؤدّب ويُعزّر، وما كان عن سهو منه معذور فيه، إذ[١] كان الإنسان غير معصوم عن الغلط، وهو أولى من حاسب نفسه على ذلك وعاد إلى الحقّ، لأنّ سائر الصنّاع غير الطبيب، إذا أفسدوا شيئاً ممّا يعملونه تلافوا أمره، وأمكن أنّ يصلحوه، والغلط ها هنا بالأنفس، والغلط بالمُهَج، ونحن نستعيذ بالله ونسترشده إلى سلوك سبيل الحقّ، ونسأله العصمة عمّا لا يرضيه.

خطأ المريض

وأمّا ما يعرض من الخطأ من جهة المريض، فإذا خالف الطبيب واتّبع شهواته ولم يمتثل ما يأمره به، بل أطاع قول مَنْ لا يعلم، أو قتل نفسه بجهل[٢]، كما يفعل من اختلط عقله وتعمّد، كالعاشق، أو مَنْ دعته إلى ذلك ضرورة حملته على قتل نفسه، أو قصر وعجز عن قبول أمر الطبيب، أو عن بعضه، أو لم يفهم ما وصفه له، فحلّ به خطأ يُنسَب إلى الطبيب، وهو بريء منه.

وأمّا ما يعرض من الخطأ من تدبير المريض فهو إمّا بعمد وإمّا بغير عمد، فهو إمّا باختيار منه لهلاك المريض/ لغرض[٣] ما، أو [١٣٩]

---

(١) إذا: م.

(٢) بجهله: م.

(٣) بغرض: ط.

بتفريط في أمره، وما كان بغير عمد فهو لسوء تدبير ونسيان وقلّة فهم، فيغيّر ما يأمره به الطبيب، أو يقتصر على يسير من الدواء، وإمّا لشيء يلقى له أو يغيّر عليه، ممّا يدبر به المريض، وهو لا يدري، وهذا أيضاً فلا يُلام فيه الطبيب.

وأمّا ما يعرض للمريض من الخطأ من خارج فهو إمّا بسبب[1] صيحة أو حدوث شيء يزعجه كوقوع حريق أو غضب أو حركة عنيفة أو ما شاكل ذلك، فجميع هذه الأمور تبطّئ بالبرء أو تؤدّي إلى الهلاك.

وكثيراً ما يؤنّب به[2] الطبيب ويُذَمُّ إذا لجّ في مداواة الأمراض العسرة البرء كالخوانيق والسكتة[3] والصَّرَع[4] والفالج[5] والاسترخاء ونفث الدم والمدّة من الرئة والاستسقاء سيّما الكائن مع الأمراض الحادة والسّعال وقروح الأمعاء والقروح السرطانية والحصى في الكلى والمثانة والفتوق[6] والنواصير والأورام الصلبة الجاسية الحادثة في المفاصل وحمّى الدقّ الذبولية وأشباه ذلك.

---

(١) ساقطة: م.

(٢) ساقطة: ط.

(٣) السكتة: هو انطباق بطون الدماغ وامتناع الحسّ والحركة دفعة ويتبع ذلك غطيط وزبد وموت في أكثر الأحوال. (ابن الحشاء: مفيد العلوم، ص ١١٦).

(٤) الصَّرَع: هو سقوط الإنسان بغتة وتخبّطه وضغط نفسه ثمّ يفيق ويكون ذلك بأدوار. (ابن الحشاء: مفيد العلوم، ص ٩٣).

(٥) الفالج: هو استرخاء جانب من البدن، بكلّيّته وإنّ قيل مطلقاً فإنّ كان ببعض أعضائه قيل فالج عضو كذا. (المصدر السابق، ص ١٠٢).

(٦) الفتوق: (م) فتق، انفتاق صفاق البطن وبروز المعي أو الثرب تحت عضل البطن وجلده، وأصله من اللغة، الخرق. (المصدر السابق، ١٠٢).

غلط الطبيب

وكثيراً ما يغلط الطبيب في عدد أيّام البحران إذا لم يصحّ له ابتداء المرض فلا يصحّ حكمه على المريض ولا تدبيره بما يجب، وربّما كان الغلط ممّن يخبره عن ابتداء المرض وكثير[١] من أهل زماننا هذا يجعلون اللوم في تطاول الأمراض وهلاك المرضى على الطبيب، ويهملون جميع ما يتوجّه منه الخطأ ممّا لا يلزمه لأنّهم لا يعرفونه، وذلك لمقتهم للأطبّاء وتطيّرهم بهم، ومَنْ فعل ذلك فالله يحوجه إلى أراذلهم الذين ربّما عوّقوا بجهلهم دفعات كثيرة عن شفاء المريض حتّى إنّهم لو تركوها لشفته[٢] في أقلّ من ذلك الزمان الذي يزعمون أنّ فيه شفاه، ولذلك قال «أبقراط»: (وليس [يكفي][٣] المرضى المساكين ما بهم من شدّة أمراضهم حتّى تتضاعف عليهم إساءة[٤] الطبيب).

وربّما [اتّفق][٥] لهم مداواة المريض من غير علم منهم بالسبب ولا بالمرض ولا بالدواء/، والدليل على ذلك أنّ من هذه حاله لا [٣٩ب] يعلم السبب ولا ما المرض ولا ما العلامات الدّالّة على المرض ولا شيئاً ممّا ذكرنا أنّ الطبيب يحتاج ضرورة إليها[٦]، فيا عجباً كيف يُرجى ممّن كان على هذه الصفة أنّ يشفي الأمراض أم كيف يُطبّب

---

(١) وكثيراً: ط، م. خطأ.

(٢) ساقطة: م.

(٣) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

(٤) إشارة: ط، م. تصحيف.

(٥) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

(٦) إلى: ط، م. تصحيف.

الأنفس ويدفع مُهج المرضى إليه، كيف يكون ذلك عجباً وهم يسلّمون أرواحهم إلى العجائز الخَرِفات، فليس أحد يمرض إلاّ واكثر أهل بيته أطبّاء، إمّا امرأته أو والدته أو خالته أو بعض أهله وجيرانه، ويقبل من عاتكة ما تأمره ويتناول من شعثاء [ما][1] صنعته له ويسمع قولها ويطيع أمرها أكثر ممّا يطيع الطبيب ويعتقد أنّ تلك مع قلّة عقلها أعقل منه وأسدّ رأياً، وليس يليق هذا القول بهذا المقام ولكن هذا الخاطر أزعجه تذكّر قبيح أفعال العوام بأنفسهم الذين يقبلون خرافات النساء ويركنون إلى قول أراذل الأطبّاء الذين هم من العلم محرومون[2] والمرضى بسوء تدبيرهم مرحومون.

وهؤلاء الأراذل من الأطبّاء قد أوقعوا في نفوس كثير من الناس أوهاماً باطلة وظنوناً كاذبة لتقصيرهم في العلم وانضاف إلى ذلك ظنون العوام وخرافات النساء الخَرِفات، وليس يستضرّ ذلك إلاّ المرضى المساكين.

فمن ذلك اعتقادهم في أمراض أسبابها باردة أنّها حارّة، وكذلك في الرطبة واليابسة، ومن ذلك اعتقاد كثير من يعرض له مرض، فإنّ سبب مرضه من هواء[3] لحقه وهذا سبب واحد من الأسباب البادية ولا يصغي إلى مَنْ يقول له: إنّ سبب مرضك سوء مزاج غير ما تتوهّمه أو من أحد الأخلاط الأربعة لأنّه لا يعلم أنّ هذه الأخلاط إذا خرجت عن حدّ الأعتدال في كميتها أو كيفيّتها أحدثت/ أنواعاً مختلفة من الأمراض، وإذا تركّبت تفنّنت الأمراض [١٤٠]

(١) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

(٢) محرمون: ط.

(٣) هؤلاء: م، تصحيف.

الحادثة عنها لأنّ الدم كما قال «جالينوس» مثله مثل الكلب العقور الذي يجب إذا دخل عليك أنّ تقتله أو تحتال في إخراجه، وأنّ الصفراء كالمرأة الصالحة السليطة تؤذي بطول لسانها إلاّ أنّ رجوعها سريع وبلا حقد، والبلغم مثله مثل الملك الذي إذا دخل عليك فيجب أن تتلطّف في أمره وتداريه وتحتال في إخراجه من غير إخراق بهيبته، والسوداء كالإنسان الحقود المضمِر شرّاً، فهو لا يزال يحقد على صاحبه حتّى يتمكّن[1] منه ويثب عليه وثبة يبلغ بها منه مجهوده.

وقيل: الصفراء ترضيه الثمرة وتسخطه الكلمة، والبلغم كالسبع اقهره وإلاّ قهرك، والسوداء كالثور فإنّه يسوقه الصبي والمرأة فإذا غضب لا يُطاق.

فسالم الدم مسالمتكَ لصديقك، واخضع للصفراء خضوعكَ لمن فوقكَ، وجاهد السوداء مجاهدتك عدوَّكَ، واقهر البلغم قهركَ عبدكَ.

فقاوم الصفراء بالأشياء الحامضة، والبلغم بالطعوم المالحة، والسوداء بالثرائد[2] الدسمة، والدم بالأشياء الحامضة القابضة.

وقيل: الطبيعة كالمدّعي، والعلّة كالخصم، والعلامات كالشهود، والنبض والقارورة كالبيّنة، ويوم البحران كيوم القضاء والفصل، والمريض كالمتوكّل، والطبيب كالقاضي. وهذا التمثيل وإن لم يناسب المقام، فإنّما تركته لكونه تمثيلاً طريفاً كالآخرين.

وعلى الجملة خطأ هؤلاء أكثر من أن يُحصى، ومنه ما يلزمون

---

(١) وردت (لا يتمكن) في ط، م، والصواب ما أثبتناه.

(٢) الثرائد: (م) الثريد، ما يثرد من الخبز. (الوسيط: ج١، ص ٥٩).

المريض ويُكرهونه على تناول الغذاء ولا يعلمون أنّ الغذاء كما يزيد في قوّة الصحيح كذلك يزيد مرض المريض. وممّا وقع في نفوسهم وهم إلى الآن يتناظرون فيه ويتخاصمون عليه ويُحكّمون/ عليهم [٥٠ب] الأطبّاء، ولا يقبلون منهم ما يقولون لتمكّنه في نفوسهم فيهربون من الحارّ إذ يظنّونه بارداً ويخافون من البارد لأنّهم يقدّرونه[١] حارّاً اعتقادهم في الحنّاء[٢] والرازيانج[٣] والزئبق[٤] والرواند[٥] أنّها باردة واعتقادهم في الثلج والبطّيخ الهندي[٦] أنّها حارّة، ويقيم المتغفلون منهم على ذلك براهين وأدلّة غير صحيحة، فيقولون الدليل على أنّ الحنّاء [بارد][٧] اجتذابه الحرارة إلى ظاهر الجسم ويتوهّمون أنّ صبغ الحنّاء للجلد هو حرارة ظهوره في الجسم، ويقولون الدليل على برودة الزئبق إضراره بالدماغ و «جالينوس» يرتّب الزئبق في الدرجة الرابعة من الحرارة لذكره إيّاه مع الأدوية المحرقة الأكّالة كالنورة[٨]

---

(١) وردت (لا يقدرونه) في ط، م، والصواب ما أثبتناه.

(٢) الحناء: جنية صبغية مشهورة من الفصيلة الحنائية. (شهابي: ص ٣٣٨).

(٣) الرازيانج: من الفارسية وهو الشمار، جنس بقول من الفصيلة الخيمية. (شهابي: ص ٢٦٨).

(٤) الزئبق: عنصر فلزي سائل يستخدم هو وأملاحه كسمّ مضادّ للحشرات. (المصدر السابق: ص ٤٥٦).

(٥) الرواند: جنس أعشاب معمرة طبية. (المصدر السابق: ص ٦٠٨).

(٦) البطيخ الهندي: نبات عشبي من الفصيلة القرعية يزرع لثمره. (المصدر السابق: ص ٧٨٧).

(٧) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

(٨) النورة: حجر الكلس أو الجير الحيّ، أي أوكسيد الكالسيوم، ثمّ غلب على أخلاط تضاف إلى الكلس من زرنيخ وغيره يزال بها الشعر طلاءً. (المصدر السابق: ص ٤١٨).

والزرنيخ والزاج[١] والكبريت[٢] [٢٢ب] ويقولون: العسل يحفظ جميع ما يوضع فيه من الأغذية والأدوية ويمنعها أن تتعفّن وما كانت هذه صنعته كان بارداً، ويفزعون من شرب الرواند في الشتاء ولا يمكّنون المشايخ من شربه، ويعتقدون أنّه من التبريد في طبقة الكافور[٣]، ولا يعلمون أنّه من الحرارة واليبس في الدرجة الثانية (ومثل هذا قول الهنود في الفلفل[٤] لأنّهم يستعملون الفلفل ويذيب البلغم الغالب عليهم، ويستريحون ويفهمون منه أنّه بارد)[٥] ويحتجّون على حرارة الثلج[٦] بأنّه يتعفّنْ ويتولّد منه دود، وهذه حجّتهم في الخلّ، وهذا هو الجهل المركّب، أعني جهلاً ببرهان، وهو الذي ذمّه «أرسطوطاليس» وذمّ أهله، ومن أحبّ أنّ يعرف مزاجات هذه الأشياء فليطلبها من موضعها في كلام من اختبرها وامتحنها، وليس يلزمني أنّ أورد أغلاط هؤلاء وأبيّن فساد قياساتهم إذ[٧] كان الحقّ عند أهله وفي موضعه المختصّ به ظاهراً واضحاً.

---

(١) الزاج: من الفارسية، لفظ يُطلَق على بعض الكبريتات: كبريتات النحاس وكبريتات الحديدوز. (المصدر السابق: ص ٧٨٠).

(٢) الكبريت: عنصر لا فلزّي، نشيط كيميائياً وينتشر في الطبيعة، شديد الاشتعال. (المصدر السابق: ص ٧٠٧).

(٣) الكافور: مادّة عطرية بيضاء متبلورة تستخرج من شجر الكافور وتستعمل دواء للتشنّج والباه والآلام الموضعية. (المصدر السابق: ص ١٠٥).

(٤) الفلفل: من نباتات البلاد الحارة، من الفصيلة الفلفلية، يستعمل مسحوق ثماره في الطعام. (الوسيط: ج٢، ص ٧٠٠).

(٥) ما بين معقوفتين [ ] كتبها ناسخ: ط، م. في الهامش.

(٦) البلح: ط.

(٧) إذا: م.

ختم الوصية بوصيّة الكتابين

ولنختم الوصايا بوصيّتين من الكتاب الإلهي والحديث النبوي، إذ لا مزيد عليهما، لما أورده «الزمخشري»[(١)] في (الكشّاف)[(٢)] قائلاً: يُحكى أنّ الرشيد كان له طبيب نصرانيّ
[١٤١] حاذق، فقال لعليّ بن الحسين بن واقد/[(٣)]: ليس في كتابكم من علم الطبّ شيء، والعلم علمان: علم الأبدان، وعلم الأديان. فقال: قد جمع الله الطبّ كلّه في نصف آية من كتابه، قال: وما هي؟ قال: قوله: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾[(٤)]. قال النصراني: لا يؤثر من رسولكم شيء من الطبّ، فقال: نعم، قد جمع رسول الله ﷺ الطبّ في ألفاظ يسيرة، قال: وما هي؟ قال: قوله: (المعدة بيت الداء والحمية رأس كلّ دواء وأعطِ كلّ بدنٍ ما

---

(١) الزمخشري: محمود بن عمر الخوارزمي (٥٣٨هـ/ ١١٤٤م): كان إماماً في اللغة والنحو وعلم البيان، من مصنّفاته: (الفائق) في غريب الحديث، (أساس البلاغة) في اللغة. (التهانوي: أبجد العلوم، ج٣، ص ٣٢).

(٢) الكشّاف: كتاب في تفسير القرآن الكريم ألّفه الزمخشري، وهو من أهمّ التفاسير التي اعتمدت على التأويل واللغة.

(٣) علي بن الحسين بن واقد: هناك عالم وطبيب أندلسي يحمل اللقب نفسه (ابن وافد) واسمه عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن يحيى بن وافد بن مهنّد اللخمي (ت ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م)، من كتبه: في الأدوية المفردة، مجربات في الطب (ابن أبي أصيبعة ـ عيون الأنباء، ص ٤٩٦)، ومن الواضح أنّه ليس هو المقصود، لأنّ الشاهد الذي يرويه «الشيرازي» قد وقع في زمن الخليفة العبّاسي هارون الرشيد، أي في القرن الثاني الهجري.

(٤) سورة الأعراف: ٣١.

عوّدته)[١]، فقال النصرانيّ: والله ما ترك كتابكم ولا نبيّكم لجالينوس طبّاً، والفضل ما شهدت به الاعداء.

فهذه هي الوصايا ولا يؤاخذ على تكرار بعضها، فإنّ الوصيّة كلّما كانت[٢] أكثر تكراراً كانت أشدّ تقريراً[٣]، والغرض من كلّ ما ذكرناه بعد توصية الأطبّاء بما يجب على مَهَرَتِهم وتنبيه الألبّاء على الاحتزاز من جهلهم، تشويق أهل الذكاء والفهم إلى تعلّم هذا الفنّ، إذ قبيح بمن كان متخصّصاً بشيء من الآداب والعلوم أنّ يخفى عنه ما ينفعه ليتدبّر به، وما يضرّه ليتجنّب عنه، وكيف لا يقبح به أن يجهل صناعة وضعها الله تعالى لأنبيائه وأمرهم بها فاستعملوها وأمروا بها، وحثّوا على تعلّمها واستعمالها.

والحيوان غير[٤] الناطق لما لم يمكنه التصرّف في هذا العلم بقياس صناعي وحدس[٥] عقلي ألهمه الله تعالى أنّ يستعمل ما يحتاج إليه فيجتذب النافع الموافق وينفر من الضارّ المخالف، وذلك بتوسّط الحواس ولم تعقد به القوّة الطبيعية التي وكّلها الله بتدبيره وإصلاح حاله وشفاء الآلام العارضة له.

---

(١) لم يصحّ هذا الحديث عن الرسول ﷺ، وإنّما ورد الكثير من الأحاديث بهذا المعنى، ويقول «ابن القيم»: وأمّا الحديث الدائر على ألسنة كثير من الناس (الحمية رأس الدواء والمعدة بيت الداء، وعوّدوا كلّ جسم ما اعتاد) فهذا الحديث إنّما هو من كلام «الحارث بن كلدة» طبيب العرب، ولا يصحّ رفعه إلى النبي ﷺ. (ابن القيم: زاد المعاد، ج٢، ص ١٠٤).

(٢) كان: ط، م. خطأ.

(٣) تقرراً: ط.

(٤) الغير: ط، م. خطأ.

(٥) حدث: م.

من ذلك أنّ الحيّات في الشتاء تسكن في بطون الأرض وتغيب [في][١] حجرتها كالميتة لا حراك بها، والحرارة حينئذٍ كامنة في باطن الأرض، طلباً للغذاء الذي به تنحفظ الشخصية، وللتوليد الذي [به][٢] تنحفظ النوعية، وهي حينئذٍ لا تبصر/ شيئاً إلى أن تأتي بما [٤١ب] ألهمها خالقها إلى نبات الرازيانج وتقلّب أعينها عليها إلى أن يعود بصرها عليها، ومن هذا علم الأطبّاء في المنفعة في ماء الرازيانج فاستعملوه في الموضع الذي يصلح استعماله فيه، ومن ذلك ما يعرض للغربان إذا أكل ما يمسك طبيعته فتبعثه الطبيعة التي وكلها الله تعالى بحفظ الأبدان ذوات الطبائع وتدبيرها وشفاء أمراضها على أن يأتي ساحل البحر فيأخذ في منقاره من الماء الحار فيحتقن به فيسهله ويزول ما يجده من الألم، وكذلك السنانير فإنّها في أوقات الربيع تأكل الحشيش، ومعلوم أنّ ذلك ليس ممّا كانت تغتذي به أوّلاً وإنّما دعاها إلى الإلهام بفعل ما جعل الله سبباً لصحّة أبدانها، فإذا أكلت ذلك الحشيش تقيّأت أخلاطاً مختلفة قد اجتمعت في أبدانها، ولا تزال تفعل ذلك إلى أن تحسّ بالصحّة المأنوس إليها بالطبع فتكفّ عن أكله، وكذلك ما يأكله الدواب في وقت الربيع من نبات الأرض وما يزقّ به الطائر لفراخه من صورج[٣] الحيطان لتدبغ به حواصلها لعلمه بضعفها ثمّ يزقّها الحبّ، وهذا القول وأشباهه ظاهر غير خافٍ عن أكثر الناس.

---

(١) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

(٢) ما بين معقوفتين [ ] زيادة اقتضاها السياق.

(٣) صورج: الصاروج: النورة وأخلاطها التي تضرّج بها المنازل وغيرها وهو فارسي معرّب. (ابن منظور: لسان العرب، ج٢، ص ٣١٠).

وكذلك فضل العلم، فإنّه ليس يجهله إلاّ مَنْ جهله ولأنّ فضيلة العلم لا تُعْلَم إلاّ بالعلم، فلمّا عدم الجهّال العلم الذي به يتوصّلون إلى فضيلته جهلوا فضله واسترذلوا أهله وانصرفوا عنه زاهدين فيه ومقتوه معاندين له، ومالت نفوسهم إلى كسب الأموال والتعبّد للشهوات، ولذلك قيل: إنّ العالِم يعرف الجاهل لأنّه كان جاهلاً، والجاهل لا يعرف العالِم لأنّه لم يكن عالماً، وهذه الطائفة تنفر من العقلاء بالحقيقة، وتطرح العلماء/ بالواحدة، وتعتقد أنّ العالِم [١٤٢] مجازف محروم، وأنّ الجاهل موفق محظوظ، ويظنّون أنّ سبب الحرمان العقل، وأنّ سبب الحظ الجهل، ولا يجدون طريقاً إلى ذمّ العلوم إلاّ بعدم كسبها للمال، وبعدها عن ذوي الأموال، ولا يعلمون أنّ الحرص على اقتناء العلوم يوجب الذخائر الباقية والاجتهاد في كسب الأموال يكسب القنايا الفانية.

وليس لمن هذه حاله، في العدل نفع[١] ولا في الاستصلاح مطمع، ولذلك لمّا قيل لـ«بزر جمهر»[٢]: ما لكم لا تعاتبون الجهّال؟ قال: لأنّا لا نطمع في العميان أنْ يبصروا.

وقد جمع[٣] العلاّمة ﷺ تعالى في هذه الوصيّة جواهر من الحِكَم[٤] ودرراً من الكَلِم، تنفع المنصف[٥]، وتفيد المتأمّل من

---

(١) يقع: ط، تصحيف.

(٢) بزرجمهر: (ت ٦٠٢م) ابن البختكان، حكيم فارسي أشاد الفرس بذكره، ومعنى (بزرجمهر) الشمس العظيمة، استوزره «كسرى أنو شروان» وبقي في منصبه في أيّام «كسرى أبرويز» الذي اتّهمه بالزندقة فقتله. (المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص٢٧٦).

(٣) جمعت: ط، م.

(٤) الحلم: م.

(٥) المصنف: م.

ذوي العقل والتحصيل لا من ذوي الجهل والتجهيل والحسد والتخبيل، فإنّ الجاهل الحسود يرى الحسنات ويتبع العثرات، وإنّ الجهلة من الأطبّاء أكثر من المهرة، وإنّ لكلّ امرىء ما نوى في الدنيا والآخرة.

فهذا ما أوردنا[١] من كلام لطيف الجواهر والفرائد كثير المعاني والفوائد مسعود الزمان محمود البيان قطب دائرة الأفكار كالشمس في فلك الأنوار من قال يرحمه الله فقد تمّت بالحمد لله والصلاة على رسول الله وآله وصحبه أجمعين.

وقع الفراغ من استنساخه في منتصف شهر محرّم الحرام لسنة ثلاث عشرة وتسعمائة الهجرية المصطفوية صلّى الله عليه وآله وبارك وسلّم في بلدة «جرون»[٢] حماها الله تعالى عن الآفات، على يد العبد الفقير الضعيف المحتاج إلى رحمة الله المعبود كمال الدين بن ظهير الدين بن اعتبار الدين المتطبّب أصلح الله أحوالهم في الدارين، آمين بجاه محمّد وآله، تاريخ النسخة القديمة[٣] [من الوافر]:

سَتبقى خطوطي في الدفاتر برهة

وأنملتي تحت التراب رميم/[٤] [٤٢ب]

وقد وقع الفراغ من استنساخ هذه الرسالة، على يد كاتبها

---

(١) أردنا: م.

(٢) جرون: وتسمّى حبرون، مدينة كنعانية من أقدم المدن الفلسطينية، تقع على بعد (٤٤) كيلو متر جنوب القدس. (ياقوت الحموي: معجم البلدان، السفر الأول، ص ١٩٧).

(٣) العبارة بين قوسين ( ) ساقطة في: ط.

(٤) نهاية مخطوط: ط.

٢٢٥

الفقير إلى الله العلي، عبده حسن بن علي بن أحمد الفيّومي، بلدة الشافعي مذهباً، في يوم الثلاث لبوم خلت من شهر ذي الحجّة الحرام الذي هو عام ألف وثلاثمائة واثنين هجرية على صاحبها أفضل الصلاة والزكاة، أصلح الله لمن كتب هذه الرسالة ولوالديه وإخوانه الحال ولمن دعا له آمين[١].

* * *

(١) نهاية مخطوط: م.

الفهارس

فهرس الأعلام

الواردة في متن المخطوط

ف

ك

فهرس الكتب

الواردة في متن المخطوط

فهرس النباتات[٢٣]

الواردة في متن المخطوط

فهرس الأمراض

الواردة في متن المخطوط

فهرس المصطلحات التشريحية

الواردة في متن المخطوط

المصادر والمراجع

المصادر العربية المطبوعة:

* ابن أبي أصيبعة: أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم السعدي (ت ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م)

- عيون الأنباء في طبقات الأطباء ـ تحقيق: نزار رضا ـ منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

* ابن تغري بردي الأتابكي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف (٨١٣ / ٨٧٤هـ)

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

* ابن حجر العسقلاني: شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد (ت٨٥٢هـ)

- الإصابة في تمييز الصحابة ـ طبعة مصورة عن طبعة مطبعة دار السعادة بمصر ـ ١٣٢٨هـ ـ دار صادر ـ بيروت ـ د.ت.

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ـ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آباد الدكن ـ الهند ـ ١٣٤٩هـ.

- فتح الباري، شرح صحيح البخاري ـ رقم أحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي ـ المكتبة السلفية ـ القاهرة ـ د.ت.

* ابن حنبل: أحمد (ت ٢٤١هـ/ ٨٥٥م)

- مسند الإمام أحمد ـ شرحه الشيخ أحمد شاكر ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٣٧٥هـ.

* ابن الحشّاء: أبو جعفر أحمد بن محمد (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م)

- مفيد العلوم ومبيد الهموم - تحقيق: جورج كولان ورينو - المطبعة الاقتصادية - الرباط - المغرب - ١٩٤١م.

* ابن خلدون - عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ)

- مقدمة ابن خلدون - تحقيق: درويش الجويدي - الطبعة الثانية - المطبعة العصرية - بيروت - ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧م.

* ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن ابي بكر (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - تحقيق: إحسان عباس - دار صادر - بيروت - ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

* ابن سينا: الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن علي (ت ٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م)

- القانون في الطب - دار صادر - بيروت - د.ت.

* ابن قيم الجوزية: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الحنبلي الدمشقي (ت ٧٥١هـ/ ١٣٦٩م)

- زاد المعاد في هدى خير العباد - الطبعة الثالثة - تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

- الطب النبوي - تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي - دار التراث - القاهرة - ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

* ابن ماجه: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م)

سنن ابن ماجه - تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي - القاهرة - ١٣٧٢هـ.

* ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن المصري (ت٧١١هـ/ ١٣١١م)

لسان العرب ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

* ابن وحشية: أبو بكر أحمد بن علي بن قيس الكسداني (القرن الرابع الهجري ـ العاشر الميلادي)

الفلاحة النبطية ـ تحقيق: توفيق فهد ـ المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية ـ دمشق ـ ١٩٩٣م.

* أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م)

سنن أبي داود ـ تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ـ دار إحياء السنة النبوية ـ القاهرة ـ د.ت.

* أبو القاسم: خلف بن عباس الزهراوي (ت ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م)

في الجراحة والآلات (النص العربي مع ترجمة إنكليزية) ـ تحقيق وترجمة سبينك ولويس ـ منشورات مؤسسة الويلكام لتاريخ الطب ـ لندن ـ ١٩٧٣م.

* الأعلم الشنتمري: يوسف بن سليمان بن عيسى (٤١٥ ـ ٤٧٦هـ)

أشعار الشعراء الستة الجاهليين ـ منشورات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ د.ت.

* البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي (ت ٢٦٥هـ/ ٨٦٩م)

صحيح البخاري ـ تحقيق: قاسم الرفاعي ـ دار القلم ـ بيروت ـ د.ت.

* الترمذي: أبو عيسى محمد بن سورة (ت ٢٧٩هـ/ ٩٣٢م)

سنن الترمذي ـ تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف ـ دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ د.ت.

* **التهانوي: محمد علي (توفي بعد ١١٨٥م)**

كشّاف اصطلاحات الفنون ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

* **الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/٨٦٩م)**

من كتاب الحيوان ـ مطبعة وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ١٩٧٩م.

* **الجرجاني: علي بن محمد بن علي (٧٤٠ ـ ٨١٦هـ)**

كتاب التعريفات ـ تحقيق: إبراهيم الإبياري ـ دار الريان للتراث ـ القاهرة ـ د.ت.

* **حاجي خليفة: مصطفى بن عبد الله (ت ١٠٦٥هـ/١٦٥٨م)**

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ـ منشورات مكتبة المثنى ـ بغداد ـ د.ت.

* **الحموي الرومي: ياقوت (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م)**

من كتاب معجم البلدان ـ مطبعة وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ١٩٨٢م.

* **حنين بن إسحق: (ت ٢٩٤هـ/٨٧٧م)**

في حفظ الأسنان واللثة واستصلاحها ـ تحقيق ودراسة: الدكتور محمد فؤاد الذاكري ـ دار القلم العربي ـ حلب ـ ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

* **الرهاوي: إسحق بن علي (القرن الرابع الهجري)**

أدب الطبيب ـ تحقيق: مريزن سعيد عسيري ـ مركز الملك فيصل للبحوث الإسلامية ـ الرياض ـ ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

* **السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ)**

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ـ مطبعة السعادة ـ القاهرة ـ ١٣٢٦هـ.

* **الشهرستاني: أبو الفتح (ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م)**

الملل والنحل ـ دار دانية للطباعة ـ دمشق ـ ١٩٩٠م.

* **صاعد بن الحسن: (توفي بعد ٤٦٤هـ/١٠٧١م)**

التشويق الطبي ـ تحقيق: مريزن سعيد عسيري ـ مكتب التربية العربي لدول الخليج ـ الرياض ـ ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

* **الصفدي: صلاح الدين خليل بن إيبك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م)**

كتاب الوافي بالوفيات ـ الطبعة الثانية ـ فرانز شتاينر ـ ستوتجارت ـ ١٤١١هـ.

* **طاش كبري زادة: أحمد بن مصطفى (١٤٩٥ ـ ١٥٦١م)**

مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم ـ دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ـ د.ت.

* **الغساني: الملك المظفر يوسف بن علي بن رسول (ت ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م)**

المعتمد في الأدوية المفردة ـ صححه: مصطفى السقا ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢م.

* **القرطبي: أبو عمران موسى بن عبيد الله الإسرائيلي (ت ٦٠١ هـ/ ١٢٠٤م)**

شرح أسماء العقار ـ تحقيق: ماكس مايرهوف ـ مطبعة الثقافة الدينية ـ بورسعيد ـ ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

* **القشيري: أبو الحسين مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ/ ٨٧٤م)**

صحيح مسلم ـ تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار الحديث ـ القاهرة ـ ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

* **القفطي: الوزير جمال الدين علي بن القاضي الأشرف ـ (ت٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)**

إخبار العلماء بأخبار الحكماء ـ مكتبة المتنبي ـ القاهرة ـ د.ت.

* **القلقشندي ـ أحمد بن علي بن أحمد الفزاري (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)**

من كتاب صبح الأعشى في كتابة الإنشا ـ منشورات وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ١٩٨١م.

* **القمري: أبو منصور الحسن بن نوح (ت ٤٦٤هـ/ ١٠٧١م)**

التنوير في الاصطلاحات الطبية ـ تحقيق: غادة حسن الكرمي ـ مكتب التربية العربي لدول الخليج ـ ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

* **القنوجي: صديق بن حسن (ت ١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م)**

أبجد العلوم ـ منشورات وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ١٩٨٨م.

* **محمد بن إبراهيم بك زادة: (ت ١٠٢٩هـ/ ١٦٢٠م)**

محنة الفكر الطبي: رسالة في ماهية الطب وشرفه وأصوله وما يحتاج إليه الطبيب من العلوم وصفات الطبيب ـ تحقيق ودراسة: الدكتور محمد فؤاد الذاكري ـ المطبعة التعاونية ـ دمشق ـ ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

* **المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٦٤ هـ/ ٩٥٧م)**

مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ تحقيق: محمد محيي الدين عبد

الحميد ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

* **النديم: محمد بن إسحق البغدادي (ت ٣٨٥هـ)**

الفهرست ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ د.ت.

* **النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٦٧٧ ـ ٧٣٣هـ)**

نهاية الأرب في فنون الأدب ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف ـ القاهرة ـ د.ت.

* **الهيثمي: الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر (ت ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٤م)**

مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ـ دار الكتاب ـ بيروت ـ د.ت.

المراجع العربية والمعربة:

* **الألباني: ناصر الدين**

صحيح الجامع الصغير وزياداته ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ د.ت.

* **م. براون، إدوار:**

الطب العربي ـ ترجمة: داود سليمان علي ـ مطبعة العاني ـ بغداد ـ ١٩٦٤م.

* **الجابري، محمد عابد**

نحن والتراث ـ الطبعة السادسة ـ المركز الثقافي العربي ـ بيروت ـ ١٩٩٣.

* **جادامر، هانز جورج**

المرايا المحدبة ـ سلسلة عالم المعرفة ـ العدد ٣٢٣ ـ الكويت ـ ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٨م.

* **الزرقاني: محمد بن عبد الباقي (ت ١١٢٢هـ)**

مختصر المقاصد الحسنة ـ تحقيق: محمد بن لطفي الصباغ ـ الطبعة الثانية ـ مكتب التربية العربي لدول الخليج ـ ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥.

* **الزركلي: خير الدين**

الأعلام ـ الطبعة السابعة ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ د.ت.

* **زيدان، جرجي**

تاريخ آداب اللغة العربية ـ منشورات دار مكتبة الحياة ـ الطبعة الثانية ـ بيروت ـ ١٩٧٨م.

* **شبولر، برتولد:**

العالم الإسلامي في العصر المغولي ـ ترجمة: خالد أسعد عيسى ـ دار حسّان للطباعة ـ دمشق ـ ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

* **ششن، رمضان، ورفاقه:**

فهرست مخطوطات الطب الإسلامي باللغات العربية والتركية والفارسية ـ بإشراف: أكمل الدين إحسان أوغلي ـ إستانبول ـ ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

* **الشطي، شوكت**

رسالة في تاريخ الطب ـ مطبعة جامعة دمشق ـ ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م.

* **عيسى، أحمد:**

تاريخ البيمارستانات في الإسلام ـ الطبعة الثانية ـ دار الرائد العربي ـ بيروت ـ ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

معجم أسماء النبات ـ الطبعة الثانية ـ دار الرائد العربي ـ بيروت ـ ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١م.

* غليونجي، بول

عبد اللطيف البغدادي ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٨٥م.

* كحالة، عمر رضا:

معجم المؤلفين ـ مكتبة المثنى ـ بيروت ـ د.ت.

* معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الزراعية ـ الطبعة الثانية ـ مكتبة لبنان ـ بيروت ـ ١٩٨٢م.

* المعجم الفلسفي ـ منشورات مجمع اللغة العربية ـ القاهرة ـ ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

* المعجم الوسيط ـ مجمع اللغة العربية ـ مطابع دار المعارف بمصر ـ القاهرة ـ ١٩٧٢.

* المنجد في اللغة والأعلام ـ الطبعة الثالثة والثلاثون ـ دار المشرق ـ بيروت ـ ١٩٩٢م.

* هاف، توبي

فجر العلم الحديث ـ سلسلة عالم المعرفة ـ العدد ٢١٩ ـ الكويت ـ ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

المجلات:

مجلة الفيصل ـ العدد ٢٣٠ ـ ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦م ـ إعادة كتابة التاريخ ـ محمد فؤاد الذاكري.

مجلة الفيصل ـ العدد ٢١٧ ـ ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥م ـ آداب الطبيب

والتزاماته في قوانين الحسبة - محمد فؤاد الذاكري.

مجلة المشرق - المجلد ٥٤ / ١٩٦٠ - الرازي ومحنة الطبيب - تحقيق الدكتور ألبير زكي إسكندر.

مجلة معهد المخطوطات العربية - المجلد الخامس - الجزء الثاني - ١٣٧٩ هـ/١٩٥٩م - مصادر جديدة عن تاريخ الطب عند العرب - د. صلاح الدين المنجد.

مجلة الوحدة - العدد ١٠١/١٠٢ - ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م.

Gary leiser, medical education in Islamic lands from the seventh to the fourteenth centuries.

Journal of the history of medicine & allied science, 38 (1983) p 47 - 48.

المراجع الأجنبية:

Brockelmann, Carl:

Gescichte der Arabiscen litteratur, E.J. Brill, Leiden, 1937.

Sarton, George:

Introduction to the history of science, Huntington, New York, 1975.

الفهرس العام